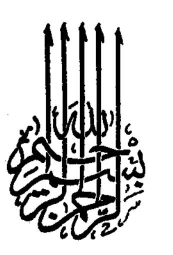




الطبعة الخامسة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الندوة الجديدة
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

* * *

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق .

* * *

اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين ، إنك حميد مجيد .

تقديم

أقدم إلى القارئ الكريم هذا الكتاب فيما يجب اعتقاده فى حق الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله ، وما يجب الإيمان به فيما يتصل باليوم الآخر ومقدماته ومآل العالم فيه ، مستدلا على ذلك بالأدلة النقلية ذات الدلالة القطعية ، وبالأدلة العقلية والعلمية القديمة والحديثة .

وقد سلكت فى عرض موضوعات هذا الكتاب الأسلوب السهل الميسر ، ليستطيع القارئ العادى تفهم قضاياه ، والإلمـــام بكل ما ذكر فيه من مبادئ وعلوم ، كما يستطيع أن يدرسه لأسرته ومجتمعه دون وقوع فى خطأ أو لبس .

وحاولت جهدى أن أجمع بين طريقة الأقدمين وطريقة المحدثين ، سواء فيما يتصل بالقضايا والمبادئ ، أم فيما يتصل بعرض الأدلة واستخلاص النتائج . وقصدى من ذلك أن يستفيد من قراءته من درس هذا العلم على الطريقة القديمة ، ومن درسه حسب المنهج الحديث ، ومن لم يدرسه أصلا ولم يعره من قبل اهتماماً . ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إن هذا الكتاب – على صغره – يعتبر الأول من نوعه فى أنه جمع بين دفتيه كثيراً من قضايا التوحيد المبعثرة فى ثنايا الكتب العديدة ، بحيث كان يشق على الباحث الحصول عليها ، ويصعب على المتعلم جمع شتاتها ، وذلك مثل : – إعجاز القرآن – وخواص الجن وأعمالهم المتصلة بالأنس – وتحضير الأرواح – والأمور المنافية للتوحيد – وذكر بعض الفرق الإسلامية بترجمة موجزة لكل فرقة ؛ وزدت عليه فى هذه الطبعة زيادات تناسب المقرر بالنسبة لمنهج الثقافة الإسلامية بالجامعة . مثل « من أجل ثقافة إسلامية » و « العبادات وصلتها بالعقيدة » و « بين العقيدة والأخلاق » إلى ما أضيف أو حذف من الكتاب الأصلى وهو قليل جداً وبحيث لا يعدو عشر صفحات من مجموع الكتاب ، وذلك شأن كل مؤلف يحاول أن يقارب الكمال ما استطاع .

والفضل فى بحث قضايا هذا الكتاب وتمحيصها لمن سبقنا من العلماء الفضلاء ، فهم الأصل ، وإليهم يرجع الفضل فى إبرازها وتوضيحها وجمع أدلتها ، وما كان عملى إلا جمع ما تفرق ، وتبسيط ما تعقد ، وتيسير ما ظاهره العسر ، ثم تقديم ذلك إلى القارىء فى أسلوبه المناسب حسب ظنى ، مع إبداء رأيى فى بعض القضايا مدعماً بالأدلة من الكتاب والسنة .

وإنى أعترف بأن الدافع الأول لإخراج هذا الكتاب هو الجمهور المسلم الطيب الذى استمع إلى موضوعاته أثناء محاضرات الخميس بكلية هندسة القاهرة ثم بمسجد فهد السالم بالسالمية . بالكويت بعد ذلك . فلولا مطالبة هذا الجمهور بطبع هذه المحاضرات لتكون فى متناول كل من أرادها ما اهتممت – على الأقل – فى هذا الوقت بتقديم هذا الكتاب للطبع . والله أسأل أن يحفظ من الزيغ قلوبنا ، وأن يطهر من الشرك الخفى نفوسنا ، وأن يعز أمتنا وينصر ديننا إنه نعم المولى ونعم النصير .

من أجل ثقافة إسلامية

مادة الثقافة الإسلامية مقرر تدريسها فى جميع الكليات والمعاهد العلمية بالمملكة العربية السعودية ، وقد زاد الاهتمام بهذه المادة فى هذه الفترة العصيبة من حياة أمتنا الإسلامية ذات الماضى المجيد ، والحاضر المضطرب ، والمستقبل المحفوف بالمخاوف والمخاطر ، وإذا كانت الأمة الإسلامية قد حملها الله أمانة توعية الإنسانية وترشيدها ، ورسالة قيادتها وهدايتها ، ومسئولية إخراجها من الظلمات إلى النور ، ومن الشقاء إلى السعادة ، فإن نكبة الإنسانية تكون فادحة ، وحسرتها تكون طويلة ، إذا انحرفت أمة القيادة عن الخط المرسوم ، والنهج الربانى القويم .

ويوم يصل انحراف هذه الأمة الإسلامية إلى أن تلقى ما بيدها من كنوز ربانية لا مثيل لها ، ثم تذهب شرقاً وغرباً تتسول أفكاراً بشرية المنبع ، مظلمة المطلع ، خبيثة المظهر والمخبر ، فإنها بذلك تكون قد فقدت كل ما بينها وبين الله من صلة ، وحرمت عناية الله ورعايته ، ونصره وتأييده وهانت على الله هواناً لا مثيل له .

ومن هنا تبدو أهمية الثقافة الإسلامية كمادة أساسية فى جميع سنى الدراسة من أجل إعداد الناشئين والناشئات ليكونوا خير أمة .

وبذلك يبرأ المسئولون أمام الله من التقصير والقصور .

ويشعر البنون والبنات بعطف الآباء وحنوهم عليهم .

وتنقشع عن العقول والقلوب سحب الشهوات والشبهات .

وينشأ جيل يحمل راية العزة الإسلامية فى الآخرين كما حملها أمثاله فى الأولين .

مفهوم الثقـــافة :

كلمة « ثقف » بضم القاف وكسرها مثل « كرم وفرح » تأتى لازمة ومتعدية .

فتقول فى اللازمة : ثقف يثقف ثقفاً وثقافة ، وتقول فى المتعدية بنفسها ثقفة ، وفى المتعدية بالتضعيف ثقفته ، وفى المتعدية بالهمزة أثقفته .

وتأتى هذه الكلمة بمعنى الحذق والفطنة والخفة ، فنقول : ثقف فلان ثقافة بمعنى صار حاذقاً خفيفاً فطنا

وبمعنى الظفر والمصادفة : فتقول ثقفته فى مكان كذا : أى صادفته ووجدته ومنه قوله تعالى :

[إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً] (١)

والمعنى : إن يظفروا بكم ، أو يصادفوكم .

وتأتى بمعنى التسوية والإعداد المناسب . فتقول : ثقفت الرماح بمعنى سويتها وأعددتها لـــا هى له ، وهذبتها لتؤدى الغرض منها .

ويمكنك أن تعبر بالكلمة من إطلاقها على الأمور المـادية إلى اطلاقها على الأمور المعنوية على سبيل المجاز ، فتقول ثقفت ولدى وتلميذى ، بمعنى أدبته وهذبته وسويت أخلاقه على النمط المرضى .

قال الزمخشرى فى أساس البلاغة : ومن المجاز : أدبه وثقفه ، ولولا تثقيفك وتوقيفك لـــا كنت شيئاً ، وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك ؟ . هذه خلاصة ما نحتاجه فى مقامنا هذا من معانى هذه الكلمة « ثقافة » حسبما جاء فى القاموس المحيط وفى مختار الصحاح ، وفى أساس البلاغة مع تصرف فى النقل والتعبير .

وإذا كان المجاز قد أسعفنا فى إطلاق الكلمة على معانى التهذيب والتأديب والتربية الحسنة ، فهل يسعفنا هذا المجاز فى إطلاق كلمة « ثقافة » على معنى آخر ؟ وما هو هذا المعنى ؟

---

(١) الممتحنة : ٢ .

إن الحس الإنسانى هو الأصل فى إطلاق الكلمة على معنى معين ، وليس العكس ، أعنى : ليست الكلمة هى الأصل فى إيجاد الحس ، ولذلك يزداد نجاح الأديب والخطيب والكاتب كلما ازداد استيعاباً للكلمات ذات اللمسات المباشرة للمشاعر الوجدانية ، والإحساسات الإنسانية التى أوحت بهذه الكلمات ، وإذا كان الحس الإنسانى هو الأصل فى التعبير اللغوى فإن من الطبيعى أن يكون لهذا الحس على الأقل حق التصرف فى التعبير اللغوى تصرف المد والجزر والإطلاق والتقييد ، والتوسيع والتضييق حسب مقتضى الحال فى رأى هذا الحس بشرط واحد فقط : هو أن يظل بين الأصل اللغوى وبين الإطلاق التوسعى خيط « ولو رفيع » منعا للفوضى الكلامية وحفاظاً على مكانة الوعاء اللغوى من التدهور والضياع ، فيضيع الإنسان نفسه ، إذ اللغة قوالب المعانى ، والمعانى هى التى تجعل للحياة معنى ، وللإنسان كرامة ، وللعقل مكانة ، ولكل شىء هوية يعرف بها .

وبناء على ذلك نقول : إن كلمة « تثقيف » فى اللغة يصح أن يراد بها مجازاً تهذيب وتأديب وتربية وكلمة « مثقف » تطلق ويراد بها ذو السلوك الحسن ، والأدب الجم ، والخلق الكريم ، والعمل الصالح . فيقال : فلان مثقف بمعنى أنه مؤدب وفاضل ، وذو سلوك قويم ، وخلق مرضى .

وكثيراً ما نسمع هذه العبارة « مثقف » مراداً بها هذا المعنى : « مهذب » فى مجتمعنا العادى الذى يعبر عن الأشياء حسب فطرته وطبيعته ، فتسمع شخصاً يقول لآخر : فلان لا يفعل النقائص ؛ لأنه مثقف . بمعنى مهذب بسبب تعلمه ، وفلانة أجدر بك أن تتزوجها لأنها مثقفة . تعنى هذبها علمها ودراستها ، فالحس الإنسانى إذاً صار يطلق كلمة « مثقف » ويريد بها المهذب والمؤدب تهذيباً ناشئاً عن العلم والمعرفة .

(فالثقافة بناء على هذا تعبير عن السلوك الحسن الناشئ عن العلم والمعرفة) لأنه لا يتصور تهذب وتأدب وتربية بدون علم ومعرفة بالحسن الذى يطلب فعله ، والقبيح الذى يطلب تركه ، فالمعرفة لازمة للسلوك الحسن غالبا ، ثم زاد التوسع فى إطلاق الكلمة فصارت تطلق أحيانا على « العلم والمعرفة » .

وأحيانا على « التهذب والتأدب » وبمرور الزمن وانطلاق المـــارد العلمى المـــادى صارت كلمة « ثقافة » تعنى أى نوع من أنواع العلوم والمعارف سواء كانت مادية أم غير مادية ، وسواء كان المتعلم مؤدباً ومهذباً أو غير مؤدب ومهذب ، ثم صارت تطلق على كل من عنده نوع من العلوم ولو كان إباحيا ، أو وجودياً ، أو انحلالياً ، أو شيوعياً ، أو أكبر مفسد فى الأرض ، وأشد مدمر لأخلاق البشر .

ونزل الظلم بالكلمة كما نزل بأكثر الناس فى عصر اختلت فيه الموازين والمقاييس وتحولت البشرية فى أكثريتها إلى وحوش يأكل بعضها بعضاً .

الثقـــافة الإسلامية

وإذا كانت كلمة « الثقافة » مطلقة معناها السلوك المهذب ، المبنى على العلم والمعرفة ، فإن الثقافة الإسلامية على هذا يكون معناها ومفهومها **« أنها السلوك الحسن والعمل الصالح والخلق الكريم القائم على التشريع الإسلامى والمنهج الربانى ، والملتزم بالخط المحمدى فى جميع شئونه » .**

وباختصـــار هى السلوك الملتزم بالكتاب والسنة .

وبذلك نخـــرج من دائرة الاختلافـات الـكثيرة ، والتناقضـــات ، والاضطرابات التى حدثت بسبب الوصول إلى المعنى المناسب لكلمة « ثقافة » مطلقة أو ثقافة مقيدة بكونها إسلامية . . فإن الاختلاف والاضطراب حول الاثنتين كثير ، وصل إلى درجة التنفير أحياناً عند بعض الكاتبين .. مثال ذلك أن تجد الكاتب يعرف الثقافة بأنها نظرية سلوك ، وعند البحث يبعد عن السلوك وما يتصل به ، ويتكلم عن الثقافة كعلوم ومعارف بدون ربط بين الاثنتين ، وبعضهم جرى على أنها معارف إنسانية شتى ، وقطع الصلة بين المعنى اللغوى والبحث العلمى فى هذه المـــادة . . . الخ ، وواضح أننا لم نهتم بالثقافات الأخرى لأنها ليست ضمن بحثنا هذا ، ولا جزءاً منه.

مصـــادر الثقافة الإسلامية :

إذا كانت الثقافة الإسلامية معرفة بأنها السلوك الملتزم بالكتاب والسنة فإن مقتضى ذلك أن يكون الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للثقافة والتثقيف الإسلاميين .

وهذان المصدران لا مثيل لهما في العالم في عصرنا الحاضر ولا فيما سبق من العصور، سواء في كونهما مصدرين نهائيين خاتمين لما سبقهما، أو في كونهما محفوظين من التحريف والتبديل .. فإن القرآن الكريم محفوظ بقوله تعالى :

[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (١)

فلا يمكن أن يبدل أو يغير أو يحرف في لفظ من ألفاظه، ولا في كلمة من كلماته .

والسنة النبوية وإن لم تكن محفوظة في مفرداتها فهي محفوظة في جملتها، لأنها تبيان للقرآن وشرح له كما قال تعالى :

[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] . . (٢)

ولأن الله أمر أهل الإسلام بالأخذ بما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – سواء كان كتابا أم سنة، فقال تعالى :

[وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ] (٣)

ومعنى هذا أن السنة باقية ومحفوظة لأهل الإسلام . والأدلة على ذلك كثيرة . كما أنهما لا مثيل لهما في اشتمالهما على كل ما يحتاجه الإنسان من أجل حياة طيبة كريمة في الدنيا والآخرة . قال تعالى :

[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ] (٤)

وإذا كانت السنة مبينة وشارحة للكتاب فهي بذلك تبيان للتبيان وتوضيح له .

(٣) المصدر الثالث « الإجماع » وذلك بالنسبة للأمور التي ليس فيها نص من كتاب أو سنة .

---

(١) الحجر : ٩ . (٢) النحل : ٤٤ .
(٣) الحشر : ٧ . (٤) النحل : ٨٩ .

(٤) الرابع «القياس» وهو أن يقاس ما استحدث من الأمور ، ولا يدخل تحت نص على ما فيه نص لاشتراك اللاحق مع السابق فى العلة المنضبطة .

أهميـــة الثقافة الإسلامية :

إذا كانت الثقافة الإسلامية هى السلوك الملتزم بالكتاب والسنة فإن المسلم لا يحتاج إلى إعمال فكره طويلا ليدرك أهمية هذه الثقافة فى حياته .

(١) إذ أن السلوك الملتزم منه ما هو فرض ، ومنه ما هو سنة سواء كان سلوكاً تعبدياً محضاً كالصلاة ، والزكاة ، والصدقة ، والذكر ، أو أخلاقياً كالصبر ، والحلم ، وحب الخير للناس ، والإغضاء عن الفواحش والنقائص ، أو سلوكا فى المعاملات المالية كالبيع ، والشراء ، والتداين ، والإجارة ، أو سلوكا فى الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة ، كالإحسان إلى الوالدين ، ومعاشرة الزوجة بالمعروف ، وصلة الأرحام ، وإكرام الجار .

والسلوك المفروض على المسلم التزامه مفروض تعلم أحكامه الشرعية ، وحدوده ، وكل ما يتصل به .

والسلوك الذى يسن ويستحب شرعا مطلوب من المسلم على سبيل السنة أن يتعلم أحكامه وما يتصل به ، لأنه لا يتصور عمل بغير علم بما يعمله الإنسان ، كيفية وشروطاً ، وأركانا ، وبدءاً ، ونهاية . فالعلم هو السبيل إلى تصحيح العمل الذى يرضى الله تعالى ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم مبينا فضل تعلم أمور الدين :

« وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ » (١)

وقال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّين » . (٢)

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) متفق عليه .

والقاعدة أن ما توقف عليه عمل الواجب فهو واجب ، وما توقف عليه عمل السنة فهو سنة .

(٢) الثقافة الإسلامية باعتبارها سلوكاً قائماً على المعرفة تعتبر سبب السعادة فى الدنيا والآخرة بالنسبة لمن التزم بها ، وسبب شقاء فيهما بالنسبة لمن أعرض عنها ، أو استبدل بها غيرها ، قال تعالى :

[فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] . (١)

(٣) الثقافة الإسلامية منهج ربانى كامل يسع الحلول لجميع المشكلات التى تعرض للبشر فى مسار حياتهم ، وهو بسبب كونه ربانياً كاملا يعتبر نعمة كبرى ورحمة لا مثيل لها . كما أنه المنهج الوحيد الذى ارتضاه الله لعباده ، وأمرهم أن يأخذوا به ، وينبذوا ما عداه فقال تعالى :

[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا] . (٢)

ومنهج هذا شأنه يجب أن يحرص العالم كله على الأخذ به ، والتمسك بكل ما فيه ، وأن يرمى بكل ما عداه من الأفكار البشرية ، والعصارات العقلية المضادة له بدون هوادة أو احترام .

(٤) نحن عباد الله ؛ مخلوقون بقدرته ، ومربوبون لعظمته ، ومرزوقون منه بفضله ورحمته ، وكل ماحولنا مسخر لنا بأمره وإرادته ، وإن كان لأحد نعمة وفضل علينا فإن نعمته مستمدة من نعم الله تعالى ، كما أنه تعالى هو العليم بما يصلحنا وينفعنا ، وهو أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا . . . وبعد هذه الحياة نحن فى الآخرة موقوفون بين يديه ، ومحاسبون على ما قدمنا

---

(١) سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢) المائدة : ٣ .

من خير أو شر ، والحجة بين الله وبين عباده حينئذ كتابه وسنة نبيه ، وعلى أساس العمل بمنهجه تعالى أو عدم العمل به يجازى العباد بالجنة أو بالنار ، وإذا كان الأمر كذلك فمن الجنون والسفه الجرى وراء حثالات العقول البشرية ، والمذاهب الشيطانية ، وترك منهج الله تعالى !!!

وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك كله بقوله تعالى :

[أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى ولاَ كِتَاب مُنِيرٍ * وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلٰى عَذَابِ السَّعِير ؟ * وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور] (١) .

(٥) إن الأخذ بالمنهج الإلهى سلوكاً وعملا من شأنه أن يجعل كل شيء فى الحياة جميلا لأن هذا المنهج يقيم الأسس الاجتماعية على الشعور الأخوى ، وعلى رحمة الإنسان لكل حى ، وعلى أساس التساوى بين الناس ، فلا مفاضلة إلا بالتقوى ، وعند التحاكم فيما شجر بينهم فإن العدل فى الحكم فريضة ، وإحسان الإنسان إلى أخيه فضيلة ، وأى انحراف عن الحكم بما أنزل الله يعتبر خيانة وظلماً وجحوداً لنعمة الله ، وخروجاً على سلطانه .

والذين عاشوا مع المنهج الربانى عقيدة وعبادة وسلوكاً اجتماعياً هم الذين قال الله فيهم :

---

(١) لقمان : ٢٠ — ٢٢ .

[أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ] .[1]

[وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ].[2]

[بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ] .[3]

[أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ][4]

أما ما وضعه البشر من مناهج فإنها لم تؤد دوراً ذا قيمة فى إسعاد البشرية، بل العكس هو الذى حدث ، فإن البشر ما شقوا إلا بتشريعات البشر ومناهج البشر المضادة لمنهج الله .

وهل وجدت شقاء نزل بالإنسان إلا بسبب الإنسان ؟ فكيف يؤتمن هذا الإنسان على أسمى ما فى الوجود وهو المنهج المنظم لحياة الإنسان مع الإنسان ومع كل ما فى الكون ؟ هذه البيوت المدمرة ، وهؤلاء الأطفال اليتامى بعد قتل الآباء ، وهؤلاء الأرامل بسبب سفك دماء الأزواج ، وأولئك المرضى المعذبون بأمراضهم ، والفقراء الأشقياء بفقرهم ، والذين شنقوا بغير جريمة ، والذين سجنوا بدون جناية ، والذين وئدت حرياتهم لمقالة حق قالوها أو كتبوها . . . كل هؤلاء وأولئك وغيرهم : من سبب شقائهم ومدمر سعادتهم لحساب شهوته وغطرسته وفرعونيته ؟ أليس هو الإنسان ؟ فكيف بالله بعد ذلك يأمن الإنسان إنساناً على أن يضع له نظرية سلوك أو نظام حياة يضاد نظام الله تعالى ؟

إذاً الأخذ بالإسلام علماً وعملا ، نظاماً وسلوكاً ، يعتبر ضرورة حياتية أهم من الطعام والشراب والهواء والدواء .

(٦) إن الثقافة الإسلامية بسبب مصدريها الأساسين (الكتاب والسنة) هى السبيل الوحيد للإجابة على جميع التساؤلات التى حيرت الإنسانية الضالة زمناً طويلا .

---

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) الحشر : ٩ .
(٣) التوبة : ٧١
(٤) المائدة : ٥٤ . . . الخ .

فنشأة الكون من مادة معينة ، وأصل هذا الكون ، ومن الذى كونه ، وأشياء هذا الكون المرئية وغير المرئية ، ونهايته متى وكيف ولم تكون ؟ . والإنسان لم خلق وما أصل خلقه ، وما هى صلته بخالقه ، وبالكون ، وبما يحيط به ، وما هو مصيره . وعلى أى أساس يحدد المصير ، وما معنى فنائه ، وما حكمة فنائه ثم بعثه ثم محاسبته ومجازاته ؟ . . . وهذه الجبال الشامخة ، والسهول الواسعة ، والبحار والمحيطات ، والأرض والسموات ، كل ذلك وغيره وغيره لن تجد الإجابة الموثوق بها عنه إلا فى هـذين المصدرين كأساس ، ثم تأتى العلوم والاكتشافات تابعة لهما .

عناصر الثقافة الإسلامية :

الذى ينظر فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعهد الخلفاء الراشدين الأربعة يجد ما فيها من تشريعات ، ومن أوامر ونواهى ، ومن إرشادات وتوجيهات جاء مطلقاً وغير مقيد بكون هذا عقيدة ، وهذا عبادة ، وهذا أخلاق ، وهذه سياسة ، وهذه نظم اجتماعية ، وتلك اقتصادية ، وأخرى مالية ، وأخرى شخصية إلى آخر ما جاء من تسميات واصطلاحات .

إن ما جاء فى القرآن والسنة منهج ربانى سمى صراط الله ، وسبيل الله ، وطريق الله .

وما دام الكل من الله ومن رسوله صلى الله عليه وسلم فإن المطلوب هو فعل ما أمر وترك ما نهى ، سواء كان المأمور به أو المنهى عنه خاصاً بالعبادة أو المعاملة الاجتماعية ، أو المالية ، أو غيرها ، فمن فعل ما أمر فقد نجا وله ثواب ما فعل ، ومن وقع فيما نهى الله عنه فقد عصى وعليه يقع جزاء ما فعل .

غير أنه فى عصر التابعين وتابعى التابعين بدأ تقسيم العلوم المأخوذة من القرآن والسنة إلى أقسام من باب التسهيل والتيسير ، ولم يكونوا فى ذلك مبتدعين ، لأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — شرع لهم قريبا منه فى حياته ، فأخبر أن أقرأهم للقرآن عبد الله بن مسعود وأن أعلمهم بالمواريث زيد ابن ثابت ، وأقر بعض التخصصات فى عهده فكان بعض الصحابة ضليعا

فى معرفة أنساب العرب مثل أبى بكر – رضى الله عنه ، وبعضهم متفوقاً فى الشعر كحسان بن ثابت ، وبعضهم متفوقاً فى الخطابة مثل ثابت بن قيس . وهكذا . . . لذلك أخذ المسلمون يفردون بعض العلوم بدراسة خاصة ، وما زال الأمر يزداد ويتسع حتى تشعبت الأصول ، ثم تشعبت الفروع وصار لكل شعبة متخصصون ضالعون فى تخصصهم ، يرجع إليهم إذا استبهمت الأمور ، واشتبهت على غيرهم ، لأنهم أولو الأمر فى علمهم .

فوجدت علوم القرآن ، وعلوم السنة ، وعلوم العقيدة ، وعلوم الفقه وعلوم الأخلاق ، وعلوم الفلك ، والفلسفة ، والمنطق ، واللغة . وغيرها . . والذى يهمنا هو ما يتصل بالجانب السلوكى القائم على المعرفة وهو ما يسمى بالثقافة الإسلامية حسب اصطلاحنا الذى سرنا عليه ، وهذا الجانب دعائمه التى قام عليها ، وعناصره التى تكون منها هى العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق ، وسائر أنواع المعاملات الاجتماعية ، وسنتكلم عن كل منها إن شاء الله تعالى مع إطالة فى علم العقيدة باعتباره الأساس للجميع . والله الموفق .

أهمية علم العقائد

إن هذا العلم هو أهم العلوم على الاطلاق ، بالنسبة للفرد المسلم ؛ لأنه علم العقائد الإسلامية . والعقائد فى الإسلام هى الأصول التى تبنى عليها فروعه ، والأسس التى يقوم عليها بنيانه ، والحصون التى لابد منها لحماية عقيدة المسلم من أخطار الشك وأعاصير التضليل والتزييف .

وكثيراً ما سمعنا ورأينا أنواعاً من الانحرافات فى الفكر والقول والسلوك لم يكن لها من سبب إلا البعد عن فهم أصول هذا الدين ، وركائزه التى قام عليها ، والتى لا بد من الإيمان بها ، ليفهم من الدين ، وليجاب بها عن جميع التساؤلات التى لم يكن لها سبب سوى الجهل بقضايا الإيمان ومسائله .

وقضايا الإيمان هذه هى التى جاءت بها الرسل . على مدى التاريخ الإنسانى كمبدأ لا بد منه حتى تبنى عليه جميع قضايا الدين بعد ذلك .

قال تعالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسولٍ إلا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ][1] .

ومن المعلوم أن جميع الأعمال الصالحة التى يعملها أى إنسان ابتغاء وجه الله تعالى موقوف قبولها عند الله على صحة العقيدة التى يتكلم عنها هذا العلم ؛ لأن الانحراف عن العقيدة انحراف عن الإيمان . والانحراف عن الإيمان هو الكفر . والله تعالى لا يقبل من كافر عملا .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

قال تعالى :

[وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (١) .

ويكفى لإدراك الأهمية الكبرى لهذا العلم أن قضاياه كلها هى القضايا الفاصلة فى الحكم على الإنسان بالإيمان أو الكفر والفسوق ، وبالنجاة أو الهلاك ، وبالسعادة أو الشقاء .

قال تعالى :

[إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ باللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا] (٢) .

وقال تعالى :

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ] (٣) .

---

(١) البقرة ٢١٧ .
(٢) النساء : ٤٨
(٣) البينة : ٦ ، ٧ ، ٨ .

لذلك قال جميع علماء الإسلام : إن هذا العلم مفروض تعليمه وتعلمه على الرجل والمرأة وواجب على كل مسئول من والد ووالدة ومعلم ووصى ومرب وأمثالهم أن يهتموا بتنشئة الأطفال على فهم مبادئه ، على أن يعطى كل حسب قدرته العقلية والنفسية . فيتدرج فى تعليمه كما يتدرج فى تعليم أى علم ذى أهمية وشأن .

موضوعات هذا العلم

الموضوعات التى يبحث هذا العلم فيها هى :

١ ـ ذات الله تعالى : لمعرفة ما يجب فى حق الله وما يستحيل وما يجوز .

٢ ـ ذوات الرسل عليهم الصلاة والسلام : لمعرفة ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز .

٣ ـ الأمور الغيبية : وهى التى لا يمكن الوصول إليها لمعرفتها والإيمان بها إلا عن طريق كتاب الله تعالى ، أو حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك مثل : كتب الله تعالى ، ملائكته ، ورسله ، واليوم الآخر ، والجنة والنـــار . . . الخ .

وتحديد موضوعات العقيدة جاء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقــال تعــالى :

[آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُّسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ][١] .

وقال تعالى :

[إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ][٢] . وقال تعالى :

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) القمر : ٤٩ .

[الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (١)

وفى حديث طويل سأل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عدة أسئلة تعليمية وكان منها قوله : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره(٢) » وبذلك تدرك أن أركان الإيمان هى : الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

---

(١) البقرة : ٣، ٤، ٥ .

(٢) رواه الخمسة إلا البخارى – تيسير الوصول ، حـ ١ ص ١٣ ط . مصطفى الحلبى .

الواجب والمستحيل والجائز

فيما سبق ذكرنا كلمات – الواجب – المستحيل – الجائز – وقد أردنا بها الواجب العقلى ، والمستحيل العقلى ، والجائز العقلى . وإليك تحديد معانيها ليتضح لك طريق البحث وإثبات قضايا هذا العلم .

فالواجب العقلى : هو الأمر الثابت الذى لا يتصور العقل انتفاءه . وهو قسمان :

١ – ضرورى بدهى يدركه كل إنسان بغير نظر ، مثل صغر الولد فى السن عن أبيه ، وكون الواحد أقل من الاثنين والاثنين أقل من الثلاثة ، وهكذا فى العدد .

٢ – نظرى ، يعنى يصل الإنسان إليه بعد النظر والتفكير ، مثل إثبات قدم الإله ، وبقائه ، ووحدانيته وجميع صفاته الكمالية .

والمستحيل العقلى : هو الأمر الذى لا يتصور العقل وجوده ، وهو قسمان كالواجب :

١ – ضرورى بدهى ، وهو ما يدركه العقل بدون نظر وبحث مثل كون الأب أصغر من ابنه ، وكون الواحد أكثر عدداً من الاثنين .

٢ – نظرى ، وهو ما يصل العقل إليه بعد نظر واستدلال ، مثل :

استحالة أن يكون الله متعدداً ، وأن يكون مخلوقاً ، وأن يموت . . الخ

والجائز ويسمى الممكن : هو فى نظر العقل ما يقبل الثبوت والانتفاء والوجود والعدم لذاته ، وذلك مثل حياة الإنسان وموته وصحته ومرضه ، وغناه وفقره . . . الخ .

ويلاحظ أننا نسبنا الوجوب والاستحالة والجواز إلى العقل . فالعقل الإنسانى إذا هو الذى يبحث ، وهو الذى يحكم ، وعلى أساس حكمه تبنى

النتائج . فلا مجال هنا فى إثبات العقيدة للتقليد ، ولا للوراثة . ولا للعادات . ولا للأهواء والشهوات . إنما المجال مجال العقل السليم الحر غير المغلول وغير المكبوت . وسوف نجد فى مسيرتنا مع هذا العلم أننا نستدل بآيات من كتاب الله تعالى . فلا يقال ولايحق لأحد أن يقول : كيف تستدلون بكتاب الله تعالى على قضايا قررتم أن العقل هو الحكم فيها ؟

لأننا نقول : إننا نستدل بكتاب الله تعالى فيما يعرضه علينا من آيات تحرك عقولنا وتفتح لها مجالات البحث والمناقشة والمحاورة ، ثم تترك الحكم على النتائج لعقولنا . فكتاب الله لنا هو النور الذى يشع فندرك به السبيل ونعرف جوانب الطريق ومعالمه ، وهو الهدى للضالين ، والفيصل فى قضايا العالمين . وما تخبط المتخبطون فى أمور الدين إلا بسبب اعتمادهم على العقل وحده وبعدهم عن كتاب الله وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم تقليداً للفلاسفة وأشياعهم من متكلمة المسلمين .

ويكفيك دليلا على أن كتاب الله يسلك هذا السبيل بالنسبة للنائين عنه قول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم :

[وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ][1] .

وقوله تعالى :

[فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ][2]

من الذى يجب عليه معرفة الله ومعرفة شرعه ومعرفة العقيدة السليمة ؟

تجب هذه المعرفة على كل مكلف :

والمكلف هو البالغ العاقل ، سليم الحواس ، الذى بلغته الدعوة . فالمعرفة : لا تجب على الصبي ، ولكن تجب على وليه تعليمه العقيدة ومبادئ

---

(١) الكهف : ٢٩ .
(٢) الغاشية : ٢١ ، ٢٢

الدين ، حسب قوة فهمه ؛ لينشأ مسلماً واعياً سليم العقيدة ، ولتحفظه العقيدة من الزيغ إذا بلغ .

ولا تجب المعرفة على مجنون ، ولا على فاقد السمع والبصر معاً : لأنه لا طريق لمعرفته ، فإن وجدت طريقة للمعرفة وجبت عليه ، كما لا تجب المعرفة على من مات قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم . . يعنى مات فى فترة ليس فيها رسول مبعوث أو يوجد رسول ولكنه مرسل إلى قوم دون آخرين ، فالمرسل إليهم هم المكلفون المسئولون ، إذا بلغتهم دعوة رسولهم ومن لم تبلغهم دعوته . والدليل على ذلك قوله تعالى :

[وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً] [1] .

---

(١) الإسراء : ١٥ .

حدود المعرفة السليمة

المعرفة السليمة التى يصير الإنسان بها مؤمناً إيماناً صحيحاً هى الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل .

فالمعرفة غير الجازمة معرفة مرفوضة ، وصاحبها لا يعتبر مؤمناً ؛ لأن العقيدة مبنية على الجزم : فلا يعتبر مؤمناً من كان واهماً أو شاكاً أو ظاناً . ولا يعتبر مؤمنا من جزم بعقيدة مخالفة للواقع . كاعتقاد قدم العالم . أو أن الله متعدد ، أو أن القيامة واليوم الآخر لن يوجدا مستقبلا .

ويعتبر مؤمناً عاصياً من عرف الله تعالى واعتقد وجوده وصفاته ولكنه لا يعرف دليلا على وجود الله ، مع استطاعته النظر ومعرفة الدليل . ولو إجمالا كأن تقول له : ما الدليل على وجود الله ؟ فيقول : الدليل على ذلك وجود هذا العالم مثلا .

فالدليل الإجمالى فرض عينى على جميع المكلفين . أما الدليل التفصيلى فإنه فرض على بعضهم فقط ، لتوجد طائفة متخصصة تستطيع الدفاع عن الدين وعن العقيدة . فهو فرض كفائى . إذا قام به البعض سقط عن باقى الأمة .

وبعض العلماء يرى أن إيمان المقلد . . « وهو المؤمن بغير دليل إجمالى ولا تفصيلى » إيمان مقبول وصحيح إذا حصل منه الجزم بالعقيدة . بحيث لا يتردد فيها ولا يتزحزح عنها ولو تردد وتزحزح الإنسان الذى اعتمد عليه المقلد فى عقيدته وتقليده . ودليلهم على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل إيمان من يؤمن بدون سؤاله عن الدليل » . وذلك ثابت فى عدة أحاديث صحيحة .

مفهوم الإيمان والإسلام شرعا

يهمنا أن ندرك معنى الإيمان والإسلام والارتباط بينهما ، فالإيمان هو : التصديق الجازم بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وثبت ثبوتاً قطعياً ، وعلم مجيئه من الدين بالضرورة ، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، خيره وشره .

وكالإيمان بفرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج . والإيمان بتحريم القتل ظلماً للنفس المعصومة ، وتحريم الزنا والربا وغيرها .

والإيمان بهذا المعنى محله القلب ، والإسلام بالمعنى الآتي لازم له .

أما الإسلام فمعناه الإذعان والخضوع النفسي والاطمئنان القلبي . والشعور بالرضى بالنسبة لكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من دين ، وعلم مجيئه عنه بالضرورة : أي بدون احتياج إلى سؤال أو كشف وبحث لشهرته بين المسلمين . ويلاحظ أن الإسلام بالمعنى المذكور هو حالة نفسية وقلبية مثل الإيمان ، والفرق بينهما أن الإيمان تصديق جازم بما سبق ، وأن الإسلام رضاء قلبي وعدم اعتراض على أي تشريع شرعه الله تعالى ، وعلم بالضرورة ، وأنت قد تصدق بوجود شيء ولا ترضاه . وكم سمعنا من يقول : أنا أومن بأن الإسلام فرض الصلاة والزكاة ، ولكني غير مقتنع بهما ولا بالحكم المترتبة عليهما .

فهذا الاعتراض يجعله غير مسلم ، لأن عنصر الخضوع والإذعان غير متوفر ، وهذا يجعلنا نشك في إيمانه ؛ لانه لو صدق بالله وبحكمته وعلمه ورحمته لأسلم نفسه ورضي كل ما ارتضاه الله ، لذلك قلنا : إن الإيمان الصادق يلزم منه الإسلام بالمعنى السابق ، والدليل على أنه غير مؤمن من قوله تعالى :

[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا][1] .

ولو عرضت كثيرين من المسلمين على هذه الآية لوجدت كثيرين منهم خارجين عن الدين وغير مؤمنين ، لأنهم غير مستسلمين لله عز وجل وغير خاضعين خضوع رضا لأحكام الله تعالى .

بقى العمل بالتشريعات الإسلامية ، مثل : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وجميع الفرائض ، والبعد عما حرم الله ونهى عنه .

هل لابد من تنفيذ الفرائض الإسلامية وترك المحرمات مع الإذعان السابق ليصير المرء مسلماً ، أم يكفى الإذعان فى إطلاق اسم الإسلام على الإنسان ؟ هما رأيان للعلماء . فالجمهور على أن تنفيذ أوامر الإسلام والعمل بما جاء به ليس شرطاً ولا ركناً فى جواز إطلاق اسم الإسلام على الإنسان . وبعض العلماء يرى أن العمل وتنفيذ أوامر الإسلام وأركانه شرط فى صحة الإسلام ، أو ركن من أركانه ، فمن أسلم وأذعن بقلبه ولم يعمل الأعمال الإسلامية مثل الصلاة وغيرها ، فليس بمسلم .

وعلى الرأى القائل بأن من أذعن بقلبه ولم يعمل أعمال الإسلام فهو مسلم – وهو رأى الجمهور – فإن هذا الإنسان عند القائلين بهذا الرأى يعتبر فاسقاً وعاصياً ، فيطلقون عليه اسم : المسلم الفاسق ، والمسلم العاصى ، والمسلم المذنب ، وتقام عليه حدود الإسلام التى شرعها زجراً وتأديباً لمن ترك فرضاً أو فعل منكراً . فافهم ذلك جيداً . وهذا المسلم الفاسق أمره إلى الله فى الآخرة ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه بجريمته ، ولكن مآله الجنة ، إن كان قد مات على الإيمان والإسلام . وهذا هو رأى أهل السنة .

قال تعـــالى :

[إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ][2] .

---

(١) النســاء : ٦٥ .   (٢) النســاء : ١١٦ .

والإسلام بهذا المعنى محله ظاهر الإنسان وباطنه . لأن الإذعان بالدين والرضى به أمر باطنى ، والخضوع لأحكامه أمر ظاهرى . وعلى هذا فالإسلام أعم من الإيمان ، والإيمان أخص من الإسلام. والإيمان باطنى فقط ، والإسلام ظاهرى وباطنى .

ونحن نحكم على الناس بالإسلام حين يكونون مذعنين ظاهراً لأحكام الله ، غير رافضين لها ، بمعنى أن أعمالهم وأقوالهم وتصرفاتهم لا تدل على رفضها وعدم الإذعان لها . أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية ، ولذلك فضح الله أناسا أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر فى قوله تعالى :

[قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ][1]

الخلاصة

وحسبما فهمت من معنى الإيمان والإسلام تدرك أن بين الإيمان والإسلام حسب الحقيقة الشرعية المنجية تلازماً مقتضاه أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لأن المصدق التصديق المذكور للرسول صلى الله عليه وسلم لابد من أن يكون خاضعاً لما جاء به عليه السلام . والخاضع هذا الخضوع لابد من أن يكون مصدقاً هذا التصديق .

ولذلك ذكر الإيمان والإسلام فى القرآن بمعنى واحد فى قوله تعالى :

[فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ][2] .

---

(١) الحجرات : ١٤ .

(٢) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦ .

أما حسب المعنى التفصيلى اللغوى فالإسلام أعم من الإيمان كما سبق وهذا الرأى هو خلاصة ما يراه شارح الطحاوية وغيره ، ويرى أن الإيمان والإسلام إذا ذكرا معاً كان لكل معناه ، وإذا ذكر كل منهما وحده فإنه يراد به ما يشمل معناه ومعنى الآخر وذلك مثل « الفقير والمسكين » « والبر ، والتقوى » « والإثم ، والعدوان » وهذا يشرح لنا الإجابة على السؤال الذى يدور دائماً فى أذهان كثيرين ، وهو أن الإسلام ذكر كثيراً فى القرآن والسنة بمعنى الإيمان ، وكذلك ذكر الإيمان فيهما بمعنى الإسلام وهذا قريب مما ذكرته لك سابقاً فتدبر ذلك جيداً .

حكم النطق بالشهادتين

الشهادتان هما : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .
والنطق بهما شرط لإجراء الأحكام الدنيوية على المسلم ، مثل تزويجه المسلمة ، والصلاة خلفه ، والصلاة عليه إذا مات ، ودفنه فى مقابر المسلمين . فإذا لم ينطق لعذر ، كالخرس ، أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقب إيمانه بقلبه فهو ناج عند الله تعالى ، أما إذا استطاع النطق ووجد وقتاً كافياً ولم ينطق بالشهادتين : فإن كان عدم النطق عناداً فهو كفر ، ولا عبرة بالتصديق القلبي . أما إذا كان عدم النطق لخوفه من الهلاك فالإيمان صحيح ، لقوله تعالى :

[إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ][1] .

أما من لم ينطق بالشهادتين لغير سبب من الأسباب ، ولكنه مصدق بقلبه ومطمئن إلى دين الله وأحكامه ، فالقول الراجح أنه ناج عند الله وإن كان لا يعامل معاملة المسلمين لعدم العلم بإيمانه ، وعدم الدليل عليه ، وهذا كله فى من يريد الدخول فى الإسلام . أما أولاد المؤمنين فهم مؤمنون وإن لم يحصل منهم نطق بالشهادتين إلا إذا ظهر منهم ما يتنافى مع الإيمان .

بعض ما اعتبره الشرع منافياً للإيمان ومبطلا له

لقد حذر الشرع من الأمور المنافية للإيمان ، وحكم بكفر من يرتكبها ، وذلك مثل السجود للصنم اختياراً ، أو الاستهانة والتحقير لما عظمه الدين ، كالقرآن الشريف ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشريعة الإسلامية ، ورسل الله والإيمان به ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية ،

---

(١) النحل : ١٠٦ .

كالصلاة أو الحج أو الشتم لواحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر أو نحو ذلك ، فإن هذا كله وأمثاله كفر . كذلك يكفر من كذب شيئاً من النصوص الشرعيةالثابتة يقيناً ، كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول المتواترة، أو استحل حراماً ثبتت حرمته بدليل قطعى ، كقتل النفس والزنا والسرقة ، لأن هذا كله مخل بالتصديق الإيمانى والانقياد الإسلامى الواجب توافرهما ليكون المرء مؤمناً ومسلماً ؛ وسيأتيك مزيد بيان فى آخر الكتاب ما ليس من التوحيد .

ما يجب في حق الله تعالى وما يستحيل وما يجوز

الإيمان بالله معناه : أن يعلم العبد ويعتقد اعتقاداً جازماً ما يجب لله تعالى من الصفات وما يستحيل عليه من أضدادها وما يجوز فى حقه تعالى :

١ – فيعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه أنه يجب لله تعالى كل صفة كمال تليق بجلاله ووصف نفسه بها .

٢ – ويعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه أنه يستحيل على الله كل صفة نقص لا تليق بجلاله .

٣ – ويعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه أنه يجوز فى حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه ، كالخلق والإماتة ، مثلا .

وهذا اعتقاد إجمالى لابد منه لكل مؤمن ، وعليه مع ذلك أن يعتقد تفصيلا بوجود ثلاث عشرة صفة كمالية لله تعالى ، عليها مدار الألوهية وعظمة الربوبية . ويستحيل عليه أضدادها وليس ذلك من باب الحصر ، ولكن هذه الصفات هى التى دار حولها الجدل الكثير ، وبإثباتها مع باقى الصفات والأسماء تتجلى الذات العلية متصفة بالكمالات منزهة عن النقائص . وهذه الصفات هى :

١ – الوجود	وضده	العدم
٢ – القدم	وضده	الحدوث
٣ – البقاء	وضده	الفناء
٤ – قيامه بنفسه	وضده	احتياجه إلى غيره
٥ – المخالفة للحوادث	وضده	المشابهة للحوادث
٦ – الوحدانية	وضدها	التعدد
٧ – العلم	وضده	الجهل

٨ ــ الإرادة	وضدها	الكراهية
٩ ــ القــدرة	وضدها	العجز
١٠ ــ الحيــاة	وضدها	الموت
١١ ــ السمع	وضده	الصم
١٢ ــ البصر	وضده	العمى
١٣ ــ الكلام	وضده	البكم

وإليك الكلام تفصيلا على كل صفة من هذه الصفات .

الصفة الأولى
(وجود الله تعالى)

الأدلة على وجود الله تعالى

هل أنت محتاج إلى أدلة تثبت لك أن الله تعالى موجود ؟ إن الحقيقة الإنسانية والفطرة البشرية ، تكذبان هذا الادعاء . فما من إنسان إلا وعنده شعور ذاتى أقوى من الشعور بالجوع والعطش بأنه مخلوق ، وأن له خالقاً ، وأن للعالم الذى يعيش فيه ويتمتع به موجداً حكيماً رحيماً قوياً قادراً على كل شيء . قال تعالى :

[فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ][(١)] .

فالدين الحق هو الفطرة والخلقة التى خلق الله الإنسان عليها ، لا يشك فى ذلك ذو عقل يفكر به تفكيراً حراً بعيداً عن مؤثرات البيئة والتقاليد والمواريث الفاسدة . وما من إنسان غفل عن الله تعالى فى وقت من الأوقات أو أنكر وجود الله متأثراً بالمضللين إلا وجاءت عليه أوقات سمع فيها نداء ضميره ، وصراخ ذاته الباطنة ، وهتاف وجدانه والكل يقول له : إنك صنعة الله ، وعبد الله ، ومخلوق الله ، وإن كل ما يقال سوى ذلك خرافة وهراء وضلال ، فلا يمكن أن يفسر هذا العالم العظيم وهذا الكون المصمم تصميماً فى منتهى الدقة بأنه من صنع الصدفة . إن الذى يصدق بالصدفة ولا يصدق بالقدرة الإلهية التى أوجدت هذا العالم وتتصرف فيه بحرية

---

(١) الروم : ٣٠ .

وكمال ودقة هو إنسان فقد عقله ، وضل طريقه ، ولا يصلح لأن يكون حكماً فى أى قضية من قضايا العدل . ولا توجد فى العـالم كله ذرة واحدة تصلح أن يكون وجودها وحركتها وعناصرها وارتباطها بما حولها خاضعاً للصدفة . والعالم أمامك فحاول أن تجد لنا مثالا واحداً لذرة من ذراته .

وإذا لم تصلح الذرة أن تكون وليدة الصدفة فكيف يصلح أن يكون العالم كله وليدها !!!

وقد عبر القرآن الكريم فى أكثر من آية عن الشعور الموجود فى كيان كل إنسان ، وبين أن هذا الشعور بوجود الله يتحول أحياناً إلى نداء حسى مسموع ترتفع فيه الأيدى ، وتخضع النفوس ، وتنكس الرؤوس لعظمة الله وجلاله . قال تعـالى :

[وإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ][1] .

وقال تعـالى :

[وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ][2] .

وإليك طائفة من أقوال الفلاسفة تشهد بأن الإيمان بوجود الله تعالى ضرورى لا يحتاج إلى دليل ، وأن الإنسان الذى ينكر وجوده تعالى لا يمكن أن يكون محكماً عقله وضميره . وقد نقلنا هذه الطائفة من دائرة المعارف لفريد وجدى(٣) .

---

(١) يونس : ١٢ .
(٢) النحل : ٥٣ ، ٥٤ .
(٣) جـ ١ ص ٤٨٢ .

قال الفيلسوف باسكال : « كل شيء غير الله لا يشفي لنا غليلا » .

وقال شاتوبريان : « لم يتجرأ على إنكار الله غير الإنسان » .

وقال لاتييه : « الكلمة التي تجحد الخالق تحرق شفة المتلفظ بها » .

وقال لوكوردين : «الله هو الشمس الوحيدة التي تمد أشعتها الخالدة الموجودات».

وقال بيلوتان : « الله هو الأصل والمرجع لكل حياة » . (١)

وقال المسيو يوشيف في كتابه المسمى (التذكرة في تاريخ البرهان على وجود الخالق) :

« اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسره في الخالق اعتقاد اضطراري قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التي نشأت صامتة ، وصار لها أكبر الآثار في حياته . فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا »(٢).

وأنت لو تتبعت آيات القرآن الكريم – وهي أصدق تاريخ للعقيدة – وخصوصاً الآيات التي تحدثت عن الرسل ورسالاتهم إلى أممهم ، لم تستطع أن تعثر على أمة أنكرت وجود الله تعالى وشغل رسولها نفسه بإثبات هذا الوجود ، بل الذي ثبت هو اعتراف الجميع بوجود خالق مدبر فاعل حكيم رزاق يضر وينفع .

وإنما جاء ضلال الأمم من عبادتها آلهة معينة كالأحجار والأصنام والشمس والقمر والشجر وبعض الحيوانات والحشرات لتقربها إلى الله تعالى وتكون واسطة بين الإنسان وبين الله ؛ ولذلك كانت دعوة الرسل منصبة على تحويلهم الأمم من عبادة غير الله إلى عبادة الله مباشرة وبدون وساطة .

---

(١) نفس المصدر ٤٨٣ .
(٢) نفس المصدر ٤٨٤ .

قال تعـالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُول إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ][1] .

وبذلك يتضح لك وضوحاً لا شك فيه أن قضية وجود الله تعالى قضية مفروغ منها ، لأنها فطرية فى الإنسان ، فليست فى حاجة إلى إقامة الأدلة والبراهين ومع ذلك فسوف نسوق لك الأدلة الكافية لتزداد الأمور اتضاحاً ولتستطيع الرد على من يكابد ويعاند .

---

(١) الأنبيـاء : ٢٥ .

الطائفة الأولى من الأدلة
(من أقوال العلماء)

كل شيء في الكون دليل ناطق بوجود الله تعالى وصفاته العظمى وأسمائه الحسنى .

قال الشاعر :

وفى كل شيء لـه آية ... تـدل على أنه الواحـد

وقال آخر :

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس لـه شريك

١ - سئل أعرابى عن الدليل على وجود الله تعالى فقال : البعرة تدل على البعير ، والروثة تدل على الحمير ، وآثار الأقدام تدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير ؟؟

٢ - روى أن بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضى الله عنه ، فقال جعفر : « هل ركبت البحر ؟ قال : نعم . قال : هل رأيت أهواله ؟ قال : بلى . هاجت يوماً رياح هائلة فكسرت السفن وأغرقت الملاحين فتعلقت أنا ببعض ألواحها ، ثم ذهب عنى ذلك اللوح ، فإذا أنا مدفوع فى تلاطم الأمواج حتى دفعت إلى الساحل . فقال جعفر : « قد كان اعتمادك أولا على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى ينجيك ، فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك ، أم كنت ترجو السلامة بعد ؟ قال : « بل رجوت السلامة ، قال : ممن كنت ترجوها ؟

فسكت الرجل ، فقال جعفر : إن الصانع هو الذى كنت ترجوه فى ذلك الوقت ، وهو الذى أنجاك من الغرق . فأسلم الرجل على يده .

٣ ــ كان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الدهرية ، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه ، فبينما هو يوماً فى مسجده قاعد إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة ، وهموا بقتله ، فقال لهم : « أجيبونى عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم » ، فقالوا له : هات ، فقال : « ما تقولون فى رجل يقول لكم : إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال وقد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها . هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا : هذا شيء لا يقبله العقل ، فقال أبو حنيفة : « يا سبحان الله » ! إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ فبكوا جميعاً وقالوا : « صدقت » وأغمدوا سيوفهم وتابوا .

٤ ــ سألوا الشافعى رضى الله عنه : ما الدليل على وجود الله ؟ فقال : « ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم » ، قالوا : نعم ، قال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البعر ، وتأكلها الظباء ، فينعقد فى نوافحها المسك ، فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر(١) .

٥ ــ وسئل الإمام أحمد بن جنبل عن ذلك فقال : « ها هنا حصن حصين أملس ، ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح (يعنى البيضة إذا خرج منها الفرخ)(٢)

---

(١) ا . هـ . من تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٩ .

الطائفة الثانية من الأدلة
(من كتاب الله تعالى)

القرآن والكون

قال تعالى :

[إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (١).

نحن الآن أمام آيات لا آية واحدة ، والآيات معناها العلامات والأدلة على وجود الله تعالى وصفاته وأفعاله .

فالسماء القائمة بغير عمد ، والنجوم الدائرة فى أفلاكها والكواكب المنتظمة حول شموسها ، والقوانين التى تحكم الروابط بينها ، ومسار كل نجم فى فلك لا يعدوه ، وانتظام كل جرم فيها فى عائلة مماثلة ، وجرى كل شىء بسرعة مناسبة .

كل ذلك فى فضاء لم يدرك علم الناس سعته ولم يكشف سوى القليل من أسراره ، مع أن الإنسان على مدى التاريخ يحاول ويجهد نفسه فى المحاولة ليكتشف أسرار الكون ، واكتشف فعلا أسراراً كثيرة انتفع بها ، ولكنه اكتشف مع ذلك أن ما يجهله أضعاف أضعاف ما يعلمه . وصدق الله القائل :

[وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً] (٢)

---

(١) البقرة : ١٦٤ .
(٢) الإسراء : ٨٥ .

والأرض التى نحيا عليها كلها آيات : فنها البر والبحر ، والسهل والجبل والوديان والأنهار والجداول .

وما يحيط بالأرض من هواء ، وما يعلوها من سحب ، وما يدور حولها من أثير منتشر فى العالم كله ، وفيها الإنسان والحيوان والنبات ، وفيها الحشرات والفيروسات والميكروبات والخمائر ، وفيها الأسماك تحت الماء والأطيار فى الهواء . وكل ما فيها ومن فيها وما عليها وما يحيط بها أعطى ما يناسبه بميزان عادل وتقدير دقيق كما قال تعالى :

[وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ] (١) .

ولو أعاد الإنسان النظر والتأمل مراراً فى هذه الآيات المنبثة فى السماء والأرض والنجوم والكواكب لارتجف من عظمة الله كيانه ، ولم يسعه إلا أن يخضع للقدرة الإلهية التى لا يمكن وصفها . فاختلاف الليل والنهار بحساب دقيق يطول الليل فيه بمقدار وينقص النهار بمقدار ، ويتغير الطول والقصر على مدى العام ، وتمر آلاف الآلاف من السنين والنظام لا يختلف ولا يضطرب ، ولا يختل قيد شعرة .

والسفن تجرى فى البحار وتعبر المحيطات حاملة الأثقال متنقلة بالإنسان إلى حيث يشاء وكيف أراد ، ولها مع الماء قانون إذا استوت معه أمنت وإن أخلت به هلكت .

والماء تبخره حرارة الشمس فيتجمع سحباً فى جو معين ، ثم تسوقه رياح متنقلة حتى توصله إلى أماكن معينة فيها الطقس المناسب لسقوط المطر على أرض أعدت لتلقيه ، وأنهار شقت لتجرى به إلى ما شاء الله من إنسان وحيوان ونبات ، فتمتد الحياة فى الجميع بنقط الماء المجلوبة من المحيطات والبحار والأنهار وغيرها وصدق الله القائل :

---

(١) الحجر : ١٩ .

[وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ][1].

والقـــائل :

[وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ][2] .

كل ما ذكر آيات ودلائل على وجود صانع مدبر حكيم عليم قادر ، ولا يقول غير ذلك عاقل ولذلك ختمت الآية بهذه العبارة المقنعة : « لآيات لقوم يعقلون » ولـكى تدرك التقدير الحكيم فى كل ما خلق الله من السموات والأرض وما فيها وما بينها وما حولهـا . اقرأ هذه الحقائق العلمية التى ذكرها الأستاذ (سعيد حوى) فى كتابه « الله جل جلاله » قال :

١ – لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى عليه بمقدار بضعة أقدام لامتص ثانى أكسيد الكربون والأوكسيجين ولمـا أمكن وجود الحياة .

٢ – ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه فإن بعض الشهاب التى تحترق بالملايين كل يوم فى الهواء الخارجى كانت تضرب فى جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق .

٣ – ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالى لـكنا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رماداً منذ زمن بعيد .

٤ – ولو كان قمرنا يبعد عنا (٢٠٠٠٠) عشرين ألف ميل بدلا من بعده الحالى لـكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرض تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها .

٥ – ولو كان الأوكسيجين بنسبة ٥٠٪ من الهواء بدلا من ٢١٪ فإن

---

(١) الأنبيـاء : ٣٠ .

(٢) الحجر : ٢٢ .

جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن شرارة فى البرق تصيب شجرة لابد أن تلتهب الغابة كلها .

٦ ـ ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠٪ لتعذر أن يكون التمدن الإنسانى على ما هو عليه اليوم .

٧ ـ ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها . ولولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة . ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة . ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .

٨ ـ ولو كانت الالكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة ، والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة ، فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره ؟

٩ ـ ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

١٠ ـ ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

فقل لى بربك هل حدث ذلك كله بميزان وحكمة وتقدير وعلم شامل أم حدث بالصدفة وتطور بالصدفة وبقى بالصدفة ؟؟؟ تعالى الله عما يقول المفترون علوا كبيراً(١) .

القرآن والإنسان

٢ ـ وقال تعالى :

[فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ](٢)

(١) ا.هـ. من ص ٣٨-٣٩ .

(٢) الطارق : ٥،٦،٧ .

وقــال :

[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِين . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِين . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ][1] .

وقـال تعـالى :

[وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ][2] .

إن النظر فيما ذكرته هذه الآيات من دلائل على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته لا يحتاج إلى تأمل عميق ؛ لأن ما ذكر فيها من تطور خلق الإنسان أمر فرغ العلم الحديث من إقراره مع أنه قرر عند المسلمين منذ أربعة عشر قرناً ، وذلك دليل على إعجاز القرآن ، وأن هذا القرآن من عند الله تعالى الذى لابد وأن يكون موجوداً ومتصفاً بكل صفات الكمال . والنظر فى الإنسان وما يحتويه تكوينه من عجائب هو دائماً هدف بحث العلماء المتخصصين ، وهو دائماً موضع دهشتهم وحيرتهم حتى إن الدكتور الأمريكى (ألكسيس كاريل) ألف كتابه — الإنسان ذلك المجهول — بعد بحث طال مداه ، واشترك معه فيه عدد من الأطباء ، وكان ذلك البحث فى الإنسان . وأخيراً قرر أن فى الإنسان مناطق كثيرة لا تزال مجهولة الحقيقة .

ومما قاله فى عجائب صنع الإنسان : « الدم نسيج مثل جميع الأنسجة

---

(١) المؤمنون : ١٢، ١٣، ١٤ .

(٢) الذاريات : ٢١ .

الأخرى ، وهو يتألف من ٢٥ أو ٣٠ ألف مليار كرة حمراء و ٥٠ مليار كرة بيضاء — المليار ألف مليون — . . . والدم نسيج متحرك يجد طريقه فى جميع أجزاء الجسم ، وهو يحمل الغذاء المناسب لكل خلية ، ويؤدى فى الوقت ذاته عمل البالوعة الرئيسية التى تنقل الفضلات التى تطلقها الأنسجة الحية .

كما أنه يحتوى أيضاً على مواد كيماوية وخلايا قادرة على إصلاح الأعضاء كلما دعت الضرورة إلى ذلك »(١) . وقال فى شأن جلد الإنسان : « إن الجلد وملحقاته تلعب دور الحارس الأمين لأعضائنا ودمنا . إنها تسمح لأشياء معينة بالدخول إلى عالمنا الداخلى ، وتمنع أشياء أخرى من دخوله ، إنها الباب المفتوح دائماً — وإن كان محروساً بعناية — الذى يؤدى إلى جهازنا العصبى الرئيسى ، فيجب أن ننظر إليها باعتبارها جزءاً حيوياً من أنفسنا(٢) .

وقال : «سطحنا الداخلى أكثر اتساعاً من سطح الجلد ، فالمنطقة التى تغطيها الخلايا المسطحة للشعب الهوائية بالرئتين هائلة ، إنها تعادل ما يقرب من خمسمائة متر مربع »(٣) .

وها هو ذا عالم آخر من أكبر علماء أمريكا ، وقد شغل حيناً مركز رئيس المجمع العلمى فى أمريكا ، قد بين للناس جميعاً أن العلم الحديث يثبت وجود الله وينتهى إلى الإيمان به وبوحدانيته . وقد سمى كتابه الذى ألفه فى ذلك « الإنسـان لا يقوم وحده » ويكفى أن نشير إلى بعض ما جاء فيه فنذكر مثلا عملية الهضم فى المعدة ، وهى — أى المعدة — أعظم معمل فى العالم كما يقول : قال : « إن المعدة تتلقى كل ما نرسله إليها من طعام وشراب على اختلاف أنواعه وأصنافه وعديد عناصره ، وهنا يبدأ عمل هذا المعمل

---

(١) ا. هـ. منه ص ٩٥
(٢) ا. هـ. منه ص ٨٢ .
(٣) ا. هـ. منه ص ٨٥ .

العجيب ، ففيه يتم تحليل كل من هذه الأنواع والأصناف إلى عِناصره الكيمائية الأولى ، ويعود تكوين الباقي بعد الفضلات إلى مواد صالحة لغذاء مختلف الخلايا ، بحيث تكون جميع المواد الحيوية الضرورية للحياة موجودة فى مقادير منتظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة ، ثم تقدم باستمرار إلى كل خلية من خلايا الجسم التى تزيد فى عددها على عدد الجنس البشرى كله .

ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً ، وألا يورد سوى تلك المواد التى تحتاج إليها تلك الخلية المعينة ، وذلك لتحويلها إلى عظام وأظفار ولحم وشعر وعينين وأسنان وما إلى ذلك كله من أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها .

ها هنا إذن معمل كيمائى ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان ، وها هنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ، ويتم كل شىء فيه بمنتهى النظام ، فإذا كانت تلك المعجزات تتم فى نطاق كامل ، والنظام يضاد المصادفة إطلاقاً كان هذا بلاشك من صنع خالق مبدع حكيم .

وهذه عدسة العين التى بها الإبصار تلقى صورة على الشبكية فتنتظم العضلات بطريقة آلية إلى بؤرة محكمة . والشبكية طبقات عشر منفصلة ، وهى فى مجموعها ليست أكبر سمكاً من ورقة دقيقة ، والطبقة فى أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات تبلغ الملايين عداً ، وكل هذه الأعداد للعين وما تشتمل عليه ، وكل هذه التنظيمات لها ولأجزائها حصل فى وقت واحد وكان لابد منه ، وإلا كان الإبصار مستحيلا . فهل وجد ذلك كله مصادفة ، أو صنعة بشر ؟ كلا ، بل هو الله وحده الذى لا يعز عليه شىء .

ثم هذا العالم بأرضه ومائه وجد فى مكانه الصحيح ، فلو كان المحيط أعمق بضعة آلاف من الأقدام عما هو حاصل لما كان لدينا أوكسجين ولا نباتات .

والأرض تدور مرة كل يوم وليلة ، فلو تأخر هذا الدوران عن أربع وعشرين ساعة لمــا أمكن وجود الحياة .

وهكذا نرى أن استعراض عجائب الطبيعة والكون من كل نواحيه ، والتأمل بعمق فى كل ذلك يدل على أن هناك تصحيحاً وقصداً فى كل شيء ، وأن هذا التصميم ينفذ كله طبقاً لمشيئة الخالق . وما دامت عقولنا محدودة فإننا لا نقدر أن ندرك ما هو غير محدود . وعلى ذلك لا نقدر إلا أن نؤمن بوجود الخالق المدبر الذى خلق كل الأشياء ، بما فيها تكوين الذرات والكواكب والشمس والسديم »(١) .

ويقول الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره المسمى « الجواهر »(٢) فى صدد الكلام عن بدائع صنع الإنسان :

« ويا ليت شعرى أى هندسة وأى نظام وأى مقياس كان فى الرحم حتى صنع هذه المقاييس أثناء مرور الجنين بأطواره المختلفة وجعل أعضاء الإنسان وحواسه مرتبة منظمة :

١ — بحيث تكون قامته ثمانية أشبار بشبره هو ، ويكون من رأس ركبتيه إلى أسفل قدميه شبران ، ومن ركبتيه إلى حقويه شبران ، ومن حقويه إلى رأس فؤاده شبران ومن رأس فؤاده إلى مفرق رأسه شبران ، بنسب متساوية كما تساوت نسب الأصابع فى اليدين وفى الرجلين .

٢ — وإذا فتح الإنسان يديه ومدهما يمنه ويسرة كما يفتح الطائر جناحيه وجد مابين رأس أصابع يده اليمنى إلى رأس أصابع يده اليسرى ثمانية أشبار نصفها عند ترقوته والربع عند المرفقين .

٣ — وإذا رفع يديه إلى ما فوق رأسه كان ما بين أطراف أصابع يديه إلى أصابع قدميه عشرة أشبار وذلك قامته وربعها .

---

(١) كتاب الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد يوسف موسى — من ص ٨٨ إلى ص ٩١
(٢) جـ ٢ ص ٤٦ .

٤ ـ وطول وجهه من منبت الشعر فوق جبينه إلى رأس ذقنه شبر وثمن شبر بشبره .

٥ ـ والبعد ما بين أذنيه شبر وربع .

٦ ـ وطول شق كل عين من عينيه ثمن شبره .

٧ ـ وطول إبهامه وطول خنصره متساويان ! وهذا قل من كثر من المقاييس العجيبة التى فى جسم الإنسان ، وذلك كله إذا كان طبيعياً معتدلا .

وصدق الله القائل :

[يـٰأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ](١).

والقائل :

[مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ](٢) .

وقال الدكتور مصطفى محمود(٣) فى صدد الكلام عن مخ الإنسان :

المخ هو سنترال عظيم ، فيه مائة ألف مليون خط عصبى قادمة إليه من مختلف أماكن الجسد . والعصب البصرى وحده فيه مليون خط عصبى قادم إليه من العين ، وقس على ذلك باقى الأعصاب .

وكل هذه الخطوط تلتقى فى الدماغ حيث يقوم المخ بتحليل رسائلها والرد عليها بأعجوبة وأفعال فورية .

وبالإضافة إلى هذه الخطوط تجد آلاف الملايين من الخطوط الأخرى التى تقوم بدور الترابط فى داخل السنترال نفسه بين مختلف المراكز حيث

---

(١) الانفطار : ٦،٧،٨ .

(٢) الملك : ٣ .

(٣) فى كتابه : « لغز الحياة » ص ١٠٠ .

يقوم المخ بدور آخر هو التفكير بالإضافة إلى ردود الفعل التى يجيب بها على كل صنوف التنبيهات .

والحواس الهامة لها مراكز محدودة وسنترالات أصغر ، خاصة بها .

فالمركز البصرى يقع فى مؤخرة الدماغ ، ومراكز اللمس والسمع على الجانبين ، ومراكز الحركة فى المنتصف ، ومراكز التوازن أسفل الدماغ فى فصوص صغيرة خاصة بها اسمها « المخيخ » ومراكز التنفس والدورة الدموية فى أعلى الحبل الشوكى عند اتصاله بالمخ ، أما التفكير والخيال والتصور والذاكرة وإدراك المستقبل والإحساس بالكيان والتدبر والعزم والتخطيط فلها فص أمامى هائل (خلف الجبهة)خاص بها ولا مثيل له فى الحيوان .

وهكذا كل نشاط له مركز خاص حتى العاطفة والغريزة والجنس والألم واللذة والنوم لها مراكزها . . . وفى كل مركز ملايين الخلايا ساهرة كموظفى (السويتش) فى حالة يقظة دائمة تجيب وتستجيب لأدق الهمسات العصبية .

وفى كل لحظة تتدفق ملايين الإشعارات والرسائل العصبية من الجلد والعين والأذن والأنف ومن الأحشاء والقلب والأوعية الدموية والكبد والرئتين وكل مكان بالجسد حاملة المعلومات والتنبيهات إلى المخ ، هذا بالإضافة إلى خطوط الترابط الداخلية فى المخ نفسه بين المراكز المختلفة ، وهى الخطوط التى تقوم بالتنوير الضرورى بين مختلف المراكز .

وفى نفس اللحظة تحمل ملايين الخطوط العصبية الصادرة عن المخ ردود الأفعال على هذه التنبيهات على شكل أوامر بالحركة إلى العضلات وتعليمات بالإفراز للغدد المختلفة وإشارات باتخاذ إجراءات سلوكية معينة لكل

عضو . هذا النشاط المعقد هو دوره . ا هـ منه . أليس هذا داخلا تحت قوله تعـالى :

[قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى][1]؟

وهل يمكن أن يكون ذلك كله إلا من صنع الحكيم الخبير القائل :

[صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون][2] .

ولو أننا استطردنا فى ذكر عجائب الإنسان من بدء تكوينه إلى أن يستوى ثم يولد ثم يتطور فى أطواره المختلفة . وذكرنا ما أعده الله له من غذاء وماء وهواء ومناخ ، وما كرم به الإنسان سائر الحيوانات ، ما وسعتنا إلا مجلدات عديدة ، ولو تتبعت العلوم الإنسانية لوجدتّها كثيرة جداً ، وكل علم منها يبذل جميع جهده ومحاولاته من أجل فهم الإنسان وحاجات الإنسان وأخلاقياته ونفسياته واجتماعياته وسياسته وحروبه وسلمه وأمراضه وعلاجه . . . الخ ، أليس الإنسان وحده كافياً فى إثبات وجود صانع حكيم عليم مدبر ؟

ولذلك أراح المؤمنون أنفسهم من عناء الشك والتردد بعد أن استبان الحق وظهرت معالم الطريق فقالوا « ربنا الله ثم استقاموا » وكانوا بذلك أسعد الناس وأطيبهم نفساً وأحسنهم عملا ، وأنظفهم ضميراً وأقومهم سبلا :

[ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ][3] .

---

(١) طـه : ٥٠ .
(٢) النمـل : ٨٨ .
(٣) محمد : ٣ .

٣ ـ وقال تعـــالى :

[وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ](١) .

وقال تعـــالى :

[وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فى كِتَابٍ مُبِينٍ](٢) .

وقال تعـــالى :

[وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهم مَن يَمْشى عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ](٣) .

إن عالم الحيوان والطيور والحشرات لو نظرنا فيه نظرة تأمل لوجدنا له عجائب يعجز الإنسان عن تفسيرها ولا يسعه عند إدراكها إلا أن يقول : سبحان الله الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ، ومنح كل كائن ما به يحيا ، ويدافع عن نفسه ويهاجم عدوه ويجلب رزقه ، ويدبر أمره حسب الظروف والأجواء المحيطة به ، وسأنقل إليك فى ذلك بعض ما ذكره الشيخ طنطاوى

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) هـــود : ٦ .

(٣) النور : ٤٥ .

جوهرى فى تفسيره « الجواهر(١) » مكتفياً بذكر اللطائف التى ذكرها مستغنياً بذلك عن التشريح وزيادة التفصيل ، قال :

اللطيفة الأولى

لقد رأى العلماء الباحثون فى العصر الحاضر ، وكشفوا أن بعض الذباب يحفر لبيضه جحراً فى الأرض يضعه فيه ، ثم يذهب إلى عكنبوت أو دودة يمج فيها جزءاً من السم فتسكن حركتها ، ثم يحملها إلى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليها ، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها .

وسبب ذلك أن هذه الحشرات لا تأكل ميتة قط ، وأمها لا ترى أولادها قط فتحضر لها هذه الحشرات التى خدرتها بسمها حتى إذا خرجت من البيض أكلتها ، أليس ذلك داخلا تحت قوله تعالى :

[وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] ؟

فأين تعلمت هذا الذبابة ولم تر أمها ولم يكن هناك مدارس ولا معلمون ؟؟؟

اللطيفة الثـــانية

بعض أنواع الذباب لا يعيش أولاده إلا فى جوف الحيوان ، فتعمد الذبابة إلى دودة فتخرق جلدها بخرطومها ، ثم تضع بيضها الكثير موضع الخرطوم تحت الجلد ، فإذا حصل الفقس وخرجت الأولاد أكلت من اللحم والدهن ولم تتعرض للأعصاب التى عليها مدار الحياة ، ومتى قدرت شرعت تأكل الأعصاب فتموت تلك الدودة ، ثم تخرج تلك الحشرات ، ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكماً تلتف فيه ، وتتراكم فوق سطح الجثة ،فتغطيها بكثرتها لتأكلها فلا يرى الراؤون منها شيئاً « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

---

(١) جـ ٢ ص ٨١ .

اللطيفة الثـــالثة

الأرانب تنتف شعر بطنها ، فتجعله فراشاً لأولادها ، وبعض الحشرات أعظم منها شفقة وأكثر رحمة ، فإنها تنتف شعرها كله ، ولا تكتفى بجزء منه ، ومتى باضت لفت بيضها فى شعرها فجعلته أثواباً تصنعها لوقايته من الحر والبرد والعوارض الجوية ثم تموت .

اللطيفة السادسة

إن يعسوب النحل التى يقال لهـا أم النحل إذا ماتت اخترن واحدة منهن وهيأن لهـا مكاناً أوسع خمس مرات وأخذن تخدمنها ويطعمنها الشهد الذكى الرائحة فتكبر سريعاً لحسن المواد الغذائية فتأمر وتنهى وتعمل على مقتضى القوانين ، ولا يخترنها إلا إذا كانت فيها تلك الصفات التى يعرفنها بالإلهـام .

اللطيفة التاسعة

إن النحل إذا دخل عليه عدو من الحشرات مزقه ، فإن كان العدو صغيراً رموه ، وإن كان كبيراً اجتمعن عليه ولسعنه معاً حتى يموت ، ولمـا لم يكن فى قدرتها إخراجه فإنها تعمد إلى صمغ تحضره من بعض النباتات فتلفه به وتغلفه .. فبالسم تخلصت من حياته وبالصمغ تخلصت من ضرره بعد موته ؛ لأنه محنط . . (ويلاحظ أننى أترك بعض اللطائف لعدم أهميتها فى الموضوع).

اللطيفة العاشرة

١ ـ إن القنفذ يصعد إلى الكرم فيرمى بالعنقود ، ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه ، وإن كان له فراخ تمرغ على الباقى فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده .

٢ ـ إن بين الغراب والذئب ألفة ، فإنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها والذئب لا يضره .

٣ – إن الفأرة تأتى إلى إناء الزيت فتشرب منه ، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها ، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت بماء فى فيها وتصبه فيه حتى يعلو لها الزيت فتشربه(١) .

ويقول الدكتور مصطفى محمود(٢) :

من الذى علم الكتكوت أن يكسر البيضة عند أضعف أجزائها ويخرج؟

من الذى علم الطيور الهجرة عبر البحار والصحارى إلى حيث تجد الغذاء الأوفر والجو الأحسن ؟ وإلى حيث تتلاقح وتتوالد ؟ . . . ومن الذى يسدد خطاها طوال هذه الرحلة من ألوف الأميال فلا تضل ؟

من الذى علم دودة القز أن تنسلخ من ثوبها مرة بعد أخرى ، ثم تنزوى فى ركن لتبنى لنفسها شرنقة من حرير تنام فيها ليالى طويلة مثل أهل الكهف ثم تخرج منها فراشة بيضـــاء جميلة ؟

من الذى علم أبو ذنيبه كيف يصنع لنفسه ذنباً حين تقطع له ذنبه ؟ . . لا أحد ، إن العلم باطن فى خلاياه .. كل خلية تعرف دورها معرفة تلقائية وتؤديه .

وبالمثل ما يحدث لنا حينما نجرح فتلتئم جروحنا من تلقاء نفسها . . وحينما تجرح الأشجار فتلتئم بنسيج من الفلين يملؤها بين شفرات جروحها .

وبالمثل ما يحدث لنا بدون جراح وبدون أمراض حينما يحقق لنا جسمنا درجة حرارة ثابتة فى الحـــر وفى البرد . . ويحتفظ لنا بوزن ثابت فى ظروف مختلفة من الجوع والشبع . ويحتفظ بسلامته ووحدته فى مواجهة جيوش جرارة من الميكروبات تعمل ليل نهار على تفكيكه وتفتيته وهضمه وأكله .

---

(١) أ . هـ . باختصار من تفسير الجواهر .

(٢) كتابه « لغز الحياة » مع ملاحظة أننا ننقل عنه فقط ما يتصل بتخصصه أو ما له صلة به ، وليس معنى ذلك أننا نوافقه على شطحاته الخاصة بتفكيره فى الدين أو فى القرآن فيراعى ذلك .

هذا التوازن الدقيق الذى يتحقق بفاعلية مستمرة من الداخل وحركة دائبة لتصحيح كل خطأ . . هو الذى يثير التفكير . . . إلى أن قال :

والتفسير العلمى للحياة بأنها نشاط كيماوى (كما يقول الطبيعيون المنكرون للصانع) تفسير غير كاف . . لأن الجسم الميت يحتوى على نفس المواد الكيماوية التى فى الجسم الحى . . والتراب يحتوى على نفس المقادير من الحديد والنحاس والكربون . . . إلى أن قال : والمشكلة تحتاج إلى تفكير أكثر (١) .

ثم يقول فى موضع آخر : وبيننا اليوم حشرات عجيبة تأكل أنواعاً عجيبة من الأطعمة ، مثل ذبابة البترول التى تعيش فى أحواض البترول ، وذبابة التحنيط التى تعيش على أملاح تحنيط الجثث ، وخنفساء الدائرة الكهربائية التى تعيش على أسلاك الرصاص . . . وكل حشرة تتحرك مثل عربة مصفحة تحيط بجسمها الرقيق صفائح من مادة كالصلب اسمها « الكيتين » تقاوم فعل جميع المهلكات الكيمائية . . . وهى تسلح نفسها بحراب وخناجر وأشواك . .

وبعضها يسلح نفسه بحويصلة من السم متصلة بإبرة حامية (الزبان) يطعن بها أى عدو يقترب منه فيشله ثم يلتهمه ، وبعضها يتلون بلون البيئة كفرس النبي الأخضر بلون الخضرة ، أو الجرادة الصفراء بلون الرمال . . وبعضها يطلق غازات كريهة ليطرد أعداءه . . وبعضها يبنى لنفسه قلاعاً حصينة من الطين ، وبعضها يحاكى فى هيئته الزنابير اللاسعة بدون أن يكون لها زبان ليضحك على مطارديه . . إلى أن قال : وأعجب ما فى الحشرة ما يسمى بالمعرفة الغريزية . . فحشرة أبى دقيق تختار أوراق الكرنب لتبيض عليها مع أنها لا تتغذى على الكرنب ولا تحتاج إليه ، وإنما تقودها إلى ذلك معرفة غريزية باطنية . . فالبيض سوف يفقس وسوف تخرج ديدان صغيرة لا تأكل سوى الكرنب ، فيجب أن تبيض حشرة أبى دقيق على ورق

---

(١) من ص ٧ – إلى ص ١١ .

الكرنب ليجد الصغار ما يأكلونه . ومع ذلك فحشرة أبى دقيق لا تعرف هذه المسألة معرفة عقلية واعية . . وحتى لو رأت صغارها التى فقس عنها بيضها فهى لن تعرفها . . إن كل العملية تتم بدون وعى وبإملاء من قوة مجهولة اسمها الغريزة .

وزنبور الطين يصطاد الدودة ثم يبيض عليها بيضة واحدة ثم يضعها فى العش ويمضى باحثاً عن حصاة ليحملها بين ذراعيه ويغلق بها باب العش . . وتفقس البيضة لتجد اليرقة الصغيرة طعامها جاهزاً بين يديها . . كيف أدرك الزنبور الحاجة لأولاده فاحتاط لها ؟ .

والبعوضة التى تضع بيضها على سطح المـــاء فتزود كل بيضة بكيس من الهواء وتطفو بها على سطح المـــاء . . هل تعرف قاعدة قوانين أرشميدس ؟

والحشرة التى يسمونها فى علم الحشرات « قاذفة القنابل » والتى تتمخطر أمام الحيوانات المفترسة دون خوف حتى إذا فتح أحدها فمه ليلتهمها ضغطت على كيس فى بطنها فامتزجت فى لحظة إفرازات ثلاث غدد تحتوى على مادة الهيدروكيتون وفوق أكسيد الهيدروجين وإنزيم خاص ، ويؤدى اختلاط الثلاثة إلى تفاعل شديد وخروج غاز لاسع كريه الرائحة فيفر الحيوان المفترس رعباً . . هل أخذت هذه الحشرة دبلوماً فى الكيمياء من كامبريدج ؟.
إلى أن قال :

لا شك أن هناك عقلا كلياً خلق مخلوقاته وخطط لها وهو يعلم من الغيب ما لا نعلم(١) .

أمام بيت النمل

لا زلنا مع الدكتور مصطفى محمود فى كتابه (لغز الحياة) وهو يتحدث الآن عن النمل وأعاجيبه وما فيه من آيات ، وإن كان الدكتور حين يتحدث

(١) ا.هـ من كتاب لغز الحياة بتصرف .

يشعرك بأنه حائر لم يدزك القوة الخفية من وراء هذه الآيات هل هى قوة الطبيعة ؟؟ أم هى قوة الله ؟(١) ويبدو أنه كتب ذلك حين كان فى مرحلة الشك التى أوصلته إلى الإيمان حتى أخرج كتابه (من الشك إلى الإيمان) .

والآن مع الدكتور فى أسلوبه الأدبى العلمى الجميل . قال :

إن وقفة أمام نملة صغيرة لمما يثير الذهول .

كيف تعلمت هذه النملة أن تبنى بيوتها الهندسية المعقدة ذات الدهاليز والغرف والبدرومات والمخازن ؟ . كيف انتظمت فى مجتمع فيه توزيع دقيق للاختصاصات والوظائف ؟ كيف تعلمت أن تزرع ؟ (بعض أنواع النمل يزرع عيش الغراب) . . كيف تعلمت أن تحلب حشرة أخرى مثل حشرة المن وتسوقها أمامها فى قطعان ؟؟

إن اتصال هذه الأعداد الهائلة من النمل فى مجتمع ذى نظام معناه أنها اكتشفت بينها وبين بعضها نوعاً من اللغة والتفاهم .

وآخر البحوث فى هذا الباب يقول : إن النمل يتفاهم بعضه مع بعض بلغة كيماوية . ولو أنك راقبت عش النمل فسوف ترى بين وقت وآخر نملتين تلتقيان وتتبادلان ما يشبه القبلة والوشوشة . وفى الواقع أنها ليست قبلة ولا وشوشة ، وإنما كل نملة تفرز فى فم الأخرى لعاباً خاصاً فيه رمز كيمائى معين معناه . . فلنفعل كذا وكذا . . وبالمثل حينما تتسلم النملة العاملة البيضة التى تبيضها الملكة للعناية بها . تتسلمها مطلية بمادة كيمائية خاصة من إفراز الغدد الملكية . . وحينما تلعق النملة هذا الطلاء فكأنما تسلمت رسالة رمزية فيها جميع التعليمات الخاصة بالعناية بالبيضة .

وشئ آخر فى النمل لا يمكن أن نسميه العقل وإنما شىء كالبصيرة — أن تقوم النملة بخزن الطعام والحبوب والفتات والفضلات وتقوم بحراستها والسهر عليها والدفاع عنها ضد المغيرين تأهباً لفصل الشتاء دون أن تكون

---

(١) ص ٥٢ .

عندها قدرة عقلية ولا خيال ولا تصور للمستقبل وظروفه واحتياجاته وأن تهاجم النملة دودة أكبر منها أضعافاً مضاعفة وتقفز فى خفة فوق ظهرها . . وتمسكها من عنقها بفكين كالكلابتين ، وتحقن فى مراكزها العصبية مادة مخدرة تصيبها بالشلل . . وتفعل هذا فى لحظات ثم تجرها فريسة سهلة مستسلمة إلى العش . .

كيف عرفت النملة مكان هذه المراكز العصبية للدودة ؟

إنها تفعل دائماً الشيء المناسب فى الوقت المناسب(١)

اللغة التى يتكلم بها النحل

تحت هذا العنوان قال الدكتور ما يأتى بطريقته الأدبية البسيطة الخفيفة القيمة :

هل ألقيت نظرة على خلية نحل ؟ إنها نظرة تستحق المخاطرة . .

على الباب سوف تجد الحراس شاكى السلاح (ومن جرب لسعة زبان النحل عرف ما هو ذلك السلاح الذى يحمى به النحل دياره) .

وسوف تجد عدداً من النحل لا عمل له إلا الضرب بأجنحته باستمرار لدفع الهواء النقى إلى داخل الخلية لتجديد هوائها . .

فإذا دخلت خطوة ربما رأيت فأراً ميتاً لقى مصيره نتيجة شهيته التى لم يستطع مقاومتها إلى تذوق العسل ، وهى معركة فى العادة لا تستغرق أكثر من دقائق يتحول بعدها الفأر إلى حيوان مشلول تماماً نتيجة لسع النحل ثم يموت .

ولكن المنظر المثير حقاً هو منظر ملكتين من ملكات النحل تتبارزان حتى الموت وحولها بقية الشعب يتفرج فى رهبة ولا يتدخل . . فالخلية لا تتسع إلا لملكة واحدة ، وعلى الملكة الثانية أن تموت أو ترحل لتبقى خليتها وحدها .

---

(١) ا.هـ. بتصرف ص ٤٧ إلى ص ٤٩ .

ويبدو أن النحلة العاملة مهندسة عظيمة .

تلك الجدران الجميلة المقسمة إلى آلاف الغرف السداسية البديعة ذات الهندسة المحكمة حيث تضع الملكة بيضها . كل بيضة فى غرفة ، ويرعى جيش النحل العامل هذا البيض حتى يفقس إلى يرقات فيطعمه بالعسل حتى يتحول إلى عذارى ، فيغطيه بالحرير ويغلق عليه غرفاته حتى يستوى عوده ويتحول إلى نحل بالغ ، فيخرج ليشارك فى نشاط الخلية .

وثمة غرفات خاصة لخزن العسل والشمع . . وغرفات خاصة واسعة لإيواء الأميرات بنات الملكة . . . ثم جيش عاطل من الذكور لا عمل له إلا ساعة التقليح حينما تطير الملكة خارجة من الخلية فى الربيع ، فيتبعها جيش الذكور وتظل ترتفع فى طيرانها تساعدها أجنحتها الطويلة القوية بينما يتسابق خلفها الذكور ويهلك الواحد منهم بعد الآخر تعباً فى تلك المطاردة غير المتكافئة ويتساقطون تباعاً حتى يبقى واحد هو أقواهم فتهبط إليه الملكة وتستسلم له ليلقحها ثم يموت بدوره . . وتعود الملكة حبلى لتضع بيضها وتبدأ القصة من جديد . .

تنظيم دقيق وتوزيع صارم فى الوظائف ، وتعاون إلى درجة الفداء . .

لابد أن هذه النحلات تتفاهم فيما بينها بلغة ما . .

وسوف تدهش حينما تعلم أن هذه اللغة هى الرقص . . بالإشارة واللغة والحركة والرقص يتكلم النحل . .

هذه النحلة العائدة من الحقول اكتشفت زهوراً قريبة مليئة بالرحيق ، والإشارة التى سوف تعبر بها عن هذا الاكتشاف هى أن تدور راقصة فى فى حركة دائرية ، وهى تخفق بجناحيها ثم تضع قطرة من الرحيق فيشمها النحل العامل ليحفظ رائحتها جيداً ، ثم ينطلق إلى الزهور ، فإذا كانت الزهور المكتشفة بعيدة على مسافة أكثر من مائة متر فإنه لابد أن تشير النحلة إلى مكانها بالضبط ، ولهذا ترقص على شكل دائرة يشقها خط إلى نصفين . . . وهذا الخط يشير إلى اتجاه الحقل الذى فيه الزهور . . وهى سوف تمشى على

هذا الخط وهى تهز بطنها هزات سريعة إذا كان الحقل على مسافة متوسطة ، وبطيئة إذا كان على مسافة كبيرة ، وعيناها ستكونان دائماً ناظرتين إلى اتجاه الحقل .

ويفهم النحل العامل الإشارة وينطلق إلى حيث يشير الخط على يسار الشمس أو يمينها ، وبنفس الزاوية التى رسمتها النحلة أثناء رقصها فيصل إلى المكان تماماً . . . الخ(١) .

أظن أننا الآن وبعد هذا العرض لأعمال النحل نستطيع أن ندرك القوة الحكيمة العالمة المدبرة التى صنعت النحل وكل شىء فى إبداع رائع وتنظيم عظيم ، ألا تجد ذلك كله مأخوذاً من قوله تعالى فى سورة النحل :

[وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَىَ النَّحْلِ أَن اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِك لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ](٢) .

إنك لو تدبرت الآية لوجدتها فى إيجاز تذكر من جوانب الروعة فى النحل أكثر مما ذكره الدكتور مصطفى محمود وغيره ، وقد ركزت الآيتان على موضوعات أساسية كل منها يحتاج سفراً تكتب فيه تفاصيله وهى :

١ – اتخاذ البيوت حسب الظروف والبيئة .

٢ – اختيـــار الغذاء المناسب .

---

(١) ا.هـ. ص ٥٦ إلى ص ٦٠ (لغز الحياة) .

(٢) النحــل : ٦٨، ٦٩ .

٣ ـ الاهتداء إلى الطريق الموصلة إلى الغذاء .

٤ ـ ما يخرج منها من الشهد المختلف الألوان لاختلاف الغذاء .

٥ ـ فوائد الشهد الخارج منها . لذلك ختمت الآيتان بتنبيه قوى إلى أن هذه الآيات المعجزات لا يهتم بها إلا ذوو العقول الكبيرة والتفكير الناضج المثمر : (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى يتفكرون فيعتبرون ويستفيدون .

القرآن والعرض الشمولى للكون

٤ ـ وإليك جملة من الآيات القرآنية جمعت آيات كونية كثيرة شملت النبات والأفلاك والإنسان والأشجار والثمار وغيرها . والمقام لا يسع الشرح واستنباط دقائق العجائب الإلهية منها . فعليك أن ترجع إلى الكتب المتخصصة إذا أردت المزيد من ذلك . ولكنك سوف ترى فى هذه الآيات صورة للحياة فى بدئها ، ثم فى نموها وازدهارها . وصورة للجمال الذى يشمل الكون : أرضه وسماءه على السواء .

وصورة للإنسان السيد على هذا الكوكب ـ الأرض ـ وقد أضيئت له الأرض بمصابيح فى السماء ، وأينعت له الثمار فى أنواع الأشجار ، ونظمت له حركة الشمس مع الأرض ليجد لراحته الليل لباساً ، ويجد لدأبه النهار معاشاً ، ويجد لزرعه العام فصولا ، ويشعر بأن رحمة خالقه وسعت كل شىء ومنحت كل مخلوق قوام حياته وأسباب تطوره ، ومادة بقائه أو فنائه .

قال تعالى :

[إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . (أى فكيف تصرفون عن هذه الآيات الباهرة)

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ (هى آدم) فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (جعل لكم مكانا تستقرونَ فيه هو الأَصلاب أَو الأَرحام أَو الأَرض ومكانا تودعون فيه هو الأَرحام أَو القبور) قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا به نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ، فَأَخرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا (أَول ما يخرج) قِنْوَانٌ (عراجين) دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، اُنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

إلى أن قال :

(ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٍ * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[1] .

---

(١) الأنعام : ٩٥-١٠٣ .

وبعد هذا العرض القرآنى للكون وللإنسان وللأحياء نستخلص الآتى :

١ ـ هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه محدث من عدم ومحدثه هو الله تعالى .

٢ ـ هذا الكون قائم ومتحرك ومتطور حسب سنن وقوانين ثابتة ، وقانون السببية هو المهيمن والمسيطر على هذا الكون ، وهذا القانون من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

٣ ـ هذا القرآن الكريم آيات مقروءة تدلنا على ما فى الكون من آيات محسوسة ذات دلالات علمية لا تحصى فواجب المسلمين اليوم أن ينهضوا نهضة علمية تتفق مع ما توحيه الآيات القرآنية من مدلولات علمية غفل عنها المسلمون طويلا .

الطائفة الثالثة من الأدلة
(من أقوال الفلاسفة والعلماء)

١ — قال الأستاذ مومنيه فى مجلة الكوسموس سنة ١٨٩٣ فى بحث يثبت به وجود الله : « إن افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خلق اتفاقاً بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكون كائناً آخر مماثلا له تماماً فى الشكل الظاهرى ومبايناً له فى التركيب الداخلى وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها ؟ قال : « أليس يدل هذا وحده على أن فى الوجود خالقاً مريداً مختاراً أبدع الكائنات ، ونوع بينها وغرز فى كل نوع غرائز ومتعة بمواهب يقوم بما أمره ويرتقى عليه نوعه ؟ » .

قال الأستاذ محمد فريد وجدى تعليقاً على هذا البرهان : نقول : إن هذا البرهان الذى ظن الأستاذ مومنيه ، أنه أول من لفت الأنظار إليه مستمد من قوله تعـــالى :

[وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً][1] .

٣ — أما ديكارت فأعطى على وجود الخالق أدلة ثلاثة :

(أولها) قال : إنى مع شعورى بنقص ذاتى أحس فى الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة وأرانى مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال ، وهى الله .

(ثانياً) قال ديكارت : إنى لم أخلق ذاتى بنفسى ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التى أدركها . إذن أنا مخلوق بذات أخرى ،

---

(١) الروم : ٢١ ، دائرة معارف وجدى جـ ١ ص ٤٨٦ .

وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذى طبقته على نفسى .

(ثالثاً) قال ديكارت : إن عندى شعوراً بوجود ذات كاملة لا تفترق فى الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا أى مثلث تساوى زاويتين قائمتين . إذن فالله موجود .

ولم يصل ديكارت إلى هذه الحقائق إلا بعد أن تخلص مما ملىء به ذهنه من حشو رث من العقائد والتقاليد والوراثات . قال : فأردت أن أتخلص من هذه الأحمال الثقيلة ولو مرة فى حياتى ، وأنظر مجرداً عن كل وراثة إن كنت أريد الوصول إلى حقائق ثابتة من العلم(١) .

٣ – أما نيوتن فهو أكبر علماء الفلك فى عصره من الانجليز ، وهو يعتبر من العقول النادرة التى ظهرت فى العالم (١٦٤٢ – ١٧٢٧) وهو مكتشف قانون الجاذبية العامة وغيره من القوانين الفلكية ، ولما اشتهر ببعد النظر وقوة الإقناع . سأله الناس من كل مكان أن يأتيهم بدليل على وجود الله يكون فى درجة المحسوسات فأجابهم قائلا :

لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود ، لأن الضرورة عمياء متجانسة فى كل زمان ومكان ، لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى له حكمة وإرادة : ثم قال :

من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس . فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها .

ثم قال : ومن الجلى الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩٠ .

واحد بدون حدوث أى تغيير يذكر ، فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه ، . . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة . تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن ، وجوبيتر ، والأرض ، وقرر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها .

إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه . كل هذا يشهد بوجوب وجود « سبب » لا أعمى ولا حادث بالاتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة . ثم قال :

ليس هذا كل ما فى المسألة ، فإن الله ضرورى أيضاً سواء لإدارة هذه الأجرام على بعضها ، وهو الأمر الذى لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة الجاذبية. أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق مع دورات الكواكب ، كما يرى ذلك فى الشمس والكواكب وتوابعها ، بينما ذوات الأذناب تدور فى كل جهة على السواء . . . ثم قال :

وغير هذا : فى تكون الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين : القسم المضىء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم يجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفضل عقل لا حد له . ثم قال :

كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد

وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ؟ والأذن بدون علم بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ومن أين جاء هذا الإلهـام الفطرى فى نفوس الحيوانات . . إلى أن قال :

وهذه الكائنات كلها فى قياسها على أبدع الأشكال وأكملها ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حى حكيم يرى حقيقة كل شىء بذاته ويدركه أكمل إدراك(١) . . . الخ

٤ ـ وقال العلامة هرشل الإنجليزى من أكابر علماء الفلك فى العالم كله :

« كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية ، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو فى الواقع صرح عظمة الله وحده »(٢) .

٥ ـ وقال العلامة الطائر الصيت « لينيه » الفزيولوجى الفرنسى :

« إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شىء والمقتدر على كل شىء قد تجلى لى ببدائع صنعه حتى صرت دهشاً متحيراً فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أبدع من مصنوعات يده سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها . إن المنافع التى نستخدمها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبىء بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشى وتجددها يقر بجلال الله وعظمته »(٣) .

٦ ـ ويقول الأستاذ « كاميل فلامريون » :

« الإلحـاد أحقر من أن ينتسب إلى العلم أو العقل أو أن يسمى مذهباً

---

(١) ا.هـ. منه ص ٤٩٦ ، ص ٤٩٧ .
(٢) ا . هـ . منه ص ٥٠٣ .
(٣) ا . هـ . منه ص ٥٠٤ .

إنسانياً ، وأقل وأصغر من أن يهتم بشأنه . بل الإلحاد وهم يلم ببعض العقول المستعدة لهمزات شياطين الوساوس .

إن الإحساس بالعقيدة ألصق بفؤاد الإنسان من كل إحساس فيه ، وليس المنكر لها بأقل إحساساً بها من سواه . بل ربما كان تظاهره بالجحود والنكران حجة ناطقة على أنه أشد الناس تأثراً بها إلا أنه ضل الطريق وأخطأ المهيع فقذفت به حيرته إلى متاته من النظريات هي ظلمات بعضها فوق بعض . فلم ير المخلص منها إلا فرض الفروض وابتكار السفسطات التي لو خلا بها يوماً وحكم فطرته لضرب بها عرض الحائط ولعلم أن إحساسه في واد وما تخيله في واد آخر ، وإنا لو سئلنا يوماً عمن هو أكذب الناس على نفسه لقلنا بدون تردد : هو الرجل يزعم أنه ملحد »(١) أليس هذا هو الدليل الشعوري الذي ذكرناه في أول الأدلة ؟

---

(١) ا . ه . منه ص ٥٣٤ .

الطائفة الرابعة من الأدلة
(من تجاربنا)

١ ـ لقد بلغ الإنسان فى العلوم والبحوث الكونية مبلغاً إذا قيس بما سبقه يعتبر ما وصل إليه إنسان العصر كالمعجزة ، ومع ذلك فإنه عندما وصل إلى القمر وسبح فى الفضاء البعيد أحس بأنه ذرة فى كون لا حد له ، وأنه قطرة فى محيط لا ساحل له ، وأن عظمة العلم فى أنه حقق للإنسان إدراك عجزه أمام قدرة الله وعظمته .

٢ ـ كثيراً ما يتفق العلماء على أمر أوصلهم إليه علمهم وتجاربهم ، ثم يقدرون نتيجة علمهم وتجاربهم نهاية معينة ، ولكن تجاربهم وعلمهم واتفاقهم : كل ذلك يأخذ خطوة إلى الوراء حين تظهر النتيجة والنهاية عكس ما اتفقوا وضد ما قدروا .

ومثلا لذلك أذكر لك هذه الواقعة التى تعلمها قرية بأكملها ، ولا يشك أحد فى شىء من تفاصيلها . فقد كانت لى أخت مريضة بمرض عصى العلاج ، وقرر جمع من الأطباء أن لا أمل فى شفائها . وبعد مدة اشتد مرضها ، فلما كشف على مرضها الدكتور المعالج قرر أن لا أمل ، وأن ساعة الموت قد دنت !!! وأخرج لها شهادة تثبت سبب وفاتها حتى إذا ماتت لا يحتاج أهلها إلى السفر إليه لاستخراجها ، وكانت حالتها حسبما يعرف الناس من نتيجة تجاربهم هى حالة إشراف على الموت ، وحضر إخوتها البعيدون ، وأعدت لجثتها كل المطلوبات ، وأعد أهلها المكان المخصص لتقبل العزاء من الناس ، وباتوا بجوارها ينظرون إليها انتظارا للحظات الأخيرة ، وخابت تقديرات الجميع ، فلم تمت المريضة بل بدأت فى آخر الليل تتحرك تحرك الأحياء... ثم شفيت بعد ذلك تماماً ... وهى الآن ربة بيت تقوم بكل ما يقوم به أمثالها . . . أليست هذه هى آية ؟ ألم تسمع كثيراً بأمثلة لها ؟ فمن وراء ذلك كله ؟ قل إنه الله ولا أحد سواه . . .

٣ ـ وكتب الأستاذ سعيد حوى القصة الآتية فى كتاب «الله جل جلاله»(١).

أذاع راديو دمشق فى ١٠ـ١ـ٦٥ الساعة الثالثة إلا ربعاً من بعد الظهر نقلا عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة فى انجلترا حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذى جرت معه الحادثة . والقصة : أن شاباً بقى مريضاً بمرض مزمن ثلاثة عشر عاماً ، وأعيا الأطباء دون جدوى ، وقد دخل عليه كآخر طبيب الطبيب الذى يروى القصة ، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل منه ، وهناك سأله المريض بلهجة اليائس : لا أمل يا دكتور ؟ فقال الدكتور : هناك أمل واحد فى السماء فجرب أن تدعو . . ألا تعرف أن تصلى ؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذى دام مرضه ثلاثة عشر عاماً ، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع وجد المريض معافى ، وقد شفى من مرضه الذى لم يستطع الأطباء أن يعالجوه .

٤ ـ وأنت أيها القارىء الكريم : ألم تخرج من بيتك يوماً عازماً أمراً أعددت له العدة ، وأجهدت النفس من أجله ، ثم إذا بك فى اللحظة الأخيرة تعرض عنه وتجد أنك مصروف بقوة خفية إلى أمر آخر لم يخطر لك على بال ، ولم تسهر الليالى فى التجهيز له ، ثم يتضح لك بعد ذلك أن الخير فيما نالك وليس فيما فاتك ؟ فمن الذى حولك عما درت ؟ ومن الذى أنالك عكس ما قدرت ؟ إنه الله الذى بيده الخلق والأمر ، والذى يحول بين المرء وقلبه ...

٥ ـ هل أصاب أحداً تعرفه أو أصابتك أنت نكبة أحسست إزاءها أن الأحياء كلهم أعجز من أن ينقذوك ، وأضعف من أن يرحموك وقد يكونون هم أيضاً يريدون بك الشر . ويحيكون لك حبال الدواهى ، فلما يئست من الناس ، ويئست من الأمل نفسه إذا شعاع يطل عليك ، وأمل يبرق فى قلبك ، وراحة تستكين إليها نفسك ، وأنت لا تدرى مصدر ذلك كله . ثم بعد ساعات أو أيام أو أشهر يتبدد اليأس كله . وينسلخ الظلام ، وتتواكب أمام عينيك ألوان الأمل تطارد فلول اليأس . وأنوار النصر تكتسح ظلمات الهزيمة . وترى من وراء ذلك قدرة حولت دفة الحياة من أجلك . فإذا بك

---

(١) ص ٦٨

تشفق على عدوك وظالمك ، وقد كان بالأمس القريب أو البعيد سبب يأسك وشقائك . . من الذى غير وبدل ؟ مع أن العجز الكامل كان ملازماً لك والقدرة والبطش كانتا فى يد عدوك ؟ من نشرك ؟ من أحياك وأعزك ؟ من رد إليك الأمل الضائع والحياة المطمئنة ؟ قل ولا تنتظر . . إنه الله . . .

[أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْس اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ ؟][1] .

الخــــلاصة

وخلاصة كل ما سبق أن الإيمان بوجود الله تعالى مركوز فى ذات كل إنسان بفطرته ، وأن الكرامة الإنسانية مستمدة من هذا الإيمان ، وأن جميع الآمال التى يحيا الإنسان بها ويعيش عليها ليس لها مصدر إلا وجود ذات عليا هى المفيضة لهذه الآمال . وهى العماد الذى يعتمد عليه الإنسان سواء اعترف بذلك أم أنكر .

والإنسان بدون الإيمان المشع فى كيانه مثل عود ذبل ؛ لأنه حرم مادة الحيــاة .

وكل قلب خلا من ومضات الإيمان أشبه بجذع جذ أصله فجف واستعد للنــار .

وكل عقل حرم موجات الأثير الربانى (الإيمان) فهو مبتوت الصلة بالخير والسعادة وأسباب النجاة .

وكل شعور لا يسرى فيه رى الإيمان وعذوبته هو شعور حيوانى يدبر أمره عقل شيطان

---

(١) الزمر : ٣٦ ، ٣٧ .

وأخيراً وليس آخراً – لو حاولت أن تستقرىء حال الفريقين – فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنكرين لوجود الله تعالى لوجدت الآتى :

١ – المؤمنون بالله على رأسهم الأنبياء والمرسلون والعلماء العاملون . وهم طائفة جعلت حياتها رحمة للإنسانية وشفقة وعطفاً عليها ، عكس الطائفة المنكرة التى لا تجد منها إلا قسوة القلوب ، وسفك الدماء ، وإذلال البشر ، وتحطيم كل القيم .

٢ – المؤمنون بالله – وإن اختلفوا فى صفات الله تعالى ومعرفة ما يجب له هم أهل الأرض جميعاً تقريبا ، أما المنكرون فهم قلة مسحوقة لا تكاد تذكر .

٣ – لم يأت المنكرون بدليل واحد ، بل بالعكس يقفون عاجزين عجزاً كاملا أمام تحديات المؤمنين وأدلتهم . إذن فلنقرأ فى سعادة قول الله تعالى :

[هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ](١)

وقل للمنكرين وأنت مطمئن : أجيبوا عن سؤال الله المفحم لكم :

[أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ](٢) .

وعش فى طمأنينة الإيمان ، وسعادة الإيمان ، ولذة المعرفة بالله الرحمن الرحيم .

---

(١) لقمان : ١١ .
(٢) الطور : ٣٥، ٣٦ .

الصفة الثانية (هو الأول)

الله سبحانه وتعالى قديم بمعنى أنه لا أول لوجوده ، فوجوده تعالى ليس مسبوقاً بعدم ، وقدم الله تعالى بهذا المعنى واجب وثابت ثبوتاً عقلياً بحيث لا يتصور ضده . وضد القدم الحدوث . وهومستحيل على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه تعالى لو كان حادثاً لاحتاج إلى من يحدثه ويوجده ، والذى يحدثه ويوجده يحتاج إلى محدث أيضاً فلا بد من وصول العقل إلى ذات تحدث وتوجد غيرها ولا يصح أن يوجدها ويحدثها غيرها ، وهى ذات الله تعالى .

قال تعالى :

[هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ][1] .

ومعنى الأول : الذى لا ابتداء لوجوده ، والذى هو سابق فى وجوده كل حادث فيكون وجوده من ذاته ولا علة لوجوده .

وروى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً طويلا جاء فى آخره : « كان الله ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على المـاء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شىء » .

فإذا أراد الشيطان أن يبلبل فكرك بأمور ليس فى قدرة العقل الإنسانى القاصر إدراكها فالجأ إلى ربك واطلب حمايته ومعونته بقولك « إياك نعبد وإياك نستعين » وقف عند ذلك مستسلماً لله قائلا « آمنت بالله » كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا : خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله»(٢).

---

(١) الحديد : ٣ .

(٢) رواه مسلم .

الصفة الثالثة (والآخــر)

وتسمى صفة « البقاء » ومعناها : أن الله تعالى لا آخر له . فلا يعتريه فناء ، بل البقاء ملازم له أبداً . فالله تعالى يمتنع ويستحيل لحوق العدم به ؛ لأنه تعالى لو جاز وأمكن فى العقل أن يفنى لكان حادثاً ولم يكن قديماً مع أنه تعالى ثبت قدمه ؛ وأيضاً اتفق العقلاء على أن ما لا أول له لا آخر له ، وأن من ثبت قدمه استحال عدمه .

وضد البقاء الفناء . وهو مستحيل على الله تعالى استحالة عقلية وشرعية ، أما العقلية فقد ذكرناها ، وأما الشرعية النقلية فلقوله تعالى :

[كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ][1] .

وقال تعـالى :

[كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ][2] .

وقال تعـالى :

[وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ][3] .

وروى مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » . قوله : أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء » ا . هـ . شرح الطحاوية ص ١٩٥ .

---

(١) الرحمن ـ ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) القصص : ٨٨ .
(٣) الفرقـان : ٥٨ .

الصفة الرابعة (ليس كمثله شيء)

وهى صفة معناها : أن الله تعالى لا يمكن أن يكون مشابهاً للحوادث فى ذاته أو فى صفاته أو فى أفعاله ، لأنه تعالى لو كان مشابهاً ومماثلا للحوادث التى أحدثها وخلقها فى أى شيء ، لكان حادثاً مثلها ولو كان حادثاً مثلها لما ثبت قدمه ، مع أنه تعالى ثبت قدمه ، فحدوثه إذاً مستحيل ، وعلى هذا يكون ما أدى إلى هذا الحدوث وهو مشابهته للحوادث مستحيل ، وثبت حينئذ أنه تعالى مخالف للحوادث . قال تعالى :

[لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ][1] .

وقال تعالى :

[قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ] .

أى ولم يكن أحد مشابهاً لله تعالى فى أى شيء .

ومن هذا ندرك ونعلم أنه تعالى وجب وثبت له مخالفته للحوادث ، ويستحيل عقلا وشرعاً مشابهته تعالى لها .

القول فى النصوص الموهمة للتشبيه

ثبت أن الله تعالى مخالف للحوادث . ولكن جاء فى القرآن والسنة آيات وأحاديث ظاهرها يوهم أن الله تعالى يشبه خلقه ، وإليك أمثلة لذلك :

قال تعالى :

[الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى][2] .

وقال تعالى :

[وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ][3] .

---

(١) الشورى : ١١ . (٢) طـه : ٥ (٣) الأنعام : ١٨

وقال تعالى :

[وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ][1] .

وقال تعالى :

[وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ][2] .

وقال تعالى :

[يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ][3] .

وقال تعالى :

[واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا][4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ »(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء »(٦) .

هذه النصوص وأمثالها – يجب تجاهها ما يأتى :

أولا : الإيمان بها . لأنها ثابتة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، والإيمان بكل ما جاء فى كتاب الله تعالى من الآيات واجب مفروض وأما ما جاء فى السنة فإن كان متواتراً فكذلك وإن لم يكن متواتراً فإنه بالنسبة للعقيدة . لا يفيد الجزم والقطع المؤدى نفيه إلى الكفر ولكن يجب تصحيح العقيدة إزاءه .

---

(١) الأنعام : ٣ . (٢) الرحمن : ٢٧ .

(٣) الفتح : ١٠ . (٤) الطور : ٤٨ .

(٥) رواه البخارى ومسلم .

(٦) انفرد به مسلم عن البخارى – ابن كثير جـ ٢ ص ٢٩٨

ثانياً : مع الإيمان بهذه النصوص يجب الإيمان كما سبق بأن الله تعالى لا يشبه خلقه فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

ثالثاً : لا نحاول تأويل هذه النصوص وتفسيرها وتحديد معان لها ، لأننا لا ندرى هل هذه المعانى مرادة لله تعالى أم ليست مرادة ؟ فالتأويل والتفسير لمثل هذه النصوص مجازفة لم يؤذن لنا فيها .

وبناء عليه نقول فى هذه النصوص : إن الله تعال استوى على عرشه ، لأنه قال ذلك ولكن كيفية استوائه لا يعلمها إلا هو ، لأنه قال : ليس كمثله شيء .

ونؤمن بأنه تعالى فوق عباده ، وأن هذه الفوقية ليست كفوقية المكان التى نعرفها .

وكذلك نؤمن بأن لله وجهاً ويداً وأعيناً ، ولكنها ليست كأوجهنا وأيدينا وأعيننا ، وأن الحقيقة يعلمها الله تعالى ، وكذلك يقال فى كل ما يرد موهماً تشبيه الله تعالى بخلقه وهذا الذى ذكرناه هو رأى السلف رضوان الله عليهم ، وهو أسلم ، لأنه أبعد عن الوقوع فى خطأ التأويل الذى قد يكون غير مراد له تعالى ، خصوصاً وأن هذه النصوص متصلة بالعقيدة ، وخطر العقيدة لا يستهان به .

ولكن كثيراً من العلماء الذين جاءوا بعد القرن الخامس الهجرى رأوا أن تلك النصوص إن تركت بدون تأويل ربما يترتب على عدم تأويلها وتفسيرها وقوع الذين لم يتعمقوا فى فهم الإسلام فى خطأ الانحراف عن العقيدة السليمة ، والوقوع فى ورطات فكرية خطيرة . وقد جاءت آيات الله فى كتابه كما جاءت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على نمط اللسان العربى ، وباللغة العربية الفصحى ، واللغة العربية فيها الأساليب والكلمات التى يراد بها فى عرف اللغة حقيقتها والأخرى التى يراد بها المجاز أو الكناية ، وما دامت الآيات والأحاديث المذكورة لا يمكن أن تكون حقيقتها مرادة لإفادتها التشبيه . فلماذا لا نذهب إلى المجاز المناسب لجلال الله وعظمته ؟ وفى اللغة العربية أمثلة كثيرة لذلك .

وعلى هذا الأساس انطلقوا فى تأويل ما سبق على الوجه الآتى :

قالوا : إن المراد بالاستواء فى الآية هو استيلاء الله على عرشه ، وذلك دليل على قدرته تعالى وعظمته ، والمراد بكونه تعالى قاهراً فوق عباده أن العباد خاضعون لسلطانه وحكمه ، والمراد بكونه تعالى فى السماء وفى الأرض أن علمه تعالى محيط بكل شيء . والمراد بوجه الله تعالى ذاته ، والمراد باليد فى الآية قدرته ، والمراد بالأعين الرعاية ، والمراد بنزول الله إلى السماء الدنيا نزول ملك بأمره ، والمراد بأصبعى الرحمن قدرته وإرادته وهكذا . . .

وقال العلماء فى الفرق بين المذهبين ـ مذهب السلف ومذهب الخلف ـ إن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم ، والذى أرتضيه للقارىء هو أن يكون سلفياً بعيداً عن التأويل وأن يرفض مذهب الخلف رفضاً تاماً فإنه بدع من القول لا يسوغ الأخذ به ، وبناء على ذلك يجب القول بأن الله تعالى متصف بالعلو على خلقه ، والاستواء على عرشه ، وأن اليد والرجل والقدم والعين والأعين والنزول إلى السماء الدنيا وغير ذلك مما وردت به نصوص الكتاب والسنة الصحيحة كل ذلك من صفاته تعالى على الوجه الذى يليق بذاته تعالى . ويستحيل أن يشبه فى شيء من ذلك شيئاً أو أحداً من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

الصفة الخامسة (هو الغنى الحميد)

ومعنى ذلك قيامه تعالى بنفسه واستغناؤه عن سواه وعدم احتياجه إليه فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ؛ لأنه تعالى قديم ، ووجوده من ذاته بمعنى أنه ليس أحد ولا شيء علة فى وجوده . وهو تعالى متصف بجميع صفات الكمال ، وكل موجود مستمد وجوده منه تعالى ومن كان كذلك يستحيل أن يحتاج إلى غيره .

لأنه لو احتاج إلى غيره لكان ناقصاً ولكان حادثاً ولكان غيره مؤثراً فيه . كل ذلك مستحيل فى حقه تعالى فما أدى إليه وهو احتياجه إلى غيره يكون مستحيلا ، وثبت قيامه تعالى بنفسه . واستغناؤه عن غيره .

قال تعـــالى :

[يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّٰهِ ، وَاللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ بِعَزِيزٍ][1] .

ويحسن هنا أن نقرأ هذا الحديث القدسي الذى ذكر أموراً كلية ملموسة ودالة بوضوح على احتياج المخلوقات إلى الله واستغناء الله تعالى عن جميع مخلوقاته .

عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر جندب بن جنادة – رضى الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه[2] .

---

(١) فاطـر : ١٥، ١٦، ١٧ .

(٢) رواه مسلم .

الصفة السادسة (هو الله أحد)

ومعناها : أن الله تعالى واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله . فليس فى الوجود ذات تشبه ذات الله تعالى ، وليس أحد متصفاً بصفة تشبه صفة الله تعالى وليس لأحد غير الله فعل يشبه فعل الله تعالى .

الدليـــل على وحدانيـــة الذات

يقوم الدليل على هاتين الآيتين :

الأولى : قوله تعـــالى :

[لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا][1] .

الثانيه : قوله تعـــالى :

[مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ][2] .

وذلك لأننا لو فرضنا وجود أكثر من إله ، كان لابد أن يكون لكل منهم من العلم والإرادة والقدرة ما يخالف بداهة ما للآخر من هذه الصفات ، وهذا يكون من شأنه أن يؤدى إلى الاختلاف فى الأفعال وتدبير العالم ، ومن ثم يكون لابد من فساد السموات والأرض وما بينهما .

بل قد يؤدى إلى عدم وجود هذا العالم بسبب التضارب بين هذه الصفات التى ثبتت لكل منهم ، وما يكون عنها من آثار ، ولكن العالم بجميع أجزائه موجود على أحسن نظام ، فلا بد أن يكون خالقه وموجده إلهاً واحداً لا شريك له .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .　　(٢) المؤمنون : ٩١ .

وقد يقال : إن لنا أن نفرض وجود آلهة متعددين ولكنهم يتفقون فيما بينهم على أن لكل منهم (منطقة عمل ونفوذ) — إن صح هذا التعبير ، ونقول رداً على هذا : إن هذا يجعل لنا أكثر من عالم واحد ، لكل عالم قوانينه وسننه ونظمه التي يسير عليها ، ولكن الواقع أنه لا يوجد إلا عالم واحد متماسك الأجزاء والأطراف ، وله نظم وقوانين واحدة . إذن فالإله الخالق واحد لا غير (١) .

قال تعالى :

[سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ](٢) .

وقال تعالى :

[قلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * أَللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكنْ لَه كُفُواً أَحَدٌ] .

فهو تعالى أحد : أى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله .

وهو الصمد : أى الغنى الذى يقصده الناس فى حوائجهم لاحتياجهم إليه وغناه عنهم .

لم يلد : أى لم ينبثق عنه ولد ، فهو فى غاية الكمال .

ولم يولد : أى لم ينبثق عن غيره ، لأنه لا أول لوجوده .

ولم يكن له كفواً أحد : أى لم يكن ولم يوجد أحد يساويه ويماثله .

الدليل على وحدانية الصفات

هو أنه لو كان لأحد صفة مثل صفة الله تعالى فى الكمال لكان هذا الأحد إلهاً آخر ، والإله الآخر مستحيل كما سبق ، فيستحيل على هذا أن يتصف أحد بصفة تشبه صفة الله فى الكمال . فإن قيل : إن هناك صفات يتصف بها

---

(١) ا.هـ. من كتاب « الإسلام وحاجة الإنسانية إليه » ص ٩٣، ٩٤ .
(٢) الزمر : ٤ .

البشر تتفق فى الاسم مع الصفات التى يتصف الله بها فيقال : فلان : عالم . قادر . مريد . سميع . بصير . متكلم . حليم . رحيم . كريم . .. الخ وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن بالرأفة والرحمة كما وصف إبراهيم عليه السلام بالحلم .

قال تعالى :

[لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ][1].

وقال تعالى :

[إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ][2].

فهل الذين يوصفون بما يوصف به الإله يعتبرون آلهة ؟

والجواب هو أن الله تعالى إذا وصف بصفة فإن هذه الصفة تكون كاملة كمالا مطلقاً يليق بالله ، وأما الإنسان وغيره فإنه إذا وصف بصفة ، فإن هذه الصفة تكون مناسبة للموصوف الذى هو الإنسان مثلا ، فهى صفة محدودة بحدود الطاقة الإنسانية لا تتعداها ، ولذلك حين جاء المرسلون بالمعجزات – وهى أمور فوق طاقة البشر – لم ينسبوا هذه المعجزات لأنفسهم ، لأن طاقتهم محدودة ، وإنما قالوا : هذه المعجزات من صنع الله وحده ، وقد أظهرها على أيدينا دليلا على أنه اختارنا لتبليغ دينه وأننا صادقون فى قولنا « إننا رسل الله » .

الدليـــل على وحدانية الفعل

قلنا إن الله واحد فى فعله : بمعنى أنه لا يوجد فعل لغيره تعالى يشبه فعله بدليل أنه لو كان لغيره تعالى فعل يشبه فعله تماماً لكان هذا الفاعل

---

(١) التوبة : ١٢٨ .
(٢) هــود : ٧٥ .

متصفاً بصفات الله ، وحينئذ يكون إلهاً آخر ، وقد ثبت أن تعدد الإله مستحيل ، فوجود فعل لأحد كفعل الله مستحيل .

قال تعـــالى :

[وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللهِ وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ](١) .

وقال تعالى عن نفسه :

[فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ](٢) .

الصفة السابعة (بكل شيء عليم)

الله تعالى هو الذى أبدع هذا الكون ، وأقامه على سنن ونظم لا تختل ولا تضطرب ، وهو الذى يمسك السموات والأرض وجميع النجوم والكواكب حتى لايصدم بعضها بعضاً أو يختل بعضها عن مداره المقدر له ، وهو الذى يسير كل ذرة ، ويرعى كل نسمة ، ويدبر أمر خلقه ، ويصرف كل شأن بحكمته ، ويستحيل أن يحصل ذلك كله من الله إلا بعلم مطلق شامل . وجميع الأدلة التى ثبت بها وجود الله تعالى ثبت بها وجود علمه فيجب أن يكون الله تعالى عالماً علماً مطلقاً شاملا كاملا ، ويستحيل فى حقه تعالى الجهل بأى شيء ؛ لأنه لو جهل أى شيء ما كان متصرفاً فيه وذلك نقص فى جناب الألوهية والنقص فى حقه تعالى محـــال .

قال تعـــالى :

[يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا](٣) .

---

(١) القصص : ٦٨ .
(٢) البروج : ١٦ .
(٣) سبأ : ٢ .

وقال تعـالى :

[يَعْلَمُ ما فِى السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، واللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ][1] .

وقال تعـالى :

[وأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ][2] .

وقال تعـالى :

[وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ، وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيه ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ، ولاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ][3] .

وعلماء الكلام يعرفون صفة العلم بأنها : صفة أزلية (قديمة) قائمة بذاته تعالى تنكشف بها المعلومات انكشافاً تاماً لم يسبقه خفاء . سواء أكانت هذه المعلومات واجبة أم مستحيلة أم ممكنة ، فالله تعالى يعلم كل شيء على ما هو عليه فى الواقع .

وهذا العلم لا يتغير بتغير المعلوم — بمعنى أن الله يعلم الشيء الموجود على ما هو عليه ، فإذا تغير الموجود وحصل له تطور لم يحصل لله علم

(١) التغابن : ٤ .
(٢) الملك : ١٣ ، ١٤ .
(٣) يونس : ٦١ .

جديد غير العلم القديم ؛ لأن تغيير العلم لا يليق بالله تعالى المحيط بكل ما كان وما قد يكون . فالله تعالى يعلم كل شيء قبل وجوده وبعد وجوده وحال وجوده بدرجة واحدة : فالماضى والحاضر والمستقبل أطوار وتغيرات تحصل للمعلوم ، ولا يترتب عليها تغيير فى علم الله تعالى ؛ لأن الله تعالى علم كل شيء فى الأزل وكل ما يحدث فهو يحدث حسب علم الله الأزلى .

الصفة الثامنة والتاسعة (كل شيء بإرادته وقدرته)

فالإرادة معناها القصد ، وترادفها فى المعنى (المشيئة) .

ومعناها فى عرف علماء التوحيد واصطلاحهم : أنها صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى يخصص بها الممكن ببعض ما يجوز عليه .

ومعنى هذا أن الإرادة صفة قديمة مثل كل صفات الله تعالى عملها وتعلقها يكون بالأمور الممكنة ، فهى لا تتعلق بالواجب ولا بالمستحيل .

وعملها وتعلقها بالممكن يكون من أجل تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه .

فمثلا : وجود أى شخص من الناس وعدمه أمران ممكنان تختار الإرادة واحداً منهما وكون هذا الشخص متصفاً بصفة البياض أو السمرة أو الصفرة أو السواد مثلا أمر تحدده الإرادة ، وكون هذا الشخص يوجد فى زمن ما دون غيره من الأزمنة وفى مكان معين دون غيره من الأماكن وفى جهة معينة دون غيرها من الجهات . وكون هذا الشخص يوجد بمقدار معين من الوزن والقياس دون غيره . هذا كله تخصصه الإرادة وتحدده .

فعمل الإرادة فى الممكنات هو أشبه بما نسميه فى عصرنا هذا (التخطيط) فهى تخطط تخطيطا مبنياً على العلم ، والقدرة تنفذ ما حددته وخصصته وخططته الإرادة . وعلى ذلك تكون القدرة مثل الإرادة متعلقة أيضاً بالممكنات ولا تتعلق ولا تعمل فى الواجبات ولا فى المستحيلات .

لأن الواجب عقلا هو الأمر الثابت الذى لا يقبل الانتفاء والعدم .

والمستحيل عقلا هو الأمر المنفى الذى لا يقبل الثبوت بحال من الأحوال .

فلو تعلقت القدرة والإرادة بالواجب لتزيل ثبوته لم يكن واجباً عقلياً .
ولو تعلقت القدرة والإرادة بالمستحيل لتزيل انتقاءه لم يكن مستحيلا عقلياً .

والقدرة مثل الإرادة أيضاً فى أنها صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى غير أن عملها وتعلقها بالممكن يكون لإيجاده أو إعدامه على وفق الإرادة .

والإرادة والقدرة تشملان جميع الممكنات ، فلا يخلق فى ملك الله أمر لم يرده وإلا كان غافلا أو مكرهاً والكل مستحيل على الله تعالى .
كما لا يقع فى ملك الله أمر إلا بقدرته وإلا كان عاجزاً والعجز على الله محال .

فثبت لله تعالى صفتا الإرادة والقدرة واستحال عليه أن يكون مكرهاً أو عاجزاً .

قال تعالى :

[إنما أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ][1] .

وقال تعالى :

[فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ][2] .

وقال تعالى :

[إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ][3] .

وقال تعالى :

[وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً][4] .

---

(١) يس : ٨٢ .
(٢) البروج : ١٦ .
(٣) الحج : ١٤ .
(٤) الأسراء : ١٦ .

وقال تعـالى :

[وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ ، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][1] .

وقال تعـالى :

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا][2] .

هذا والكون كله كتاب مفتوح تقرأ فيه دلائل الإرادة والقدرة ، وتشعر بعد التأمل فيه بالخشوع لله والرهبة من عظمته ، كما تشعر بالنشوة والفرحة كلما أدركت أنك عبد لخالق هذا الكون ومدبره ، وأن خضوعك لله وحده لا لأحد سواه .

الصفة العاشرة (هو الحى القيوم)

الحياة صفة قديمة يترتب عليها صحة اتصاف الله تعالى بجميع صفاته الكمالية من العلم والقدرة وغيرهما ، وحياته تعالى – ككل صفاته – ليست من جنس حياة البشر ، وإنما هي حياة تليق به تعالى ، ولا تشبه حياة مخلوق .

وضد الحياة الموت . وهو مستحيل على الله تعالى ، لأنه تعالى لو كان ميتاً ما صح اتصافه بصفات الكمال .

لكنه صح وثبت اتصافه بصفات الكمال ، ولا يتصف بها إلا الحى فثبتت له الحياة واستحال عليه ضدها وهو الموت .

---

(١) النـور : ٤٥ .

(٢) الطـلاق : ١٢ .

قال تعالى :

[اللَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ][1] .

وقال تعالى :

[وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلماً][2] .

وقال تعالى :

[هُوَ الْحَىُّ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ][3] .

الصفتان ١١ ، ١٢ – (هو السميع البصير)

فالسمع صفة من صفات الله تعالى القديمة القائمة بذاته تنكشف بها جميع المسموعات . وسمع الله تعالى ليس بأذن وصماخ وغيرهما مما تتركب منه أداة السمع عند المخلوقات وإنما لله سمع يليق بذاته تعالى ، ويستحيل عليه تعالى ضده وهو الصمم ، لأن الصمم نقص والنقص فى حقه تعالى محال .

أما البصر فهو صفة من صفات الله تعالى القديمة القائمة بذاته تعالى تنكشف بها جميع المبصرات . وبصر الله تعالى لا يشبه فى شىء بصر مخلوقاته وإنما له بصر يليق بذاته .

ويستحيل عليه تعالى ضده وهو العمى ، لأنه نقص والنقص فى حقه تعالى محال . ومن شرط الخالق المبدع الحكيم أن يكون مدركاً لما يخلقه ويصنعه بكل نوع من أنواع الإدراك ، ومن ثم يجب أن يكون الله جل جلاله سميعاً بصيراً وإلا لم يكن كاملا .

---

(١) آل عمران : ٢ .　　(٢) طه : ١١١ .
(٣) غافر : ٦٥ .

قال تعالى حكاية لقول إبراهيم عليه السلام لأبيه :

[يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا][1] .

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام :

[لاَ تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى][2] .

وقال تعـــالى :

[قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ][3].

الصفة الثالثة عشرة (الكلام)

وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى لا تشبه كلام الناس فى شىء . مثلها فى ذلك مثل جميع صفات الله تعالى :

وهذه الصفة تدل على الواجب والمستحيل والجائز ، ما كان من ذلك وما يكون ، فيفهم الله سبحانه بهذه الصفة من أراد أن يفهمه من عباده أى أمر من الأمور سواء أكانت هذه الأمور مما يتصل بالواجبات كوحدانية الله تعالى ، أو بالمستحيلات كالولد بالنسبة له تعالى ، أو بالجائزات مثل الإحياء والإماتة والإعزاز والإذلال . . . . الخ .

وطريقة إيصال الله تعالى كلامه للملك أو للبشر أو لغيرهما نحن لا نعلمها لعدم ورود ما يدل عليها أو يشرحها من الأدلة الصحيحة ، والدليل على الكلام قول الله تعـــالى :

---

(١) مريم : ٤٢ .
(٢) طـــه : ٤٦ .
(٣) المجـــادلة : ١ .

[تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ] (١) .

وقال تعالى :

[وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً] (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٥٣ .
(٢) النساء : ١٦٤ .

أسماء الله الحسنى

جميع أسماء الله تعالى تعتبر صفات الله تعالى إلا اسما واحداً فقط هو (الله) فإنه علم على الذات وليس صفة .

وهذه الصفات عددها لا يقل عن مائة إلا واحداً إن قلنا إن أسماء الله تعالى (توقيفية) وهو قول الجمهور . بمعنى أننا نتوقف عن إطلاق أى صفة على الله تعالى وأى اسم إلا إذا ورد بهذا الاسم نص من كتاب أو سنة . وعددها يزيد على ذلك كثيراً إن قلنا : إن أسماء الله تعـالى (توفيقية) بمعنى أن كل اسم يليق بالله تعالى يجوز إطلاقه عليه ولو لم يرد به نص . وقد ذكر علماء التوحيد من الصفات التى يتصف بها الله ثلاث عشرة صفة وقالوا إن كل مكلف يجب أن يلم بها ويعرفها ويؤمن بها إيماناً جازماً ؛ لأن هذه الصفات لا بد منها للإله ، وما عداها متفرع منها ، أو داخل فيها ، أو تابع لهـا . وقد سبقت . وأسماء الله الحسنى كلها هى التى ننادى بها ربنا . وبها نذكره ونعبده ونسأله .

قال تعـالى :

[وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا] (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما ــ مائة إلا واحداً ــ من أحصاها دخل الجنة »(٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تسعة وتسعين اسما ــ مائة إلا واحداً ــ لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »(٣) .

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .
(٢) البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة .
(٣) البخـارى ومسلم .

وإليك هذه الأسماء كما ذكرتها رواية الترمذى ، ونذكر أمام كل اسم معناه لتمام الفائدة .

الله : علم على الذات الإلهية المقدسة
الرحمن : المنعم بجلائل النعم
الرحيم : المنعم بدقائقها « صغارها » .
الملك : المتصرف فى ملكه كما يشاء
القدوس : المطهر من العيوب والنقائص
السلام : الأمان لخلقه
المؤمن : المؤمن لخلقه من العذاب والمصدق وعده لهم .
المهيمن : المسيطر
العزيز : الغالب
الجبار : المنفذ لأوامره
المتكبر : المنفرد بصفات العظمة
الخالق : الموجد للمخلوقات من غير أصل ، أو المقدر
البارئ : الخالق لما فيه الروح والموجد لما له أصل
المصور : المعطى لكل شىء صورة تميزه عن غيره
الغفار : كثير المغفرة وستر الذنوب .
القهار : القابض على كل شىء والقاهر لكل شىء
الوهاب : كثير النعم دائم العطايا والمنن
الرزاق : خالق الأرزاق وخالق أسبابها
الفتاح : الذى يفتح خزائن رحمته لعباده
العليم : العالم بكل شىء فلا يغيب عنه شىء
القابض : قابض الأرواح أو مضيق الرزق على من يشاء من عباده
الباسط : موسع الرزق على من يشاء

الخافض : الذى يخفض من يستحق الخفض بالخزى والذل والعذاب

الرافع : الذى يرفع من يستحق الرفعة من المتقين

المعز : يعز من استمسك بدينه ويعطيه النصرة والغلبة

المذل : الذى يذل أعداءه

السميع : المدرك لكل ما يسمع

البصير : المدرك لكل ما يبصر

الحكم : الحاكم الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه

العدل : العادل الكامل فى عدالته

اللطيف : الذى لطف (دق) علمه بما فى القلوب

الخبير : العالم بخبايا الأمور ودقائقها

الحليم : الذى لا يستفزه غضب ولا يتعجل العقوبة

العظيم : البالغ أقصى مراتب العظمة

الغفور : كثير الغفران

الشكور : الذى يعطى الكثير على العمل القليل

العلى : الذى بلغ أعلى مراتب العظمة التى لا يتصورها عقل ولا يدركها الفهم

الكبير : الذى لا تستطيع الحواس ولا العقول إدراكه

الحفيظ : الذى يحفظ الكون من الخلل والاضطراب ويحفظ أعمال العباد فلا يضيع منها شىء

المقيت : خالق الغذاء الروحى والمادى

الحسيب : الذى يكفى عباده أو الذى يحاسبهم يوم القيامة

الجليل : الذى له صفات الجلال

الكريم : المعطى من غير سؤال ولا عوض

الرقيب : الذى يراقب الأشياء ويلاحظها

المجيب : الذى يستجيب لمن دعاه

الواسع : الذى وسع علمه ورحمته كل شىء

الحكيم : صاحب الحكمة

الودود : المحب الخير لخلقه والمحسن إليهم فى كل الأحوال

المجيد : البالغ النهاية فى المجد والشرف والعظمة

الباعث : باعث الرسل ومن فى القبور

الشهيد : العالم بكل مخلوق

الحق : الثابت الذى لا يتغير

الوكيل : القائم بأمور عباده وبسائر ما يحتاجون إليه

القوى : صاحب القدرة التامة

المتين : الذى بلغ النهاية فى الشدة

الولى : المتولى أمر خلقه

الحميد : المحمود المستحق للثناء

المحصى : الذى لا يغيب عن علمه شىء

المبدئ : المظهر للأشياء من العدم

المعيد : الذى يعيدها بعد عدمها

المحيي : خالق الحياة فى كل حى

المميت : سالب الحياة من الأحياء

الحى : صاحب الحياة الدائمة

القيوم : القائم بنفسه والمقيم لغيره

الواجد : الذى يجد كل ما أراده فلا يحتاج لغيره لغناه المطلق

الماجد : البالغ النهاية فى المجد والعظمة

الواحد – الصمد – القادر – المقتدر

المقدم : الذى بيده تقديم كل شىء حساً ومعنى

المؤخر :

الأول :

الآخر :

الظاهر : الذى أظهر وجوده بآياته ومخلوقاته

الباطن : الخفى بذاته فلا يعلمها أحد على ما هى عليه

الوالى : الذى تولى الأشياء وملكها

المتعالى : المنزه عن النقائص

البر : كثير الخير عظيم الإحسان

التواب : الذى يوفق العصاة للتوبة ويقبلها منهم

المنتقم : المعاقب من يستحق العقوبة

العفو : الماحى لسيآت من أناب إليه

الرءوف : عظيم الرأفة والرحمة

مالك الملك: ذو الجلال والإكرام

المقسط : المنصف للمظلومين من الظالمين

الجامع : الذى يجمع الناس يوم القيامة

الغنى : المستغنى عن كل ما عداه والمفتقر إليه كل من سواه

المغنى : المتفضل بإغناء من شاء من خلقه

المانع : الذى يمنع أسباب الهلاك

الضار : الذى ينزل عقابه بأعدائه

النافع : الذى عم خيره

النور : الظاهر بنفسه والمظهر لغيره

الهـادى : الذى هدى وأرشد كل شىء إلى ما فيه صلاحه

البديع : الذى لا نظير له

الباقى : الدائم الوجود

الوارث : الباقى بعد فناء الموجودات

الرشيد : المرشد لعباده والذى تجرى تصاريفه بمنتهى الحكمة والسداد(١)

الصبور : الذى لا يتعجل بالعقوبة ولا يتعجل بشىء قبل أوانه

---

(١) ا. هـ. من العقائد الإسلامية ص ٢٤ ، ص ٢٥ .

إشراقة الصفات

إن صفات الله تعالى وأسماءه الحسنى لها فى نفس المؤمن إشراقة روحية يحس بها من صفا بالإيمان قلبه ، وزكت بنور أسماء الله وصفاته نفسه ، وتلذذ بالمعرفة بربه شعوره الداخلى ووجدانه . وهذا النور لا يتأتى من العلم وحده ، فكم من عالم قوى الحجة باهر البرهان ، فصيح اللسان ، واسع الاطلاع ، ومع ذلك تجده مغلق القلب ، مصمت الحس ، جامد المشاعر ، همه من العلم الاحتراف به ، وغاية بيانه أن يأكل الدنيا بدينه . وأن يظهر فى الناس علماً مرموقاً يشار إليه ، وأنت لا تشعر بأنه عالم إلا حين يتكلم فى العلم ، فإن تكلم فى غيره فإن أحداً لا يجد انطباعات علمه فى لسانه ، كما لا تجدها فى عمله وأخلاقه ومعاملاته ، فهو يصلح أن يكون فى العلم ورقة ، أكثر مما يصلح أن يكون فيه قدوة .

وأخشى ما أخشاه على من درس علم التوحيد أن يصير بذلك ورقة علم لا أكثر ، وأن تقف استفادته منه عند حد الفهم وإزالته الشبه لا يعدوها .

والذى أرجوه وأضرع إلى الله به أن يجعل العلم بصفاته تعالى نوراً يغمر القلب ، ونشوة تملأ الوجدان ، وسعادة تغمر حياة المؤمن .

فإن المؤمن الذى يوقن بأن الله تعالى متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، وبأنه تعالى موجود وجوداً لا أول له ، وباق بقاء لا نهاية له ، وبأنه لا يشبه خلقه فى شىء ، هو غنى بذاته غنى مطلقاً عن كل ما سواه ، وأن كل ما سواه حادث ومحتاج فى وجوده إليه تعالى : إن من يوقن بذلك يسعد سعادة لا حد لها لأنه يدرك أنه على ما فيه من نقص قد خلقه إله كامل ، وعلى ما فيه من ضعف فهو مربوب لرب قوى ، وأن سنده وملجأه فى دنياه وأخراه إله منه الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فلا يليق به أن يذل لغير ربه ، أو أن يخضع لغير خالقه وموجده ومالك أمره ، فهو

من الله ، وبالله ، وإلى الله . هو من قدرة الله وجد ، وبعناية الله ورحمته يسلك سبل الحياة ، ومرجعه فى النهاية إلى الله ، والذى يؤمن بأن الله تعالى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله إيماناً صادقاً واعياً فإنه ينفض عن نفسه آثار الشرك فى قوله وعمله ، ويتطهر منه فى تصرفاته الفعلية كما تطهر منه فى عقيدته .

فالله وحده معبوده ،وهو لا يعبد أحداً سواه ليحقق معنى : لا إله إلا الله .

والله وحده العليم بكل شىء ، لذلك لا يعرض مشاكله إلا على الله .

والله وحده القادر على كل شىء فلا يستغيث ولا يستعين إلا بالله .

والله وحده الرحمن الرحيم ، فلا يرجو فى كل أموره إلا الله .

والله يستجيب دعوة الداعى إذا دعاه فلا حاجة إلى وساطة بين المؤمن وبين الله سبحانه وتعالى .

إنه يشعر بأن كل شىء يبعده عن عبادة الله وطاعته هو إله معبود من دون الله ، فيخجل من ربه ويتألم لكبير ذنبه ، ويحاول العودة السريعة إلى التوحيد الخالص ليكون من الصادقين . والذى يؤمن بعلم الله وقدرته وإرادته ، وبأنه تعالى يرى ويسمع ولا تخفى عليه خافية يجد الحياة مع الله هى الحياة ، ويجد المتعة التى لا حد لها فى كلمة ينطق بها لسانه ، وصلاة ركعة يهتز لها كيانه ، ونفع إنسان احتاج إلى مساعدته ، وفعل خير لأى من مخلوقات الله تعالى . الإيمان بهذه الصفات هو الذى تعيش به مع ربك ، وهو الذى يحدد سلوكك ، ويقيم على الطهر حياتك ، ويملأ بالأمل قلبك ، ويشع النور فى بيتك ومجتمعك ، ويفيض الخير على من عاشرك وعرفك . هذه إشراقة من إشراقات الإيمان بصفات الله تعالى . فلعلها تؤتى فى النفوس ثمارها .

الجــائز فى حق الله تعــالى

يجوز فى حق الله تعالى فعل كل ممكن أو تركه مهما كان هذا الممكن عظيما دقيق الصنعة ؛ لأن كل ممكن قابل للإيجاد إن كان معدوماً أو للإعدام إن كان موجوداً ، والله تعالى كامل العلم والإرادة والقدرة ، فهو تعالى بذلك يتصرف فى الممكن كما يشاء بقدرته حسب علمه وإرادته ، وقد مضت الأدلة الكافية فى ذلك .

القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد الإسلامية ، التى أسست على الإيمان بالله عز وجل ، وبنيت على المعرفة الصحيحة لذاته تعالى وأسمائه الحسنى ، وصفاته العظمى الواجبة له تعالى . فقد جاء فيما يجب الإيمان به أن الله تعالى متصف بالعلم والإرادة والقدرة ، وأنه سبحانه فعال لما يريد .

وعلى هذا الأساس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، فكان الإيمان بها متمماً للإيمان بالله تعالى وصفاته ، وعنصراً من حقيقته المشرقة .

فعلم الله تعالى أحاط بكل شىء ، وحسب علمه كتب كل شىء .

قال تعالى :

[وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ][1] .

وفى صفحات هذا الكتاب الغيبى الذى يعلم الله وحده حقيقته ومكانه خطت سطور القدر ، وكتبت مصاير الأمور ، ، ووضحت نهايتها من شقاوة وسعادة ، ولكن أنى لنا علم بذلك ؟

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حيناً بعد حين

والقضاء والقدر لكل منهما معنى مستقل .

---

(١) يونس : ٦١ .

فالقدر معناه : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات فى المستقبل ، فهو راجع لصفة العلم .

والقضاء معناه : إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته .

وبعض العلماء عرف كلا منهما بتعريف الآخر ، ولا ضرر . . فمرجع القضاء والقدر إذاً إلى العلم والإرادة والقدرة كما سبق .

منطقة الجـــبر

هناك أمور تحدث حسب مشيئة الله تعالى وقدرته ، وتنفذ فى الناس طوعاً أو كرهاً سواء شعر بها الناس أم لم يشعروا .

فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء ، والأمزجة وما يلابسها من هدوء أو عنف ، والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر ، ومن جمال أو قبح ، والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو انكماش ، والزمان الذى تولد فيه ، والمكان الذى تحيا به ، والبيئة التى تنشأ فى ظلها ، والوالدان اللذان تنحدر منهما ، والحياة والموت ، والسعة والضيق ، كل ذلك ومثله لا يد للإنسان فيه ، فالقدر هو الذى يوجد ذلك كله .

وغنى عن البيان أن شيئاً من هذا ليس محل مؤاخذة ولا محاسبة ، لأن هذا من الأمور التى لا قبل لنا بها ، ولا سبيل لنا إليها ، وفى مثلها يساق قوله تعالى :

[وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ][1] .

والإيمان بهذا النوع من القدر واجب ، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل ، ويلحق به كل ما يصيب الإنسان فى نفسه أو ماله أو ولده ، من الأمراض والآفات ، وجميع المصائب بعد أن يتخذ الإنسان نحوها ما يمكنه

---

(١) القصص : ٦٨ .

من حيطة ويقوم بما يطلب منه من حذر فى حدود أمر الله تعالى وشرعه ، فإذا حدثت بعد ذلك مصيبة أيقن أن ما أصابه قضاء وقدر لا مفر منهما ، وعليه أن يرضى بهما ، ويسلم لله فى حكمته ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وفى الحديث الحسن : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »(١) .

وذلك مأخوذ من قوله تعالى :

[وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ](٢) .

ومن هذه العقيدة التى تربى عليها السلف الصالح تنشأ الصفات الحميدة التى تليق بالمؤمن . مثل الشجاعة ، والمروءة ، والتوكل ، وإباء الضيم ، ودفع المهانة والذل بكل قوة ، كما تنشأ حالة الاطمئنان والاستقرار والراحة النفسية فى قلب المؤمن مهما أحيط بالأخطار ؛ لأنه يحيا فى إطار قوله تعالى :

[قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ](٣) .

هنا لنا إرادة

أما النوع الثانى من متعلقات القضاء والقدر فهو يتصل بأعمال على عكس الأول . ونحن نشعر عند أدائها بيقظة عقولنا ، وحرية ميولنا ، ورقابة ضمائرنا .

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) الأنعام : ١٧ .
(٣) التوبة : ٥١ .

إننا نحس باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من عمل يقع فى دائرتهما ، وكان هذا الإحساس دليلا كافياً على هذه الحرية ، ولكننا نطمئن القارئ بما جاء فى كتاب الله تعالى دليلا على ذلك(١) .

قال تعـــالى :

[وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ](٢) .

وقال تعـــالى :

[قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ](٣) .

ولو كنا مجبورين ما نسبت إلينا هداية ولا ضلال ، ولو كنا بغير إرادة حرة لكان قوله تعـــالى :

[فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ] .

عبثاً والعبث على الله محال ، فثبت أن لنا إرادة وأننا لسنا مجبورين .

والله تعالى أنزل كتاباً هو القرآن وأمر الناس باتباع أوامره واجتناب نواهيه ورتب على ذلك جزاء فى الدنيا والآخرة لمن أطاع ولمن عصى ، وكذلك أرسل رسولا لدعوة الناس إلى كتاب الله ودينه ، وأمره ومن معه من المؤمنين أن يصبروا على أذى الكافرين ، ثم أمرهم بعد ذلك أن يقاتلوهم لاعتدائهم عليهم ، وتمردهم على الله تعالى .

---

(١) اهـ من عقيدة المسلم للشيخ الغزالى .
(٢) الكهف : ٢٩ .
(٣) يونس : ١٠٨ .

ولو كان الإنسان كالريشة المعلقة فى الفضاء يحركها الهواء كيف يشاء بدون أن يكون له أدنى حرية أو إرادة ما استدعى الأمر إنزال كتب ولا إرسال رسل ؛ لأن الحرية والإرادة والاختيار منتفية أصلا ، فيكون إنزال الكتب وإرسال الرسل وترتيب الجزاء على العمل بالسعادة فى الدنيا والآخرة لمن أطاع ، والشقاء فيهما لمن عصى وكفر .

يكون كل ذلك شبه العبث الذى لا فائدة فيه ، والعبث محال على الله تعالى ، فثبت أن للإنسان حرية واختياراً بدليل إنزال الله الكتب وإرساله الرسل وترتيب الجزاء على ما يفعله الإنسان بعد ذلك .

والله تعالى خلق الكون وما فيه ومن فيه وجعل له سنناً وقوانين ونظماً يسير عليها ، ومن هذه السنن والنظم ترتيب المسببات على الأسباب ، فما من شىء فى هذا الكون إلا ويحكمه قانون السببية . والإنسان جزء من هذا الكون فهو خاضع لهذا القانون فى أمور دنياه وأمور دينه على السواء .

قال تعالى :

[سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً][1] .

وقد جرت سنة الله بالنسبة للزارع والصانع والتاجر وكل عامل أن يقوم أحد هؤلاء بعمل معين فيترتب عليه آثار معينة . فالزارع مثلا يشق الأرض ويبذر الحب ويروى بالماء ، فإذا فعل ذلك وكانت الأرض طيبة والبذرة صالحة والآفة ممنوعة فإن الله تعالى يخلق من البذرة النبت ثم الثمرة وهكذا . .

ولو أن الفلاح نظر إلى أن رزقه مقدر ، وأن ما كتب له منه لابد واصل إليه ، ثم جلس فى بيته لا يحرث ولا يزرع .

---

(١) الفتح : ٢٣ .

ولو فعل مثله الصانع والتاجر والمكتشفون والمخترعون والباحثون فى أسرار الكون لوقفت المصانع ، وأغلقت المتاجر ، وعم الجهل وهلك الإنسان من أمد بعيد .

والعجب كبير ممن يؤمن بآيات القدر ويكفر بآيات السنن . فالله الذى قال :

[وَإِن مِّنْ شَىْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ][1] .

هو الذى قال :

[فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ][2]

فإنزال الله للأرزاق وغيرها جعل له سبباً هو السعى فى الأرض ، وطلب الرزق وهذه سنة الله .

وإدخال الله تعالى الخلق الجنة أو النار جعل الله له سبباً هو الطاعة أو المعصية .

وما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز من هدايته لقوم وإضلاله للآخرين قائم على هذه السنن ، ونظام الأسباب والمسببات .

وتستطيع أن تجد ذلك واضحاً فى مثل قوله تعالى :

[يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الْفَاسِقِينَ][3] .

---

(١) الحجر : ٢١ .
(٢) الملك : ١٥ .
(٣) البقرة : ٢٦ .

وقوله تعـــالى :

[فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ][1] .

وقوله تعـــالى :

[قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا][2] .

فإنك إذا أنعمت النظر فى هذه الآيات وجدت أن إضلال الله لقوم إنما ترتب على فسقهم وأن إزاغته قلوب آخرين جاء نتيجة زيغهم ، وأن الإمداد فى الضلال للفريق الثالث جاء نتيجة اختيارهم طريق الضلال .

إذن فهى نفس الأسباب والمسببات ، وما جاء فى القرآن مطلقاً محمولا على هذا الأساس .

وإذا كنت قد وجدت هذا المبدأ واضحاً بالنسبة للآيات التى ذكر فيها الضلال والزيغ فإنك كذلك تجد نفس الخط بالنسبة لآيات الهداية : خط الأسباب والمسببات .

قال تعـــالى :

[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا][3] .

فهداية الله لهم جاءت نتيجة جهادهم فى دينه .

وقال تعـــالى :

[وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ][4] .

---

(١) الصف : ٥ .
(٢) مريم ٧٥ .
(٣) العنكبوت : ٦٩ .
(٤) محمد : ١٧ .

فهم قد زادهم الله هدى بعد أن اهتدوا .

وقال تعـــالى :

[وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ][1] .

فهو أناب إلى الله فهداه وثبته . إذن فهـى أيضاً أسباب ومسببات .

والله تعالى هو خالق الكون ، وخالق السنن ، ومرتب المسببات على الأسباب ، وهو الذى قدر السبب والمسبب ، فالكل منه وإليه كما قال تعالى :

[قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ][2] .

وأمور الدين كأمور الدنيا داخلة فى سنن الـكون كما خلقه الله وقدره ، وهذا هو فهم الرسول صلى الله عليه وسلم لآيات الله تعالى ، وعنه فهم صحابته رضى الله عنهم ، فجاهدوا فى سبيل الله وعملوا فى حياتهم على هذا الأساس ، حتى أقاموا دنيا ، وبنوا دولة ، وأسسوا خير أمة أخرجت للناس ، ولم تجد فى مسيرتهم الطويلة موضعاً للتواكل والاعتماد على القدر مع ترك الواجب .

الخـــــلاصة

والخلاصة التى يمكن الاهتداء إليها والاعتماد عليها أخذاً مما ورد فى كتاب الله تعالى أن الله تعالى ثبت له العلم والقدرة والإرادة ، فما من شىء إلا وهو داخل تحت علمه تعالى ومخصص بإرادته ومنفذ وواقع بقدرته .

كما ثبت أن للإنسان علماً وإرادة ، قدرة ، وأن ما ثبت للإنسان هو مستمد من الله تعالى ، كما ثبت أن قضية القضاء والقدر مبنية على ثبوت علم الله تعالى وإرادته وقدرته .

---

(١) الرعد : ٢٧ .
(٢) النساء : ٧٨ .

وأن ثبوت حرية الإنسان فى عمله الإرادى ناشىء عما وهبه الله وأعطاه من علم وإرادة وقدرة ، وأن تكليف الله عباده ومجازاتهم على أعمالهم مترتب على ذلك أيضاً .

والمنطقة المجهولة التى لم يستطع الإنسان أن يكشف غامضها إلى اليوم هى منطقة نوع الصلة بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته .

ولكن هل هذه وحدها هى منطقة الغموض فيما يتصل بشأن الله تعالى ؟ إن جميع صفات الله تعالى نحن لا نعرف منها إلا أسماءها من بعض آثارها ، أما حقائقها فهى كذاته تعالى : يستحيل على الإنسان الإلمام بها .

وإذا كنا نؤمن بذلك إيماناً لا شك فيه ، فلماذا إذاً نأتى إلى قضية القضاء والقدر فنحاول سبر غورها ، وإدراك حقيقتها ، وهى لا تعدو أن تكون شأناً من شؤون الله تعالى وخاصة به وليست شأناً من شؤون البشر ؟

إن الله تعالى خلقنا وأمرنا ونهانا ، وخاطب عقولنا ، وكرم فينا إنسانيتنا ، وعاملنا بقدر ما أعطانا من قدرة فهم ، وقدرة عمل ، وجعل حياتنا فى عمومها تقوم على الأسباب والمسببات ، سواء فيها عالمها العلوى وعالمها السفلى ، وسواء فيها الإنسان وغيره من المخلوقات ، والله تعالى ثبت لنا من صفاته مع العلم والإرادة والقدرة — صفات الحكمة والعدل والرحمة وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يكلف نفساً إلا وسعها ، وأنه رفع القلم عن النائم والمجنون والصبى والمكره .

فعلينا إذن أن نشغل أنفسنا بما هو مطلوب منا ، ولن نجد القدر يوماً معوقاً لنا بل سنجده يساعدنا ويمدنا بالقوة ويأخذ بأيدينا ما دمنا عاملين مخلصين .

ولماذا كان موضوع القدر هو الشاغل لأمة الإسلام فى حال ضعفها وتأخرها وانحطاطها ؟ أليس ذلك ليجد المهمل والمقصر والمتواكل وجميع

الحمقى مظلة يترامون تحتها فى بلاهة وغفلة وسقوط يسمونها القضاء والقدر ؟
والله يعلم أن القضاء والقدر بريئان من أمثال هؤلاء الذين كانوا خزياً لأمتهم ،
وعاراً لدينهم ، وعبئاً على الذين يريدون أن ينطلقوا باسم الله كما انطلق
آباؤهم الأولون . فى بناء وعبادة ونفع للإنسانية ودفع لركبها إلى حضارة
نظيفة مؤمنة . تنفيذاً لأمر الله القائل :

[وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ،
وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ](1) .

---

(١) التوبة : ١٠٥ .

النبوات وإرسال الرسل

الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده ، وأرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم ، وعلاقته بهم فى المعاملة قائمة على الكرم الإلهى ، والعفو والمغفرة ، وإنارة سبل الحياة السعيدة فى الدنيا والآخرة ، ولا يأخذ الله تعالى عبده بالشدة إلا ليريه نتيجة انحرافه فينأى عن الضلال ويستقيم مع ربه ، أو ليجازيه بعدله على تمرده وظلمه وعصيانه بعد أن أمهله فلم يزدجر ، ووعظه فلم يتذكر ، ودعاه فلم يلب النداء .

هذه هى أصول المعاملة بين الله وبين عباده ، ولا يمكن معرفة الخط الإلهى الحكيم وإدراك التشريع الربانى الكامل ، والشعور بما بين العبد وربه من علاقة طيبة رحيمة جميلة إلا إذا نزل بذلك من عند الله كتاب فيه ما يريد الله أن يقوله لعباده ، وما يأمرهم به ، وينهاهم عنه ، ويرشدهم إليه لتتحقق مصالحهم فى دنياهم ، وليجازيهم بما رتبه على أوامره ونواهيه من جزاء .

وفيه بيان أنواع العلاقات بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والأشياء . وفيه بيان بعض ما فى الكون من مخلوقات لها صلة بالإنسان مع أنه لا يراها وعليه أن يتخذ منها مواقف معينة كالملائكة والجن والشياطين وغيرهم .

وفيه بيان مصير الإنسان وجزائه ، فى اليوم الآخر بالجنة أو النار ، وفيه غير ذلك مما لا يمكنه الوصول إليه عن طريق آخر غير طريق الوحى الإلهى المنزل على نبى أو رسول اختاره الله سبحانه واصطفاه ليتلقى عن الله وحيه ويبلغه إلى الناس ويسير فيهم على هدى هذا الوحى منفذاً له ومطبقاً بدقة لكل ما فيه من تشريعات وأخلاق وآداب .

إذاً فالكلام على النبوات يشمل : (١) الكلام على النبي والرسول الذي اختاره الله لوحيه ورسالته وأيده بمعجزته ، (٢) والكتاب الذي أنزل عليه ، (٣) وكيفية التلقي عن الله تعالى وعن ملك وحيه ، وإليك تفصيل البيان في ذلك .

الفرق بين النبي والرسول

النبي هو من أوحى الله تعالى إليه بشرع ، وسمي نبياً لأنه نبئ وأخبر من قبل الله تعالى ، فإن أمر بتبليغ الشرع إلى الخلق سمي رسولا أيضاً ؛ لأن الله أرسله وبعثه إلى خلقه ليبلغهم شرعه ، فهو إذاً مرسل ومبعوث وموفد من قبل الله تعالى إلى الخلق برسالة معينة . ومن أجل ذلك سمي رسولا ، أما إذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط وليس رسولا لأن معنى النبوة تحقق فيه ولم يتحقق فيه معنى الرسالة : فكل رسول نبي ولا عكس . فإذا انتفت النبوة عن شخص انتفت الرسالة عنه ولابد ، لأنه لا يرسل إلا إذا أنبأه الله وأخبره بأنه اختاره واصطفاه لوحيه أولا ، ثم يخبره بأنه أرسله إلى من أرسله إليهم بعد ذلك ، فالنبوة هي طريق الرسالة ، ولارسالة بدون نبوة ؛ لذلك كان إخبار الله تعالى في القرآن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين دليلا على أنه لا نبي ولا رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو تعبير موجز بليغ رائع .

قال تعالى :

[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] (١) .

ولم يثبت أن نبياً من الأنبياء كان عبداً مملوكاً لأحد من الناس ، كما لم يتأكد أن أحداً منهم كان أنثى ، أو أن رسولا كان من الجن أو الملائكة وأرسل إلى الإنس ليعيش معهم ، لذلك قال العلماء في تعريف النبي : إنه

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

« إنسان – ذكر حر – أوحي إليـــه بشرع ، فإن أمر بتبليغه فهو رسول أيضاً وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي فقط . وهذا هو القول المشهور فى الفرق بين الرسول والنبي ، وهناك رأى يقول : إن الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها ، والنبي يشمله ويشمل من بعثه الله لتقرير شرع من قبله مثل أنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ولذلك شبه علماء أمة الإسلام بهم ، وقيل : الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلا عليه ، والنبي غير الرسول من لا كتاب له ، وقيل : الرسول من يأتيه الملك بالوحي والنبي يقال له ولمن يوحى إليه فى المنام » . ا . هـ . من شرح العقائد النسفية ص ٣١ .

كما يشترط أن يكون النبي أو الرسول خالياً من العيوب التى تنفر الناس منه لأن وجودها يمنع الفائدة من رسالته ، فما قيل عن أيوب عليه السلام من أنه مرض مرضاً منفراً كذب وافتراء عليه .

الإيمان بالرسل والأنبيــاء جملة وتفصيلا

الإيمان بالرسل والأنبياء واجب ؛ لأنه أصل من أصول الدين من أخل به كفر . قال تعـالى :

[آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُّسُلِهِ](١) .

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى ، أرسل رسلا مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ ما أمروا به على خير وجه ، وأن يعتقد أن تصديقهم واجب ، وأن مناصرتهم فريضة ، وأن الاقتداء بهم لازم ، وأنه هو طريق النجاة من غضب الله وعذابه ، كما يؤمن بأنهم مؤيدون من عند الله تعالى بالمعجزات الدالة على صدقهم .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

ويجب الإيمان إجمالا بجميع أنبياء الله ورسله بدون حصر ، لأن حصرهم غير معلوم بنص القرآن ، لقوله تعالى :

[مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، ومِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ](١) .

وقال تعـالى :

[ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ورُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وكلَّم اللهُ مُوسى تَكْلِيماً . رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً](٢) .

والحديث الذى ورد فيه أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً وأن عدد المرسلين منهم ثلثمائة وثلاثة عشر رسولا لم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . بل هو دائر بين الضعف والوضع فلا يصلح الاعتماد عليه .

ويجب الإيمان تفصيلا بالمرسلين الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وعددهم أربعة وعشرون ، وهم حسب ترتيب وجودهم :

آدم – إدريس – نوح – هود – صالح – إبراهيم – لوط – إسماعيل إسحاق – يعقوب – يوسف – أيوب – شعيب – موسى – هارون – يونس داود – سليمان – إلياس ، اليسع – زكريا – يحيى – عيسى – محمد . عليهم الصلاة والسلام وعد أكثر المفسرين منهم (ذا الكفل) فيكون عددهم خمسة وعشرين رسولا ذكرت آيات الأنعام – ٨٣–٨٤–٨٥–٨٦–

---

(١) غافر : ٧٨ .

(٢) النساء : ١٦٤، ١٦٥ .

منهم ثمانية عشر ، ويبقى سبعة ذكرهم أحد الشعراء مع الإشارة إلى آيات الأنعام فى البيتين الآتيين :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية   من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا   ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأولو العزم من الرسل عددهم خمسة على الترتيب الآتى مبدوءاً بأعلاهم منزلة :

محمد — إبراهيم — موسى — عيسى — نوح — عليهم الصلاة والسلام قال تعالى :

[فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ][1]

وسموا بذلك لأنهم صبروا على أذى قومهم وصبروا على المشاق والمتاعب وتحملوا أكثر من غيرهم .

هل يمكن اكتساب النبوة أو الرسالة ؟

والنبوة والرسالة لا يمكن لأحد أن يكتسب إحداهما عن طريق المجاهدة والرياضة والتقوى وغيرها . لأنهما منحة من الله تعالى يختص بهما من يشاء من عباده ويتفضل بها على من يختاره من خلقه . فهما إذن من شأن الله وحده لا دخل للخلق فيهما بأى وجه من الوجوه :

قال تعالى :

[اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه][2] .

وقال تعالى :

[اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسَلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ][3] .

(١) الأحقاف : ٣٥ .
(٢) الأنعام : ١٢٤ .
(٣) الحج : ٧٥ .

ولا عبرة بقول من قال من الفلاسفة : إن النبوة يمكن اكتسابها بمباشرة أسباب مخصوصة كملازمة الخلوة والعبادة ، وأكل الحلال . . . . الخ ، لأنه لم يقم على ذلك دليل عقلى ولا شرعى . وهم فى ذلك خلطوا بين النبوة والولاية التى سيأتى الكلام عنها .

وإرسال الرسل من الأمور الجائزة ، فى حق الله تعالى ، فهو تعالى يجوز فى حقه أن يرسل إلى الناس رسلا ، ويجوز ألا يرسل ، لكنه تعالى أخبر من جهة الشرع أنه لا يؤاخذ أحداً على خطأ ارتكبه إلا إذا أرسل إليه رسولا يعلمه ويرشده ، ويبشره وينذره كما سبق ، وأخبر تعالى أنه أراد وقرر إرسال الرسل إلى عباده رحمة بهم ، لأن عقلهم وحده غير كاف فى هدايتهم وإسعادهم ، وما دام قد أراد الله ذلك وقرره فلابد من وقوعه شأن كل شىء أراده الله تعالى وقرره من الأمور الجائزة فى حقه تعالى .

الفرق بين الرسل والفلاسفة وأشباههم

١ — قال المرحوم محمد رشيد رضا :

إن حكمة الحكماء ، وعلوم الفلاسفة آراء بشرية ناقصة ، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود ومجهول ، وهى عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس — وما كل من يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته ، إذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد ؛ لأن النوع البشرى يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى بشريته وإن فاقه فى علمه وحكمته ، وإنما يدين الإنسان لمن يعتقد أن له سلطاناً غيبياً عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس حسب سنة الكون .

وأضيف إلى ما قاله الأستاذ ما يأتى :

٢ — إن الرسل يتلقون عن الله تعالى دينه ويبلغونه للناس بأمانة وليس

لهم رأى فى الدين إلا فى الحدود التى أذن الله لهم فيها . وليس ذلك شأن الفلاسفة الذين يعتمدون على العقل فقط ، والعقل وحده ثبت عدم كفايته .

٣ ـ الرسل طائفة ممتازة من البشر يختارهم الله تعالى بنفسه ، ويصنعهم لرسالته ، ويربيهم بحكمته ، ويعصمهم من الزلل والاثم والفواحش حتى يصلحوا للقيادة بعد نزول الرسالة عليهم .

قال تعـــالى :

[إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ](١) .

وقال لموسى عليه السلام :

[واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي](٢) .

وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم :

[وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ](٣) .

٤ ـ رسالات الرسل تنزل من عند الله تعالى ـ وهو أعلم بخلقه ـ لتصنع لهم الحياة الطيبة فى جميع النواحى سواء أكانت شخصية أم اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية ، وسواء اتصلت بالفرد أم بالجماعة أم بالأمة أم بالإنســانية .

والرسالات فى ذلك تعالج الأمور بما يتفق مع الغرائز والعواطف والاحتياجات المختلفة ، وكل متطلبات الإنسان .

---

(١) آل عمران : ٣٣ .
(٢) طـه : ٤١ .
(٣) القلم : ٤ .

والرسالات ترعى مع ذلك التواؤم بين الإنسان وبين ما يحيط به من جميع المخلوقات سواء منها الحيوانات والحشرات والنباتات والبحار والجبال وغيرها : وهذا الشمول الناجح المؤتلف مع جميع الأشياء المعالج لجميع الأمراض ، المدرك لخفيات الأمور ، الذى يتحسس نبضات القلوب فيرعاها، وخلجات النفوس فيحنو عليها لم يوجد لأى فيلسوف ظهر على وجه الأرض .

٥ ـ من التاريخ الإنسانى ندرك أن الفلاسفة لم ينجحوا فى إقامة دولة أو أمة على فلسفتهم ومبادئهم ، وذلك بسبب عجز الفلاسفة عن سد حاجة البشرية ، ومن قيل عنه : إن الأمة من الأمم قامت على فلسفته فإنك بالبحث ترى أن الفلسفة التى جاء بها الفيلسوف ليست هى التى جمعت عليها الأمة ، وإنما هناك مؤثر آخر هو القوة والضغط ، والتعذيب ، والتنكيل ، فهى ليست أمة قائمة على فلسفة اقتنعت بها ، وإنما هى فلسفة ضيقة عذبت فى سبيلها أمة ، وحطمت نفوساً بشرية ، وجعلت الحياة على سعتها سجناً لأهلها . فأين هذا من قول الله لرسوله :

[وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ][1] .

وقوله تعالى :

[فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ][2] .

ولذلك نجح الأنبياء نجاحاً منقطع النظير فى تكوين الأمم التى آمنت برسالاتهم ، ونجحوا فى إسعادهم وإعزازهم ، وفى توفير حياة الحرية والكرامة والسيادة والقوة لهم ، ما دام المؤمنون ملتزمين بتعاليم هؤلاء الأنبياء . وذلك أمر لا يشك فيه عاقل .

---

(١) الكهف : ٢٩ .
(٢) الغاشية : ٢١، ٢٢ .

لذلك كله تجد العلماء والمفكرين المنصفين عرفوا للرسل مكانتهم ، ووضعوهم فى الموضع اللائق بهم بالنسبة لحاجة الناس إليهم ، وضرورة الأخذ بما جاءوا به من دين — فيقول ابن القيم فى ذلك :

إنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا على أيدى الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح الذى على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال . وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلالة ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأى ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق المـــاء ووضع فى المقلاة ؟؟

فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء من الرسول كهذه الحال بل أعظم ، ولكن لايحس بها إلا قلب حى ، وإذا كانت سعادة العبد فى الدارين معلقة بهدى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلية ، ويدخل به فى عداد أتباعه وشيعته وحزبه .

والناس فى هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وظائف الرســـل

الرسل سفراء بين الله تعالى وبين خلقه يقومون بأخطر عمل بالنسبة لقومهم ، فهم :

١ — الرسل يتلقون الوحى والعلم والدين عن الله سبحانه وتعالى على الوجه والكيفية التى يختارها الله تعالى :

قال تعـــالى :

[إنَّـا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ][1] .

٢ – ويبلغون رسالات الله إلى عباده : قال تعالى :

[يـأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ، وإِن لَّـمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ][2] .

٣ – ويشرحون كتب الله . ويبينون للناس ما أبهم عليهم منها ، قال تعـــالى :

[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ][3] .

٤ – وينفذون دين الله ويطبقونه بكل دقة لتقتدى بهم أممهم وتسير على نهجهم ، قال تعـــالى :

[لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[4] (أى قدوة حسنة] .

٥ – ويقومون بمناقشة من أرسلوا إليهم ومجادلتهم لإقناع من يقتنع ، وإبطال حجج من يكابر ويعاند ، ولإزالة الشبهات ، والإجابة على جميع التساؤلات المهمة ، ومعالجة هذه الأمور بالرفق والحكمة والحجة حتى لا يبقى لأعداء الله شبهة ، وحتى لا تكون لهم يوم يجازون على مواقفهم من المرسلين حجة – قال تعـــالى :

[اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ][5] .

---

(١) النساء : ١٦٣ .
(٢) المـــائدة : ٦٧ .
(٣) النحل : ٤٤ .
(٤) الأحزاب : ٢١ .
(٥) النحل : ١٢٥ .

٦ – يقومون بتربية أتباعهم تربية عالية ربانية تليق بإيمانهم بربهم ، وتعدهم للشرف العظيم الذى ينتظرهم يوم لقائه وتحيته تعالى لهم وتكريمهم بنعيمه الذى لا ينفد ، كما تعدهم هذه التربية لتحمل الأمانة مع رسولهم وبعده ثم يورثونها من بعدهم جيلا بعد جيل .

قال تعالى :

[هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ (يطهرهم) وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ](١) .

وبذلك تدرك مدى أهمية الرسل بالنسبة لصلتهم بالله ولعملهم فى أممهم ، ومن أجل هذا رأى العلماء أن الرسل يجب عقلا وشرعاً أن يتصفوا بصفات معينة لا يتصور العقل ولا يرضى الشرع انتفاء صفة منها عن أى رسول .

وقد حصروا هذه الصفات فى أربع هى : الصدق – الأمانة – التبليغ – الفطانة . فيجب اتصاف الرسل بهذه الصفات الأربع ، ويستحيل عليهم أضدادها وهى : الكذب ، والخيانة ، والكتمان ، والبلادة .

وسيأتيك ذكر ما يجوز فى حقهم عليهم الصلاة والسلام .

وإليك تفصيل الكلام فى ذلك .

ما يجب فى حق الرسل من الصفات وما يستحيل

١ – الأمانة أو العصمة

يجب للرسل عليهم الصلاة والسلام الأمانة ، وهى العصمة .
ومعناها حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمعصية .
ويستحيل عليهم ضدها – وهى الخيانة .

---

(١) الجمعة : ٢ .

فهم محفوظون ظاهراً من الزنا وشرب الخمر ، والسرقة ، والكذب وأمثال ذلك من المنهيات والمستقبحات .

كما أنهم محفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء وأمثال ذلك من المنهيات الباطنة . والدليل على وجوب اتصافهم بالأمانة أنهم لو خانوا بفعل المعصية لكان أتباعهم مأمورين من الله بفعل المعصية التى فعلها الرسول ؛ لأن أتباع الرسل مأمورون من الله باتباع الرسل فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، والله تعالى لا يأمر بالمعصية : قال تعالى :

[إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ][1] .

فالأنبياء إذن معصومون من الله تعالى من الوقوع فى المعصية سواء أكانت هذه المعصية صغيرة أم كبيرة .

وذلك ما يتفق مع جلال أعمالهم وشرف رسالتهم وصلاحيتهم للقدوة الواجبة على أتباعهم والطاعة المفروضة لهم على هؤلاء الأتباع .

قال تعالى :

[قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ][2] .

وقال تعالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ][3] .

---

(١) الاعراف : ٢٨ .

(٢) آل عمران : ٣١ .

(٣) النساء : ٦٤ .

شبهات حــول عصمة الأنبياء والمرسلين

قد ورد فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما ربما فهم منه وقوع الأنبياء فى الذنوب والمعاصى ، وهنا يجد المغرضون وأعداء الدين مجالا يحاولون فيه تسميم الأفكار ، وبلبلة النفوس بزرع الشك فيها ، ويجترئون على رسل الله وصفوة خلقه بوصفهم بأوصاف لو وصفت أنت بها زعيمهم الذى يتبعونه ويؤمنون به لهاجوا وماجوا وآذوا ، وتوقحوا ، واعتدوا على من يتنقص زعيمهم بكل ما أمكنهم الاعتداء به .

مع أن ما ورد فى حق الأنبياء مما يوهم مخالفتهم هو نفسه أكبر دليل على عصمتهم كما أنه أكبر دليل على أن الله تعالى يعامل أنبياءه معاملة خاصة فيها شدة أكثر وتكليف أشق ؛ ليتناسب ذلك مع مكانتهم عند الله .

وللرد على هذه الشبهات نذكر أولا أصولا عامة على المسلم فهمها ووعيها فنقول :

١ – إن المنطق السليم والتفكير العقلى الواعى يوجب الاعتقاد بأن هذه الطائفة المختارة من الله ، والتى تميزت عن جميع البشر باصطفاء الله لها لتلقى وحيه وتبليغ رسالته ، والتى تربى الأمم ، وتكون قدوة يجب اتباعها وترسم منهجها . لابد من أن تكون متصفة بصفات نفسية وخلقية وروحية تتفق مع جلال وعظمة وظيفتها .

وأقل تطبيق لهذه الصفات ألا يقع الرسل فى أمر نهى الله عنه ، وألا يتورطوا فى ذنب أو معصية . بل لا يليق بهم عقلا أن يقعوا أثناء رسالتهم فى أمر مكروه أو الأولى تركه شرعاً .

إن وقوعهم فى معصية أو ذنب أثناء الرسالة يتناقض مع جلال رسالتهم ، ووجوب اتباعهم .

٢ - الله تعالى وصف المرسلين فى القرآن بأوصاف تدل على اختياره لهم وتمييزهم عن غيرهم ووضعهم فى درجات فوق مستوى غيرهم من البشر ، فلو ارتكبوا ذنوباً ، أو وقعوا فى معصية لكانوا مساوين لأى فرد من عامة البشر ، وذلك ما لا يتفق مع الأوصاف التى ذكرهم الله بها فى كتابه ، والتى يجب الإيمان بها لثبوتها بدليل قطعى : قال تعالى :

[اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وِمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ][1] .

وقال تعالى فى جملة من المرسلين :

[وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ][2] .

وقال تعـــالى :

[إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ][3] .

وقال تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام :

[ولَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ][4] .

وقال تعالى فى حق موسى :

[إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى][5] .

---

(١) الحج : ٧٥ .
(٢) ص : ٤٧ .
(٣) آل عمران : ٣٣ .
(٤) البقرة : ١٣٠ .
(٥) الأعراف : ١٤٤ .

وقال تعالى فى شأن ثمانية عشر رسولا :

[أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ][1] .

وقال تعالى فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم :

[وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ][2] .

٣ – إن جميع المرسلين يأمرون بأمر الله ، وينهون بنهيه ، ويعلنون الثورة على الباطل الذى يغشاه قومهم ، ويحاربون فى وضح النهار العبادات الباطلة ، والتقاليد الضارة ، والأخلاق الفاسدة ، ويقفون وحدهم أمام الجبابرة ، والعتاة ، وعظماء الناس ، ورؤسائهم ، وملوكهم ، يناقشونهم بالحجة ، ويثبتون رسالاتهم بالمعجزة ، ويسخرون من عقول الكافرين ومن معبوداتهم المقدسة عندهم ، ويهددونهم بالويل والهلاك من الله إن لم يستجيبوا لداعى الحق . ولا بد حينئذ من أن يبذل أهل الباطل – وفى يدهم إمكانيات كثيرة ، ولهم أتباع يسمعون لهم ويطيعون ، وفى يدهم قوة المال والجيش والشعب – لابد من أن يجتهدوا فى حرب هؤلاء المرسلين ، لإبطال حججهم وصرف الناس عنهم .

وأسهل شىء يفعلونه ضدهم – وهو فى نفس الوقت أخطر سلاح – أن يبحثوا فى « أرشيف » هؤلاء المرسلين لعلهم يعثرون على سقطة أو زلة ، فيكفى لو وجدوها أن يرفعوها فى وجه الرسول فينتهى كل شىء .

ولكن أصدق مرجع فى تاريخ المرسلين مع أممهم – وهو القرآن الكريم – لم يذكر حادثة واحدة اتهم بها الكفار رسلهم وتصلح أن تكون ثلمة فى أخلاقهم ونقصاً فى حقهم ، بل إن ما وجه من تهم إلى الرسل لم يكن إلا افتراء اكتشف فى حينه ، وباء المفترى بالخزى والسخرية بين قومه .

---

(١) الأنعام : ٩٠ .
(٢) القلم : ٤ .

ولقد نجح المرسلون نجاحا لم ينجح ولن ينجح مثله أى زعيم أو مصلح ، أو فيلسوف ، وكان نجاحهم شاملا جميع نواحى الحياة .

وقام نجاحهم على الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة ، والمجادلة النظيفة ولو وجدت فى حياتهم لوثة لسقطت معها أقوى حجة .

ولذلك أوضح القرآن الكريم الآثار السيئة المترتبة على الكلمة الطيبة حين تصدر من إنسان لا يمثلها ولو كان مؤمنا عادياً فقال تعالى :

[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ][1].

٤ ـ إن أى رسول مهما علا شأنه ، وعظمت مكانته لا يزيد عن كونه عبداً لله تعالى . وعظمة الرسالة أساسها الشعور بذل العبودية وعرفان الرسل أكثر من غيرهم بحق الإلهية . وبذلك جاء وصف كثير منهم فى مجال مدحهم وإظهار رضاء الله تعالى عنهم وتكريمه إياهم .

فقال تعالى فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم :

[سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى][2] .

وقال تعالى :

[وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ][3] .

وقال تعالى :

[واذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَقَ ويَعْقُوبَ أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ][4] .

---

(١) الصف : ٢،٣ .
(٢) الاسراء : ١ .
(٣) ص : ٤١ .
(٤) ص ٤٥ .

وفى القرآن من ذلك كثير . وما دام الشعور بذل العبودية وضعفها واحتياجها إلى ربها الكبير المتعال العظيم ذى الفضل والإنعام — ما دام هذا الشعور هو أصل وسر جلال الرسالة فكلما زاد هذا الشعور بالعبودية وعظمة الربوبية زاد معه الكمال والترقى .

وذلك مبدأ مستقر فى النفوس ، وتجد له أمثلة فى الناس خصوصاً بين الرؤساء والملوك وبين المحيطين بهم ، فكلما كان المخالط المقرب لهؤلاء الرؤساء خبيراً بواجبه نحو رؤسائه ، قائماً بحقهم ، مراعياً لمرضاتهم كان ذلك سبب زيادة تكريمه ورفعته ودوام نعمته .

وحين يتغاضى هذا المقرب أى تغاض — ولو كان غير مقصود — عن القيام ببعض ما ينبغى — وقد يكون ما ينبغى أمراً ليس فى حساب أحد اعتباره حين يفعل ذلك يعاتب من رئيسه أو يلام فيظن من يسمع اللوم أنه أذنب ذنباً حقيقياً ، وليس الأمر كذلك ، إنما هى تكاليف المقامات العالية وضريبة القرب ممن بعدت فى العظمة مكانته — وهذا مثل ضربته لتقريب المعنى —

إذا كان هذا الأمر مركوزاً فى الفطر ومعهوداً عند الناس ، فإنك تستطيع أن تنطلق من هذا الفهم إلى ما بين المرسلين وبين ربهم سبحانه وتعالى « ولله المثل الأعلى » فمقام العبودية يوجب على الأنبياء المحاولة الدائمة لطلب الكمال عند الله — والكمال اللائق بجلال الله تعالى غير ممكن للبشر ، لأن البشر يعيشون مهما علوا فى حدود بشريتهم — لذلك يشعر الأنبياء والمرسلون دائماً بأنهم عبيد مقصرون فى حق الله تعالى مع أنهم فى غاية الكمال الإنسانى .

من أجل ذلك تجد هؤلاء المرسلين يكثرون التوبة إلى الله . ويخافون ربهم أكثر من غيرهم ، ويبكون البكاء الحار ، ويجهدون أنفسهم أضعاف أضعاف ما يجهد أقوى رجل مؤمن من أتباعهم نفسه .

لماذا كل هذا ؟ ألأنهم وقعوا فى فاحشة ؟ ألأنهم بارزوا ربهم بمعصية ؟ ألأنهم فعلوا ما نهوا عنه وتركوا ما أمروا به ؟ كلا . وألف كلا ، وإلا لانهدم كل صرح أقاموه ورفض كل دين جاءوا به .

• إنهم يعبدون بقوةٍ الرب الذى رباهم وقربهم وأحبهم ، وأعطاهم مقاليد البشر .

• إنهم يخشون التقصير فى حق الله وهو مالك أمرهم ، وإليه مرجعهم .

• إنهم يبكون على أنفسهم لعجزها عن عبادته تعالى عبادة تليق بجلاله وكماله .

ولا أحد من البشر يستطيع أن يبلغ بعبادته هذا المستوى .

وهم مع ربهم فى هذا المقام يشعرون برحمته بهم وعطفه الكبير عليهم وزيادة تكريمه لهم ، فبناء على ما بينهم وبين الله تعالى من قرب وود ، يصف الله عجزهم بأنه معصية ، وقصورهم بأنه ذنب ويشتد عليهم – فيما يبدو للناس – فى العتاب ولـكنه بأسلوب يفيض حناناً وعطفاً ورحمة وعفواً .

لذلك لا تستطيع أن تجد فى القرآن الكريم نوعاً من العتاب إلا وتجد معه ما يقابله من الرحمة والتكريم والرفعة لمكانة المرسلين الذين عاتبهم الله تعالى وإليك أمثلة لذلك تضىء لك جوانب الموضوع :

١ – فآدم عليه السلام قال الله فى شأنه :

[وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى][1] .

هذا هو الخبر والعتاب . ثم قال تعالى بعد ذلك مباشرة :

[ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى][2] .

فى الآية الأولى كلمتا عتاب هما : « عصى وغوى » وفى الآية الثانية كلمات تكريم وتقريب وتلطف جميل . . . كلمات وليستا كلمتين – « فعصى » قابلتها كلمة « اجتباه » أى قربه « وآدم » قابلتها كلمة « ربه » وما ألذها من مقابلة ، « وغوى » قابلتها كلمة « فتاب عليه » وزيد هنا كلمة

---

(١) طـه : ١٢١ .
(٢) طـه : ١٢٢ .

« وهدى » فأى معصية هذه التى تجلب ذلك كله ؟ وهل هى معصية بالمعنى العام ؟ لو كانت كذلك لدخل آدم تحت مثل قوله تعالى :

[وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ] (١) .

٢ — وإبراهيم الخليل عليه السلام : أخذوا عليه قوله فى الكوكب وفى القمر وفى الشمس « هذا ربى » متوهمين أن هذا لا يليق بمقام إبراهيم ، حتى ولو كان المراد منه التدرج مع قومه فى إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته بطريقة تربوية منطقية . . . وهذا وهم منهم وجهل بالقرآن نفسه فإن الله تعالى اعتمد هذه الطريقة فى كتابه القويم وزكاها . وبين أنها مما أنعم به على إبراهيم حتى صار واسع الأفق ثابت اليقين قوى الحجة مرفوع الدرجة عند ربه .

فقبل آيات المناقشة قال تعالى فى مدح إبراهيم بسعة العلم وقوة اليقين .

[وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ] (٢) .

وفى نهاية مجادلة إبراهيم قومه وانتصاره عليهم قال الله تعالى فى شأنه :

[وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ] (٣) .

فهل يجد متوهم مجالا بعد ذلك لوهمه وغروره وتشككه ؟! — إن ابراهيم دعا إلى ربه بطريقة معينة ، وربه زكى طريقته وبين أنها توفيق الله له ، فمن الذى يرى لنفسه بعد ذلك وجهاً يلتى به الله وهو يعترض على إبراهيم وفى الحقيقة إنه يعترض على الله لا على إبراهيم ! ! ! فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

---

(١) النساء : ١٤ .
(٢) الأنعام : ٧٥ .
(٣) الأنعام : ٨٣ .

٣ – واقرأ عن يوسف عليه السلام قول الله فى شأن ما حدث بينه وبين امرأة العزيز التى فتنت به وغلقت الأبواب وراودته عن نفسه بطريقة مكشوفة وبأسلوب صريح . فقد قال تعالى فى قمة هذا الموضوع :

[وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ](١) .

فقد استغلت الإسرائيليات هذه الواقعة كما استغلها أصحاب القلوب المريضة لينسجوا منها قصة عشق متبادل ، وهيام عنيف ، وتحرك إلى الفاحشة من كلا الطرفين – يوسف وزليخا – مع أن المقام يدفع عن يوسف كل شبهة ويضعه فى قمة الطهارة والعفة ورعاية أسمى آيات النبل والوفاء .

فإن الهم المذكور فى هذه الآية وضع فى إطار من العصمة الإلهية ، والتزكية الربانية . بحيث لا يسع أى منصف إلا أن يقف أمام موقف يوسف – عليه السلام – فى إجلال وإكبار وإعظام .

فقبل هذا الهم قال الله تعالى فى يوسف :

[وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ](٢) .

وبعده يأتى قوله تعالى :

[كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ](٣) .

أما العبارة التى نسجوا منها الافتراء على نبي الله وهى قوله تعالى : « وهم بها » فبعدها قوله : « لولا أن رأى برهان ربه » والمعنى أن يوسف

---

(١) يوسف : ٢٤ .
(٢) يوسف : ٢٢ .
(٣) يوسف : ٢٤ .

لولا برهان ربه – وهو اليقين والإيمان وشدة مراقبة الله تعالى – لفتن ووقع فى الفاحشة ، وما دام إيمانه هو الذى عصمه فإنه يستحق الثناء العاطر والثواب الجزيل ، وذلك ما نطق به القرآن الكريم ، فمن أين لهؤلاء المفترين ما ينسجون وما يأفكون ؟؟ .

٤ – وداود عليه السلام قال الله فى شأنه :

[وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ][١] .

هذا موقف داود – استغفار – وركوع ، وتوبة إلى الله – فما موقف العناية الربانية منه ؟ قال تعالى :

[فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ][٢] .

فداود فقط ظن أنه امتحن وأنه قصر فيما يناسب عظيم مكانته عند ربه . فانفطر قلبه استغفاراً ، وطأطأ رأسه سجوداً ، وأعلن التوبة بكاء . . فبماذا قوبل من ربه ؟ أفاض عليه مغفرة ، وزيادة قرب ، وتمام نعمة فى الآخرة (وحسن مآب) أى مرجع ، وأعطاه زيادة تمكين فى الدنيا « إنا جعلناك خليفة فى الأرض » كل ذلك وخطأ داود غير معروف ، وربه لم يذكر أنه أخطأ فكيف افترى الكاذبون قصصاً حول هذا الموقف وتنقصوا داود بإفكهم وافترائهم ؟ وليس لهم حجة ولا برهان على ما قالوه زوراً وبهتاناً ؟؟

٥ – وسليمان عليه السلام : قال الله تعالى فى شأنه :

[وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ][٣] .

---

(١) ص : ٢٤ .
(٢) ص : ٢٥–٢٦ .
(٣) ص : ٣٤ .

ما هي هذه الفتنة وما هذا الامتحان الذى وقع فيه سليمان ؟ لم يأت دليل من قرآن أو سنة صحيحة يخبرنا عن نوعه ، وكل الذى جاء هو حديث صحيح ذكر أن سليمان ترك قول « إن شاء الله » فعوتب على ذلك ولم يذكر الحديث أن هذا العتاب هو نفسه الفتنة التى وقع فيها سليمان . ولكننا نجد أنفسنا مسوقين إلى القول بأن هذا الحديث هو وحده الذى يصلح تفسيراً وشرحاً لنوع هذه الفتنة ونوع الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان . فقد أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل (نصف رجل) والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » فجائز أن يكون الجسد الذى ألقى على كرسيه هو هذا الوليد الشق ، وهو أقرب الاحتمالات ، وجاءت به الرواية الصحيحة . فلا داعى للتجديف فى حق هذا الرسول اتباعاً لأهواء المغترين ، والدليل على أن هذه الفتنة هى من نوع ما بين الخواص وبين ربهم ما جاء بعد هذه الآية من طلب سليمان عليه السلام مزيداً من نعم الله وإعطاء الله إياه ما طلبه وأكثر منه — اقرأ هذه الآيات يتضح لك ذلك :

[قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَئَابٍ * وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً

مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي والأَبْصَارِ][1]

٦ — ولم أذكر ما حصل من موسى عليه السلام من قتله القبطى بوكزة، لأن ذلك مع أنه كان قبل النبوة فإن موسى لم يرد بالوكزة قتل القبطى ولم يكن يدرى أنه أوتى من القوة فوق ما أوتى غيره من بنى عصره . والموقف كله كان موقف دفاع لا أكثر . وأمره واضح .

٧ — وأما محمد صلى الله عليه وسلم فإن القول فى جنابه وساحته يجب أن يكون فى غاية الأدب والخشوع والإكبار والاحترام لهذه الشخصية العظيمة الفذة إنه صلى الله عليه وسلم عبد خاضع لربه ، أعطى عبوديته كل ذله وخشوعه وخضوعه ، وأعطاه ربه من التكريم ما لم يعط أحداً غيره .

ولا تجد فى القرآن الكريم صورة ظاهرها العتاب من الله لحبيبه إلا وتجد إطار هذه الصورة وظلالها وملامح جوهرها تفيض حباً وتعظيما وتكريماً وثناء عاطراً من الله لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم كما تجد الجو الذى وضعت فيه هذه الصورة كله جواً جميلا مزهراً معطراً من حول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأسوق لك مثلا على ذلك : قصة زواج زيد بن حارثة الذى كان مملوكاً للنبى صلى الله عليه وسلم فأعتقه النبى ثم تبناه — أعنى اتخذه ولداً على عادة العرب حينئذ — ثم زوجه بأمر الله تعالى زينب بنت جحش ابنة عمته صلى الله عليه وسلم . وكانت كارهة هذا الزواج لأنها حرة وزيد مولى من الموالى . وكان أخوها عبد الله بن جحش كارهاً أيضاً هذه المصاهرة غير المتكافئة فى نظره ، ولم ينفذها هو وأخته إلا بعد نزول قوله تعالى :

---

(١) ص : ٣٥-٤٥ .

[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، ومنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً] (١) .

وأراد الله تعالى من هذا الزواج إبطال مبدأ اجتماعى خطير من مبادىء الجاهلية ، وهو أن يكون للابن المتبنى كل ما للابن الصلب من الحقوق والأحكام سواء فى ذلك الميراث وحرمة تزوج الأب من زوجة ابنه المتبنى وغير ذلك .

فكان زواج زيد بن حارثة من زينب توطئة لذلك ، فقد أخبر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحى بأن زيداً سيطلق زينب ثم تتزوجها أنت بعده لإبطال هذه العادة الجاهلية عملياً على يد رسول الله نفسه حتى ينحسم الأمر نهائياً وبصورة قاطعة .

وجاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وأنها تتعالى عليه ، وأن العشرة بينهما غير مستطاعة .

والرسول صلى الله عليه وسلم وحده يعلم أن الطلاق سيتم ولكنه قال لزيد « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

إنه يريد أن يعالج الأمر على طريقة البشر فى مثل هذه الأمور الحرجة بالتدرج ، كما أنه مع علمه بالنتيجة لم ينزل عليه من الله توقيت معين للتنفيذ ، فله إذن حرية التصرف حتى يبلغ الأمر مداه ، وهو مع ذلك ينظر إلى القضية على أنها خطيرة ، وسوف تثير حوله الأقاويل والأراجيف إلى أبعد مدى ، والمدينة مشحونة بأعدائه من اليهود والمنافقين المتربصين لكل حركة وكل كلمة .

وتزوج إنسان عادى زوجة آخر بعد الموافقة على تطليقها منه كثيراً ما يكون سبباً فى هدم شخصية المتزوج ، وتنقيص مكانته بين الناس ، فما بالك

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .

إذا كان الذى وافق على الطلاق وتزوج المطلقة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت المطلقة قبل طلاقها زوجة من يسميه العرب (ابن محمد) لذلك كان لابد من نزول قرآن يحسم الموقف ، ويشرح القضية ويذكر جميع ملابساتها ويدفع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السرعة فى التنفيذ بأسلوب التهييج والإثارة . وهو أسلوب بلاغى معروف لدى العرب .

قال تعـالى فى القضية كلها :

[وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ ، واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذا قَضَوا مِنْهنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً][1] .

وهنا تعلق المغرضون بقوله تعالى لرسوله (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وظنوها غلطة لا تليق بمقام الرسالة ، وافتروا على الله وعلى رسوله فيما يتوهمون ، ولو تذوقوا الأسلوب القرآنى لوجدوه يستعمل مثل هذا التعبير فى التهييج والدفع إلى الشيء الخطير وتنفيذ أمر ذى شأن كبير وأهمية معينة .

قال الله تعالى فى حض المؤمنين على قتال أعدائهم :

[أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ][2] .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .
(٢) التوبة : ١٣ .

والذين يقال لهم هذا هم الصحابة رضوان الله عليهم وشأنهم فى التزاحم على جهاد أعداء الله معروف ، وقال تعالى فى إثارة النفوس لتنفيذ حد الله (حد الزنا) .

[وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ][(١)] .

ومثل هذا الأسلوب فى القرآن كثير ، وهو لا يراد به التنقيص ، إنما يراد به الإثارة والتهييج .

ولكى ترى الصورة على حقيقتها عليك أن ترى الإطار الذى وضعت فيه هذه العبارة (وتخشى الناس) . فإنها جزء من آية جاء فيها بعد هذه العبارة (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) . . . .

فالله تعالى هو الذى تولى تزويج رسوله لإبطال هذه العادة ، ويكفى رسول الله شرفاً أن الله هو الذى زوجه .

وقبل هذه الآية وبعدها فى نفس السورة آيات عديدة كلها تكريم ورفعة لمقام رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم . منها قوله تعالى :

[النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ][(٢)] .

قوله تعالى :

[يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً][(٣)] .

وقوله تعالى :

[إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً][(٤)] .

---

(١) النور : ٢ .
(٢) الأحزاب : ٦ .
(٣) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) الأحزاب : ٥٦ .

فهل تجد بعد هذا تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟؟

هذا وقد ضربت لك أمثلة فقط لم أرد بها الاستقصاء ، ولكن أردت للقارئ أن يحيا معى فى هذا الجو الإلهى ، وأن يحاول التمتع بما فى كتاب الله تعالى من كمال ، واتساق حتى يرى الأمور على حقيقتها بغير زيف أو تضليل أو تحريف ، وصدق الله القائل :

[وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتلافاً كَثِيراً][1] .

هذه الأصول التى ذكرتها لك هى خلاصة ما ذكره الفخر الرازى فى كتاب عصمة الأنبياء ، وما ذكره غيره من العلماء وما فتح الله به على فيما يتصل بوجوب اعتقاد عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإن ألحت عليك – بعد معرفة الأصول التى مرت بك – شبهة حول رسول من رسل الله ذكرتها آية من آيات الله أو حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليك بالتفاسير المتحررة من الإسرائيليات مثل تفسير الفخر الرازى والألوسى والبيضاوى والقاسمى والمراغى وظلال القرآن . وبالنسبة للأحاديث عليك بشراح الأحاديث البعيدين عن الخرافات مثل ابن حجر فى فتح البارى والنووى فى شرح مسلم والشوكانى والأحوذى وأمثالهم ، والله الموفق .

(٢) الصـــدق :

يجب الاعتقاد بصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام . وبأنهم يستحيل عليهم الكذب استحالة عقلية وشرعية .

فأما وجوب صدقهم واستحالة كذبهم فيما يبلغون عن الله تعالى فدليله أنهم لو كذبوا فى ذلك للزم الكذب فى خبره تعالى ؛ لأن الله تعالى صدق رسله بتأييدهم بالمعجزات ، فإن المعجزة التى يظهرها الله تعالى على أيدى رسله منزلة قول الله تعالى للمرسل إليهم : « إن رسولى صادق فى قوله بدليل تأييدى له بالمعجزة التى لا يقدر عليها أحد سواى » .

---

(١) النساء : ٨٢ .

فلو كان الرسل كاذبين لكان الكذب منصباً على المعجزة أيضاً (أى على ما يعتبر خبراً عن الله تعالى بتصديق رسله) لـكن الكذب فى خبر الله تعالى محال ، فكذب الرسل فيما يبلغون عن الله تعالى محال ، فثبت صدقهم فيما يبلغونه عنه تعالى ، واستحال كذبهم فى ذلك .

قال تعـــالى :

[وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ][1] .

وقال تعالى فى شأن افتراء الكفار على محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم إن القرآن من عنده هو لا من عند الله :

[وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ .

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ .

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ][2] .

وموجز المعنى أن الله يقول : لو قال محمد على الله كلمة واحدة لم يقلها الله تعالى لقتله الله شر قتلة . وأما وجوب صدق الرسل واستحالة كذبهم فى غير ما يبلغون عن الله تعالى فالدليل عليه أن الرسل لو كذبوا لكان كذبهم خيانة ومعصية وذنباً ، وقد ثبت أنهم معصومون من الذنوب والخيانة واتضحت الأدلة على ذلك .

(٣) الفطـــانة :

وهى حدة العقل وذكاؤه ، وقوة الفهم وعمقه ، وسرعة البديهة ، وحضور الذاكرة بحيث يستطيع الإنسان المتصف بها إلزام خصمه وإفحام

---

(١) الأحزاب : ٢٢ . (٢) الحاقة : ٤٤-٤٧ .

المعاندين والمكابرين له . كما يستطيع بسهولة الإبانة والإفصاح عما يريد أن يقوله .

والدليل على وجوب اتصاف الرسل بها أن الرسل أرسلوا لبيان الشرائع والأحكام وإزالة الشبهة وترسيخ مبادئهم بالإقناع بالحجة بالنسبة لمن آمن بهم كما أرسلوا بإقامة الحجة وإلزام الخصم ، وإبطال جميع حججه وأدلته ، فلو لم يتصفوا بالفطانة لاتصفوا بضدها ، من البلادة والعى واالغفلة فتضيع فائدة الرسـالة .

قال تعـالى :

[وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ][1] .

وقال تعـالى :

[أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ][2] .

(٤) التبـليغ :

ومعناه أن يوصل الرسول ما أمره الله بإيصاله إلى من أرسل إليهم . فيجب للرسل التبليغ ، ويستحيل عليهم ضده وهو كتمان شيء مما أمروا بتبليغه. والدليل على وجوب التبليغ أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم ؛ لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم ، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل . فكتمانهم شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلا ، فثبت لهم التبليغ ، واستحال عليهم الكتمان لشيء مما أمروا بتبليغه .

كما أن كتمانهم يضيع الفائدة من رسالتهم ، ولذا قال تعالى :

[يـأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [3]] .

---

(١) الأنعام : ٨٢ .
(٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) المـائدة : ٦٧ .

الجائز فى حق الرسل

وأما الجائز فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو كل الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم ومكانتهم . فالرسل من البشر يجوز عليهم كل ما يجوز على البشر من الأمور الغريزية والعاطفية فى حدود مكانة رسالتهم وما يتفق مع منزلتهم كرسل من الله إلى عباده .

فيجوز عليهم الأكل والشرب والاتصال الجنسى كما يجوز أن يرضوا ويفرحوا ويغضبوا ويستحيوا ويخافوا — كما يجوز أن يمرضوا بالأمراض التى لا تعجزهم عن أداء رسالتهم ، ولا تنفر الناس منهم (وما قيل عن أيوب عليه السلام من أنه مرض مرضاً نفر الناس منه يعتبر كذباً وافتراء عليه) وهكذا يجوز فى حقهم جميع الأمراض البشرية فى حدود ما ذكر .

والدليل على ذلك مشاهدة تلك الأعراض بهم ، كما أن هذه الأعراض لا تخل بمنصب الرسالة ، قال تعالى :

[قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ][1] .

وقال تعالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ][2] .

فالرسل رجال من البشر فيهم جميع خواص البشرية ولا يمتازون عنهم بشىء سوى أنهم رسل اختارهم الله لوحيه وهداية من شاء من خلقه ، ففيهم جميع الأعراض التى تصيب البشر ولا تخل بالرسالة .

---

(١) فصلت : ٦ . (٢) الأنبياء : ٧ .

أما الأعراض التى تخل بمنصب الرسالة مثل الإغماء الطويل والجذام ، والبرص والجنون والعمى والأمراض المنفرة كلها فهى ممتنعة عليهم .

وأما السهو والنسيان فلا يجوزان عليهما إلا فيما يتصل بأمر التشريع فقط كسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصلاة لتعليم الأمة ، وأما النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم إذ ليس للشيطان عليهم سبيل ، وما كان قول يوشع (وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ) إلا تواضعاً وتأدباً مع الله .

---

(١) الكهف : ٦٣ .

المعجزة

إذا جاء أحد الناس وادعى أن الله اختاره واجتباه وارتضاه لأن يكون رسولا من عند الله تعالى إلى الناس فإن الناس لا يمكن أن يقبلوا قوله فى بادئ الأمر – مهما كان حميد السيرة مرضى الخلق حسن العشرة بين قومه – إلا إذا جاء بدليل قاطع يثبت أنه حقاً رسول الله إليهم ، وهذا الدليل الذى يثبت رسالته لابد من أن يكون صادراً من عند الله تعالى ، فإذا جاء الدليل من الله تعالى يثبت رسالته وجب على المرسل إليهم اتباع رسولهم ، وإلا نزل بهم عذاب الله ووعيده ، لأنهم كذبوا المرسل إليهم بعد وجود دليل صدقه .

هذا الدليل الذى يثبت رسالة الرسول ، وأنه موفد من عند الله هو المسمى (المعجزة) .

تعريف المعجزة

فالمعجزة دليل حسى أو معنوى يعجز جميع البشر الموجودون عند إرسال الرسول عن الإتيان بمثله .

وعجز البشر دليل على أن المعجزة فعل الله القادر على كل شىء .

والله لا يفعل المعجزة إلا ليثبت للمرسل إليهم أنه تعالى هو الذى أرسل هذا الرسول إليهم وأنهم مكلفون بإتباعه والعمل بما جاء به من دين وشرع .

وقد عرف العلماء المعجزة بالتعريف الآتى :

المعجزة : هى أمر يظهره الله بخلاف العادة على يد مدعى النبوة عند تحدى المنكرين على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله .

فشروط المعجزة حسب هذا التعريف هى :

١ ـ أن تكون المعجزة من الله تعالى دون غيره ؛ لأنها تصديق منه لرسوله فلا يصدقه بفعل غيره ، سواء كان هذا الأمر (المعجزة) الذى يظهره الله قولا مثل القرآن ، أم فعلا كفلق البحر لسيدنا موسى ، أم تركاً كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ أن تكون خارقة للعادة لأنها لو لم تكن كذلك لأمكن للكاذب ادعاء الرسالة : وخرج بهذا السحر والشعوذة والمخترعات الغريبة .

٣ ـ أن تظهر على يد من يدعى النبوة ليعلم أنه تصديق له . . فخرج بهذا ـ الكرامة والمعونة والاستدراج .

٤ ـ أن تكون مقرونة بدعوى النبوة ومصاحبة لها حقيقة أو حكماً كما إذا تأخرت بزمن يسير . . . وخرج بهذا الإرهاص .

٥ ـ أن تكون المعجزة موافقة للمطلوب ، فإن جاءت مخالفة للمطلوب سميت إهانة كما حصل لمسليمة الكذاب . فإنه تفل فى عين لتبرأ فعميت السليمة .

٦ ـ أن لا تكون مكذبة للمدعى . فلو قال إنسان : معجزتى نطق هذا الجماد فنطق الجماد مكذباً له فإن تكذيبه يعتبر دليلا على كذب المدعى .

٧ ـ أن تتعذر معارضة الأمر الخارق للعادة والإتيان بمثله لأن المعارضة لو أمكنت واستطاع أحد أن يأتى بمثل الأمر الخارق للعادة الذى جاء به النبى لأمكن لأى كاذب أن يدعى النبوة .

٨ ـ زاد بعضهم أن لا تحصل المعجزة زمن نقض العادات ـ وذلك كزمن طلوع الشمس من مغربها وتكلم الدابة ، وظهور المسيح الدجال ، فإن الخوارق فيه ليست معجزة .

الفروق بين المعجزة وبين غيرها من خوارق العادات

١ ـ هو : أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعى النبوة .

٢ ـ والكرامة أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد صالح غير مدع للنبوة .

٣ ـ والمعونة أمر خارق للعادة يظهر على يد بعض العوام تخليصاً من شدة .

٤ ـ والإهانة .	أمر خارق للعادة يظهر على يد كاذب مدع للنبوة خلاف مطلوبه كما حصل لمسيلمة الكذاب .
٥ ـ والاستدراج .	أمر خارق للعادة يظهر على يد فاسق مدع للإلهية كما يظهر على يد المسيح الدجال .
٦ ـ والإرهاص .	أمر خارق للعادة يظهر على يد نبي قبل بعثته كتظليل الغمام لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام .
٧ ـ والسحر .	قواعد يقتدر بها على أفعال غريبة بالنظر لمن جهل قواعده ويمكن اكتسابه بالتعلم .
٨ ـ والشعوذة .	خفة فى اليد بوساطتها يرى الشخص أشياء على أنها حقيقية وليست كذلك فى الواقع كما يفعل الحواة .
٩ ـ وغرائب المخترعات .	هى الناشئة عن معرفة بعض خصائص المادة وأسرار الكون . مثل الراديو ـ والتلفزيون وسفن الفضاء وغيرها .

إمكان المعجـــزة

المعجزة أمر ممكن عقلا ، وواقع فعلا ـ إذ قد ثبتت معجزة القرآن الكريم بالتواتر .

وقص علينا القرآن الكريم كثيراً من معجزات الأنبياء السابقين التى تحدوا بها قومهم ، وأثبتوا بها رسالتهم ولو لم تكن المعجزة ممكنة لما وقعت .

وأما مخالفة المعجزة للسنن العادية فى إيجاد الممكنات فإن ذلك أمر لا يمتنع على الله ، لأنه تعالى قادر على كل شىء .

وقد يكون للخوارق عند الله سنن خاصة لا نعرفها ولكن يظهر أثرها على يد مدعى النبوة .

دلالة المعجزة

ذهب جمهور العلماء إلى أن دلالة المعجزة على صدق الرسول فى دعواه يقينية ، فالمعجزة تثبت إثباتاً لا شك فيه أن الذى جرت على يديه هو رسول من عند الله .

وهذه الدلالة اليقينية تلزم من عاصر الرسول ومن غاب عنه وجاء بعده لأن الذين يشاهدون المعجزة يكونون عدداً كثيراً ، فإذا نقل العدد الكثير أمر المعجزة إلى الغائبين كان ذلك حجة عليهم توجب تصديقهم بها وذلك هو الحاصل فى حياة الناس والمركوز فى فطرهم ؛ فإن أكثرهم يؤمنون بكثير من المدن والقرى ومن الشخصيات التاريخية والأحداث العظيمة وليس من سبب فى إيمانهم بها إلا الأخبار المتواترة .

ذكر بعض معجزات الرسل

اعلم أن من حكمة الله تعالى البالغة أنه يؤيد رسله بمعجزات من نوع ما فاق وأبدع فيه القوم المرسل إليهم حتى تنقطع حجتهم عن رسولهم ، لأن الرسول لو جاء بمعجزة من نوع يجهلونه وطالبهم أن يأتوا بمثلها لكان لهم أن يقولوا : إن هذا شىء نجهله ولو علمناه لعارضناه ، أما إذا تحداهم الرسول بمعجزته فى أمر قد برعوا فيه وأجادوه ثم لم يستطيعوا معارضته فإن ذلك يفحمهم ويلزمهم الحجة ، فمثلا عندما أرسل الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام كان فن السحر شائعاً فى القبط قوم فرعون ، ولهم فيه المهارة التامة ، ويعلمون من شأنه ما هو ممكن للبشر معرفته وصنعه منه وما ليس ممكناً لهم ،

فلما سحر السحرة منهم الحبال والعصى بأمر فرعون ، وصارت ترى حيات تسعى ألقى سيدنا موسى عليه السلام عصاه بأمر الله تعالى فقلبها الله ثعباناً عظيما فابتلعت تلك الحيات الكثيرة ، ثم لما أخذها بيده عادت عصا كما كانت فخر السحرة لله ساجدين ، وآمنوا برسالة موسى ، وصبروا على تعذيب فرعون لهم ، وما ذلك إلا لأنهم بسبب معرفتهم فن السحر وعلمهم بمقدار ما يدخل منه فى طوق البشر وما لا يدخل أيقنوا أن تلك الخارقة : وهى انقلاب العصى ثعباناً ابتلع حبالهم وعصيهم المسحورة على صورة الحيات ، ثم عودتها كما كانت مع تلاشى حبال السحرة وعصيهم دليل على أن ما حصل على يد موسى ليس سحراً ، وإنما هو آية ومعجزة من عند الله تعالى .

ولما بعث الله تعالى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان فن الطب شائعاً فى بنى إسرائيل ، فكان من حكمته تعالى أن جعل كثيراً من معجزاته عليه السلام من قبيل أعمال أهل الطب ، فأبرأ الله على يديه الأبرص والأكمه (الذى ولد أعمى) وأحيا الموتى ، فأهل المعرفة فى علم الطب لا يحتاجون فى تصديق رسالته إلى أمر صعب ، بل من الواضح لديهم أن يقولوا : إننا نعلم فن الطب ومقدار ما يمكن الإنسان أن يبلغه فيه من الأعمال وما لا يمكنه — فيدخل فى طاقة الأطباء الحذاق أن يشفوا الأبرص ، ولكن ذلك يحدث بمعالجة مخصوصة مع مرور زمان مخصوص ، وأما شفاؤه فى الحال بمجرد لمسه أو الدعاء له فهذا ليس فى طوقهم . ويمكنهم أن يشفوا مرض العمى الذى يكون عرضياً ليس مخلا بجوهر البصر ، وأما شفاء الأكمه عديم البصر فهذا ليس فى طوقهم ، وكذلك إحياء الموتى .

وحيث أن عيسى قد أتى بهذه الخوارق التى لا يستطيعها حذاق الأطباء فإن ذلك دليل على صدق دعواه الرسالة .

ولما بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة — ولم يجتمع مع أهل القراءة والكتابة اجتماعاً يمكنه من التعلم منهم ويؤهله لاكتساب جملة معارف الأمم وشرائع الأقدمين ، وقوانين الممالك ،

ولم يعلم عنه فى تلك المدة أنه كان يدرس شيئاً مما ذكر ، وكذلك لم يحصل له فى تلك المدة ــ مدة حياته قبل البعثه ــ أن مارس صناعة الفصاحة والبلاغة ، فلم يكن له عناية بالأشعار والخطب والرسائل العربية ، لا قولا ولا رواية ، ولم يكن مولعاً بمحاورة الفصحاء ، ومغالبة البلغاء حتى تقوى فيه ملكة الفصاحة والبلاغة ، وحتى يصبح أهلا لبلوغ الدرجة القصوى فيها (مع العلم بأنه مع عدم التعلم والممارسة كان أفصح العرب ، وأوتى جوامع الكلم بما وهبه الله وعلمه) فلما أرسل بين جماهير العالم من عرب وعجم مع فقر فى المال ، وفقد للناصر والمعين ، فادعى أن الله تعالى أرسله إلى الناس كافة ليبلغهم شرعه ودينه . وليبشر من اتبعه بالفلاح فى الدنيا والآخرة ، ولينذر من تولى وأعرض بالخزى والشقاء فيهما ، وأعلن فيهم الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، وهدم كل ما ورثوه من شرك وكفر ، وأنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

عندما فعل ذلك وسمع منه الجماهير هذه الدعوى العظيمة نفروا منه ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ، ثم أخذوا فى مجادلته ومخاصمته وطلبوا الحجة على صدق دعواه الرسالة ، فجاءهم صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة سنذكر بعضها فيما يأتى ، غير أن المعجزة الخالدة التى استند إليها فى إثبات رسالته وجعلها الأساس فى ذلك ، وتحداهم بها ثلاثة وعشرين عاماً هى المعجزة العقلية المعنوية العظمى (القرآن الكريم) فقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ، ثم تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا ، ثم أعلمهم بأنه لو اجتمع البشر كلهم ، وتظاهرت الجن معهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ما استطاعوا ، أن يأتوا بسورة مثله ولو كأقصر سورة منه . قال تعالى :

[فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ][1] .

---

(١) الطور : ٣٤ .

وقال تعالى :

[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ](١).

وقال تعالى :

[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ](٢).

وإنما كان القرآن هو المعجزة الأساسية التى تحدى بها النبى محمد صلى الله عليه وسلم قومه ؛ لأنه كان فى الأمة العربية أمراء الفصاحة والبلاغة وكان العرب أكثر الناس شاعراً وخطيباً ، وفيهم العالمون بأساليب الفصاحة والبلاغة ، والمحيطون بأسرارها ، وبما هو فى طوق البشر من مراتبها وبما ليس فى طوقهم .

لذلك لما عرض عليهم القرآن وأخذ يتحداهم كما سبق – وهو يسفه أحلامهم ويعيب أخلاقهم ، ويندد بآثامهم – نظر فيه علماء البلاغة والفصاحة منهم ثم أيقنوا بعد المكابرة أنهم أعجز من أن يأتوا بآية واحدة مثل آياته .

ولا يزال القرآن وسيظل يتحدى العالم كله فى كل زمان ومكان ، ولن يستطيع العالم مهما أوتى من علوم الفصاحة والبلاغة وغيرهما أن يعارض آية من كتاب الله تعالى . وصدق الله إذ يقول :

[قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا](٣).

---

(١) هـود : ١٣ .

(٢) يونس : ٣٨ .

(٣) الإسراء : ٨٨ .

معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم

معجزاته صلى الله عليه وسلم التى أيده الله بها كثيرة منها ما هو متواتر كالقرآن ، ومنها ما ليس متواتراً كتسبيح الحصى فى كفه ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم .

فمن أنكر المتواتر من المعجزات كان كافراً . ومن أنكر الصحيح المشهور منها كنبع الماء من بين أصابعه كان فاسقاً .

وتنقسم معجزاته صلى الله عليه وسلم إلى قسمين (١ – معنوية كالقرآن) (٢ – وحسية كنبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام بدعائه) .

وقد أيده الله بمعجزات عقلية ليدركها أصحاب العقول السليمة فيقتنعوا وينقادوا ، كما أيده بالمعجزات الحسية لتطمئن نفس المتردد ، وتنقطع حجة الجاحد ، وبهذا لا يكون لمكلف عذر أياً كان إدراكه .

أمثلة للمعجزات الحسية

١ – نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم :

عن جابر رضى الله عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه ركوة(١) وقالوا ليس عندنا ما نتوضأ به ولا مانشرب إلا ما فى ركوتك ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فتوضأنا وشربنا : قيل لجابر كم كنتم يومئذ ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا . كنا خمس عشرة مائة . أخرجه الشيخان .

٢ – تكثير الطعام ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى مسير ، فنفدت أزواد القوم حتى هموا بنحر حمائلهم(٢) فقال عمر

(١) الركوة – بفتح فسكون – ما يعد للماء . وجمعها ركاء وركوات – بفتحات .

(٢) حمائلهم – ما يحملون عليه متاعهم وأنفسهم ، والمراد هنا الإبل .

رضى الله عنه : يارسول الله : لو جمعت ما بقى من أزواد القوم فدعوت الله عليها ، ففعل . فجاء ذو البر ببره(١) وذو التمر بتمره ، وذو النواة بنواته قيل : ما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال : كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء . فدعا عليها حتى ملأ القوم مزاودهم (٢) فقال عند ذلك : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة . أخرجه مسلم .

٣ ــ تكليم الشجر له صلى الله عليه وسلم :

عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى رحمه الله يقول : سألت مسروقاً : من آذن (٣) النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثنى أبوك يعنى ابن مسعود أنه قال : آذنت بهم شجرة ــ أخرجه الشيخان .

٤ ــ حنين الجذع له صلى الله عليه وسلم :

عن أنس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى لزق(٤) جذع فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة . فنزل صلى الله عليه وسلم فمسه فسكن ــ أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح .

٥ ــ تسليم الحجر عليه صلى الله عليه وسلم :

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن بمكة حجراً كان يسلم على ليالى بعثت ، إنى لأعرفه الآن » أخرجه أحمد ومسلم .

وله صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كثيرة غير ما ذكر غير أننا اكتفينا بالأمثلة السابقة لدلالتها على المطلوب .

---

(١) أى صاحب القمح بقمحه .
(٢) جمع مزود بكسر فسكون ــ ما يجعل فيه الزاد .
(٣) أعلم .   (٤) بكسر فسكون . أى إلى جنبه .

معجزة القرآن

القرآن هو المعجزة الأساسية التى اعتمد عليها النبى صلى الله عليه وسلم فى إثبات رسالته وإعجازه قومه . وهو معجزة عقلية معنوية باقية إلى يوم القيامة .

تعريفه : القرآن هو اللفظ العربى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

بم كان إعجاز القرآن ؟

زعم النظام من المعتزلة أن إعجاز القرآن بالصرفة (أى إن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم حتى لا يأتوا بمثله ، وكان ذلك مقدوراً لهم ، لكن عاقهم أمر خارجى ، فصار كسائر المعجزات) .

وهذا قول فاسد بدليل قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم . ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لأن اجتماعهم حين يسلبون القدرة بمنزلة اجماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحفل بذكره : هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله سبحانه وتعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله ؟

وأيضاً يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدى وخلو القرآن من الإعجاز ، وفى ذلك خرق لإجماع الأمة على أن معجزة الرسول العظمى باقية ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن .

إذن فالقول بأن الإعجاز القرآنى سببه صرف الله الناس عن الإتيان بمثله قول باطل ومخالف لإجماع الأمة ولا يصح الاعتداد به .

لذلك اجتهد العلماء من السلف والخلف فى استنباط أوجه الإعجاز فى كتاب الله تعالى وسيظلون يجتهدون ويستنبطون إلى يوم القيامة .

فإن كتاب الله تعالى يكفى فى عظمته وسموه ورفعته أنه كتاب الله ، ولإنه كذلك عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بسورة كأقصر سورة منه .

لكن العقل الإنسانى وإن عجز عن الإتيان بمثل القرآن فإنه لم يعجز عن المحاولات الكثيرة ليستشف بعض الأوجه فى إعجاز القرآن الكريم .

وساعد العقل على ذلك فى صدر الإسلام تمكن العرب المسلمين من أساليب الفصاحة والبلاغة وبلوغهم فيها شأواً بعيداً ، وساعده على ذلك بعد صدر الإسلام إلى اليوم اطراد التقدم البشرى فى العلوم الكونية والإنسانية وغيرها مما جعل المسلمين المنصفين ينظرون إلى القرآن الكريم باعتباره الكتاب الإلهى الوحيد الذى (بقى) وسيظل شامخاً جامعاً شاملا كل حاجات الإنسانية . فيجدون أن هذا القرآن الكريم يعايش الحياة كلها . أرضها وسماءها ، محسوسها ومعنوياتها وأنه يجمع بين دفتيه علوماً لا حصر لها ، وأن أى خطوة يخطوها الإنسان فى اكتشاف أو اختراع أو تشريع أو تقنين عادل فإن القرآن الكريم يعتبر سابقاً بالإشارة أو العبارة كل ما يصل إليه البشر . ونحن حين نقدم للأمة بعض أوجه الإعجاز فإننا لا نريد الحصر عما نقدم . إنما نقدم الأهم الذى يفتح لك آفاق البحث والاستزادة إن أردت المزيد .

فقد اقتصر العلماء على أربعة أوجه لإعجاز القرآن ، وأوصلها بعضهم إلى عشرة أوجه ، وأوصلها آخرون إلى ستين وجهاً ، وآخرون بلغوا بها أكثر من ذلك .

أوجــه الإعجاز فى القرآن

الوجه الأول : حسن تأليفه وتناسق كلماته ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب .

فإن العرب الذين كان الكلام طوع أمرهم ، والبلاغة ملك قيادهم ،

قد حووا فنونها ، واستنبطوا عيونها ، ودخلوا كل باب من أبوابها ، وعلوا لبلوغ أسبابها ، وبلغوا من الفصاحة قمتها ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، وقالوا فى الخطير والمهين ، وتفننوا فى الغث والسمين ، وتساجلوا فى النظم والنثر .

ما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه ، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه(١) فلم يسعهم بعد المحاولات والمشاورات والمؤتمرات والافتراءات إلا أن يخضعوا مذعنين ، وأن يقروا خاضعين بأن ما يسمعونه من القرآن ليس من نوع ما ألفوا ، ولا من جنس ما عرفوا ، ولا هو فى طوق واستطاعة أحد منهم . وصدرت من مجالسهم الخاصة واجتماعاتهم المغلقة اعترافات تعلن عجزهم ، وتشهد عليهم بأن موقفهم من القرآن ليس إلا مكابرة وعناداً .

من هذه الاعترافات أن الوليد بن المغيرة لما سمع قوله تعالى :

[إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وإِيتاءِ ذِى الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ](٢) .

قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر .

وسمع أعرابى رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر . . »(٣) فسجد وقال :

---

(١) الرسالة الحميدية .
(٢) النحل : ٩٠ .
(٣) الحجر : ٩٤ .

سجدت لفصاحته . وسمع آخر رجلا يقرأ :

[فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا] [١] .

فقال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا .

وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ! ما أفصحك ؟ فقالت : أويعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى :

[وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ] [٢] .

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟ ؟ ؟ (٣)

الوجه الثانى : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . فإن الأسلوب الذى جاء القرآن عليه ، ووقفت مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته إليه ، لم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر ، فهو نوع متميز كل التمييز فى كل شيء وحتى فى تسمية جملته قرآناً وفى تسمية أجزائه سوراً وآياته تنتهى بفواصل ، وذلك بدلا من الديوان والقصيدة والبيت والقافية مما تعارف عليه العرب .

لذلك لما سمع عتبة بن ربيعة القرآن — وهو من أشد الناس عداوة له — قال ياقوم . . قد علمتم أنى لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، وما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

وفى صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبى ذر قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون :

---

(١) يوسف : ٨٠ .

(٢) القصص : ٧ .

(٣) الشفاء للقاضى عياض .

شاعر . كاهن . ساحر . وكان أنيس شاعراً ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية فقال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة . فما هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على أمراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

والإعجاز بكل واحد من النوعين السابقين : ١ – الإيجاز والبلاغة بذاتها . ٢ – والأسلوب الغريب بذاته – كل منهما نوع إعجاز على التحقيق .

وهذان الوجهان لازمان كل سورة وكل آية وبهما يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر . وبهما وقع التحدى والتعجيز .

الوجه الثالث : الإخبار عن الأمور التى تقدمت من نشأة الحياة إلى وقت نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم – وهو النبى الأمى الذى ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه . فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها . والقرون الخالية فى دهرها . وأجاب عن تحديات أهل الكتاب حين سألوه عن قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام . وحال ذى القرنين . وغير ذلك . فجاءهم بما عرفوا من الكتب الثابتة صحتها مع أنه أمى من أمة أمية ليس لها علم بذلك . ومع أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن مختلطاً بأهل الآثار والتاريخ . وحملة الأخبار . ولم يكن متردداً إلى المتعلم منهم .

فلم يبق سبب لعلمه بذلك كله إلا الوحى الذى أنزل عليه من ربه .

الوجه الرابع : الإخبار بالمغيبات فى المستقبل وهى التى لا يمكن الاطلاع عليها إلا بالوحى وهى التى أخبر عنها القرآن بأنها ستقع فوقعت كما أخبر ولم يتخلف منها شىء . من ذلك قوله تعالى :

[لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ] (١) .

---

(١) الفتح : ٢٧ .

ومنه قوله تعالى :

[غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ][1] .

ومنه قوله تعالى :

[هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً][2] .

ومنه قوله تعالى :

[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ][3] .

ومنه قوله تعالى :

[إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ][4] .

وكان المستهزئون نفراً بمكة ينفرون الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية بشر أصحابه بأن الله كفاه إياهم فهلكوا جميعهم .

ومنه قوله تعالى : [وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ][5] فحفظه الله وعصمه من كل من رام قتله والفتك به صلى الله عليه وسلم .

الوجه الخامس : الروعة التى تلحق قلوب سامعيه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته لقوة تأثيره ، وزيادة خطره .

ولذلك كان وقع القرآن على المكذبين أعظم وأخطر ، وكانوا يخشون تأثيره على أنفسهم ونسائهم وأولادهم ، وكانوا يقولون — خوفاً من تأثيره عليهم — :

---

(١) الروم : ٢، ٣، ٤ .

(٢) الفتح : ٢٨ .

(٣) الحجر : ٩ .

(٤) الحجر : ٩٥ .

(٥) المائدة : ٦٧ .

[لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ ، وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ][1]

وكان كبراؤهم يمنعون أتباعهم من الاستماع إلى القرآن الكريم ، كما يؤذون من يجهر بالقرآن من المسلمين ولو كان يقرأ فى فناء داره . والسيرة مليئة بالأمثلة الموضحة لذلك .

وأما المؤمنون فإن روعة كتاب الله تعالى وقوة تأثيره فى نفوسهم وهيبته فى قلوبهم جعلتهم يعشقون هذا الكتاب الإلهى ويهجرون ما سواه من أشعار وخطب ، ويعيشون مع القرآن الذى أخذ بمجامع قلوبهم ، واستولى على مشاعرهم ووجدانهم ، وأسر بروعته عقولهم ، وهذب بكماله نفوسهم ، ووصل بالله أرواحهم .

فهم من يوم أن عرفوه عشقوه ، وبمجرد أن قرأوه تمثلوه ، فصارت أحرفه نغماً عذباً فى أسماعهم ، وكلماته نوراً يتلألأ فى قلوبهم ، وأحكامه وحكمه دواء روحياً لأمراضهم ومتاعبهم .

وفى جوف الليل يسمع المار بأى بيت فيه مسلم دوياً عذباً حلواً مصدره قارئ يرتل كتاب الله ، وفى شعاب الجبال ووديانها بمكة أفراد هربوا فى جنح الظلام ليستمتعوا بتلاوة كتاب الله .

وسقطت سياط العذاب على رؤوس المسلمين وجسومهم فآلمت ومزقت ، وألقيت الصخور الحامية على صدور المؤمنين فأثقلت وعذبت ، ووضعت الأغلال فى الرقاب والقيود فى الأرجل فأنهكت وأتعبت .

ومع ذلك كله انتفضت القلوب المؤمنة بحب الله هون عليها كل عذاب ، وانطلقت ألسنة الموحدين باسم الله مخترقة كل حاجز وحجاب ، وتحملت عذاب الجبابرة فتيات ناعمات ، ونساء مرهفات ، وصبية أعوادهم رطبة كنبت الربيع . ما السر فى ذلك كله ؟ وما هو الروح الجديد الذى سرى فى دماء المؤمنين ؟ وما هو السحر الذى استولى على نفوس المسلمين ؟

---

(١) فصلت : ٢٦ .

إنه كتاب الله . الذى جعله الله يفعل ذلك كله وهو القائل فيه :

[اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ] (١)

وهو القائل :

[لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ] (٢).

الوجه السادس : كونه آية باقية ، ومعجزة خالدة لا يؤثر فيها مر السنين ولا يقلل من شأنها توالى الأحقاب إلى يوم القيامة .

وهو مع بقائه وخلوده تكفل الله بحفظه وصيانته فقال تعالى :

[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَا لَهُ لَحَافِظُونَ] (٣) .

وقال تعالى :

[وَإِنَّهُ لكِتَابٌ عَزِيزٌ . لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ] (٤) .

مع العلم بأن سائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها ، ولم يبق إلا خبرها ، أما القرآن الكريم فقد ظل باهرة آياته ؛ ظاهرة معجزاته ، سليمة حروفه وكلماته ، لم يستطع أحد تغيير حرف منه بآخر ، أو نقل كلمة عن مكانها ، أو آية إلى سورة غير سورتها ، ومن رام شيئاً من ذلك فضحه الله وكشفه وباءت بالفشل محاولاته ، ولقد مضى على نزوله أربعة

---

(١) الزمر : ٢٣ .
(٢) الحشر : ٢١ .
(٣) الحجر : ٩ .
(٤) فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

عشر قرناً ولا يزال غضاً طرياً معجزاً جميع البشر محفوظاً بحفظ الله من أى تحريف أو تبديل مع مروره خلال تلك القرون على أهل البيان ، وحملة علم اللسان ، وأئمة البلاغة ، وفرسان البراعة ، والملحد فيهم كثير . والمعادى للشرع عدد وفير ، فما منهم من أحد استطاع معارضته ، أو قدر على مطعن صحيح فيه ، وسيظل كذلك إلى يوم القيامة .

الوجه السابع : جمعه لعلوم ومعارف لا عهد للعرب بها عامة ، ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته خاصة بمعرفتها ، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم ، فقد جمع فى هذا الكتاب من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجج العقلية ، والرد على فرق الأمم ببراهين وأدلة بينة سهلة الألفاظ ، موجزة المقاصد .

كما حوى من علوم السير وأنباء الأمم والمواعظ والحكم ، محاسن الآداب والشيم ، وأخبار الدار الآخرة ، وأخبار وأحوال كثير من العالم الغيبى ، فلم يترك القرآن علماً إلا ذكره ، ولا فناً إلا نبه اليه ، ولا كمالا إلا حض عليه .

وسيظل القرآن بحر علوم وفنون لا ينفد ، ومنار هداية لمن استرشد ، وبرهان الحقائق ما كبر منها وما صغر وصدق الله القائل :

[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ][1] .

والقائل :

[وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ][2] .

وصدق صلى الله عليه وسلم إذ قال فى هذا القرآن : « إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً ، وسنة خالية ، ومثلا مضروباً ، فيه نبؤكم ،

---

(١) النحل : ٨٩ .
(٢) الزمر : ٢٧ .

وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ، الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه . . . وهذا الحديث بالموقوف أشبه .

الوجه الثامن : أن القرآن جمع بين الدليل ومدلوله .

وبيان ذلك أن الاحتجاج على أن القرآن من عند الله أثبت بنظم القرآن وحسن وصفه وإيجازه وبلاغته ، وأثناء قراءتك للقرآن للوقوف على بلاغته وفصاحته وجمال أسلوبه وبراعة إيجازه . يقابلك أمر القرآن ونهيه ، ووعده ووعيده ، فالقارىء للقرآن يفهم دليل إعجازه ، أدلة أحكامه وتكليفه معاً ، من كلام واحد ، وسورة منفردة .

الوجه التاسع : أن الله تعالى يسر حفظه لمن يريد تعلمه . قال تعالى :

[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ](1) .

فالقرآن ميسر حفظه للصغير والكبير ، وللرجل والمرأة ، فى أقرب مدة وأقل زمن ، لو قيس حفظه بحفظ أى شىء سواه .

وسائر الأمم لا يحفظ كتبها منهم أحد ، أما القرآن الكريم فيحفظه ، فى كل عصر مئات الألوف . ولذلك نقل القرآن الكريم من جيل إلى جيل عدد وفير حفظه فى الصدور ، وأحسن قراءته وترتيله ، ولقنه تلامذته وأتباعه ، وهذا التواتر السليم الصحيح الدقيق لم يحدث لكتاب غير القرآن . وذلك راجع إلى يسر حفظه وكثرة حفظته فى كل عصر .

الوجه العاشر : اشتمال القرآن على تشريع انتظم قانوناً عادلا مؤلفاً من مواد قليلة تتضمن أحكاماً كلية ، ومبادئ عامة فى كل الفروع وذلك مالم يحصل لغيره من الكتب السماوية : قال الله تعالى :

[وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً](2) .

---

(١) القمر : ١٧ .　　(٢) الإسراء : ١٢ .

الوجه الحادى عشر : يتضح لقارىء كتاب الله تعالى المتصل بالعلوم الإنسانية والكونية وغيرها أنه ما من حقيقة علمية يصل العقل البشرى إليها إلا ويجد لها أصلا فى كتاب الله تعالى عن طريق الإشارة أو العبارة .

اقرأ فى الدلالة على أن الأرض معلقة فى الفضاء قوله تعالى :

[خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ][1] .

والمعنى أن الله أوجد الجبال فى الأرض حتى تظل محتفظة بتوازنها فلا تميد (تميل) بمن عليها ، ولا يفهم حفظ التوازن بالنسبة للأرض إلا على أنه دليل على تعلقها فى الفضاء .

واقرأ فى علم الأجنة قوله تعالى :

[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ][2] .

وسبقت أمثلة كثيرة فى الأدلة على وجود الله تعالى .

وإذا قرأت المزيد من ذلك فاقرأ التفاسير والكتب التى اهتمت بهذا النوع من الدراسات لتؤمن إيماناً قوياً بروعة القرآن الكريم ، وبإعجازه الخالد ، ولكن حذار أن تظن أن القرآن أنزل ليكون كتاب علوم كونية وإنسانية من هذا النوع . إن القرآن أنزل ليكون هداية للناس من ضلال وتقويماً من انحراف ، وتيسيراً للوصول إلى الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة

---

(١) لقمان : ١٠ .
(٢) المؤمنون : ١٢، ١٣، ١٤ .

عن طريق علاج الإنسان من أمراضه النفسية والقلبية والخلقية ، وصبغه الصبغة التى تتفق مع تكريم الله له .

وهذا هو الهدف من القرآن الكريم كما ذكر فى غير آية منه ، وما ذكر فى القرآن من علوم وفنون وغيرهما فللوصول إلى الهدف المذكور ، وهذا موضوع تورط فيه كثيرون حتى إن بعضهم جعل همه كله شغل الناس بتفسير زعم أنه عصرى ولم يكن له علم بأصول التفسير وموازينه الدقيقة فأخطأ كثيراً وأصاب قليلا وصرف الناس عن الهدف إلى الوسيلة فغفر الله له ورحمه .

ما اختص الله به محمداً صلى الله عليه وسلم دون المرسلين

لقد اختص الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم دون غيره من الرسل بأمور كثيرة وردت الأدلة الصحيحة بها ونوجز أهمها فيما يلي :

أولا : عموم رسـالته :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون تكليف الناس والتشريع لهم حسب استعدادهم ونضجهم وتقدمهم أو تأخرهم علمياً وفكرياً واجتماعياً ، وحسب الظروف والأحوال التى يعيشون فيها ويتأثرون بها ليكون الغذاء النفسى كالغذاء الحسى ملائماً ومفيداً .

لذلك كان الله تعالى يرسل إلى كل أمة رسولا يصلح من شأنها ويبلغها الشرع الذى يناسبها . ولم تعم رسالة قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يكن قد ارتقى قبله إلى المستوى الذى يشعر فيه بالحاجة إلى تشريع وقانون عام يجمعه تحت راية واحدة .

ولما جاء وقت الرسالة المحمدية كان المجتمع البشرى قد بلغ أشده واستوى فكرياً واجتماعياً وسياسياً ، وصار جمعه على تشريع واحد ممكناً وميسوراً . لذلك أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة سواء أكانوا عرباً أم غير عرب ، وثنيين أم أهل كتاب ، لهم دين أم لا دين لهم على الإطلاق .

كما جعله الله تعالى رسولا إلى الجن بنفس الشرع الذى جاء به إلى الإنس مع مراعاة طبائعهم وأحوالهم . وجعل رسالته ناسخة لجميع الرسالات قبله ، فلايحق لأحد بلغته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يدين بغير دينه .

قال تعالى :

[قُلْ يـاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً][1]

وقال تعالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ][2] .

قال ابن عباس فى هذه الآية : إن الله تعالى فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء .

قالوا : فيم فضله الله على جميع الأنبياء ؟ قال : إن الله تعالى قال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ... فأرسله الله إلى الجن والأنس .

وقال تعالى :

[وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ][3] .

وجاء فى الحديث المتفق عليه : عن جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .
(٢) سبأ : ٢٨ .
(٣) الأحقاف : ٢٩ .

ثانياً : خاتم النبيين والمرسلين :

جاءت الشريعة الإسلامية وقت اكتمال الإنسان فى الإدراك ، وتفهم المصالح والمنافع ، فاقتضت حكمة الله تعالى أن تكون هذه الشريعة صالحة لجميع البشر فى كل زمان ومكان ، كفيلة بإسعاد المجتمع العالمى كله إذا أخذ بها ؛ لأنها عالجت جميع احتياجاته ، ووضعت الحلول لجميع مشكلاته إما عن طريق التفصيل وإما عن طريق الإجمال وترك التفصيل للعقل البشرى يتصرف فيه حسب موازين الشرع وأصوله . . قال تعالى :

[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ][1] .

لذلك أصبحت البشرية بعد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليها ونزول القرآن الكريم ليكون هادياً لها وتشريعاً حريصاً على سعادتها غير محتاجة إلى نبى أو رسول غيره ، إنها محتاجة فقط إلى أن تجتهد فيما يحدث من أمور لا نص فيها . وقد أعطاها القرآن حق الاجتهاد اعترافاً منه ببلوغها رشدها فقال تعالى :

[وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ][2] .

ومن أجل هذا أعلن القرآن أن النبوة قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا نبى بعده وبالتالى فلا رسول بعده لأن نفى النبوة نفى للرسالة كما مر . قال تعالى :

[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ][3] .

---

(١) النمل : ٨٩ .
(٢) النساء : ٨٣ .
(٣) الأحزاب : ٤٠ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »(١) .

ثالثاً : نصره الله بالرعب وبينه وبين عدوه مسيرة شهر بسير الإبل ؛ لأنها كانت وسيلة المواصلات البعيدة يومئذ ، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدة على ذلك .

رابعاً : جعل الله له ولأمته الأرض مسجداً وطهوراً فأى رجل من أمته تدركه الصلاة فى أى موضع فالموضع مسجده الذى يصلى فيه ، وهو طهوره الذى يتيمم عليه إن لم يجد ماء يتوضأ به . فلا حرج ولا عسر ولا تضييق ولا اشتراط لمكان معين .

خامساً : أحل الله الغنائم له ولأمته صلى الله عليه وسلم . . والغنائم : ما يؤخذ من الكفار عقب الجهاد والنصر من متاع وسلاح ومال وغيرها ، وكانت هذه الغنائم محرمة على الأمم السابقة ولم تحل إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

سادساً : أعطاه الله الشفاعة العظمى يوم القيامة، وهى التى يحمده عليها الأولون والآخرون ، وسيأتى ذكرها .

سابعاً : جعله الله تعالى أفضل المرسلين : ومبدأ تفضيل الله بعض الرسل على بعض مقرر فى كتاب الله تعالى . قال تعالى :

[تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ](٢) .

وقال تعالى :

[وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ](٣) .

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) البقرة : ٢٥٣ .
(٣) الإسراء : ٥٥ .

وأما دليل تفضيله صلى الله عليه وسلم على غيره من المرسلين فهو من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال تعـــالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ][1] .

وقال تعالى :

[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ][2] .

قال ابن كثير فى هذه الآية : وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطـه نبي قبله ولا رسول من الرسل .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى : آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأنا أول شافع وأول مشفع » (٣) .

الإيمـان بكتب الله تعـــالى

يجب الإيمان والاعتقاد الجازم بأن الله تعالى أنزل على رسله كتباً فيها أمره ونهيه ووعده ووعيده وما شاء من كلم الله تعالى . وأفضل هذه الكتب على الإطلاق القرآن الكريم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويليه فى الفضل التوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، ثم الإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام ثم الزبور : وهو كتاب داود عليه السلام .

كما يؤمن بأن الله أنزل صحفاً .. المذكور منها فى القرآن صحف إبراهيم وموسى . قال تعـــالى :

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .
(٢) آل عمران : ١١٠ .
(٣) أخرجه أحمد وابن ماجة وقال صحيح .

[يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً][1] .

وحديث جبريل فى الإيمان والإسلام والإحسان معروف .

ويجب الإيمان بأن الكتب السابقة حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل . أما القرآن الكريم فهو كتاب محفوظ لم يغير فيه حرف واحد كما سبق .

وذلك أن الكتب السابقة وُكِّلَ حفظها إلى أهلها فلم يحفظوها ، أما القرآن الكريم فإن الله تعالى هو الذى تولى حفظه .

قال تعالى فى شأن التوراة :

[إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ][2] .

وقال تعالى فى القرآن :

[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ][3] .

---

(١) النساء : ١٣٦ .
(٢) المائدة : ٤٤ .
(٣) الحجر : ٩ .

الـــــوحى

الوحى هو الصلة بين الله تعالى وبين رسله وأنبيائه كى يوصل الله تعالى إليهم ما يريد إيصاله من علم وحكم وأمر ونهى وإرشاد وغير ذلك .

قال تعـــالى :

[إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ](1) .

وقال تعـــالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ](2)

وقال تعـــالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ](3) .

أصـــل معنى الوحى

معنى الوحى يطلق على التفهيم وعلى الإعلام بالشىء فى خفاء سواء كان هذا التفهيم والإعلام بكلام أم بكتابة أم بإشارة أم بإلهـــام أم برؤيا .

ومن الوحى بالإشارة قوله تعالى فى شأن زكريا عليه السلام :

[فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا](4)

---

(١) النساء : ١٦٣ .

(٢) الأنبياء : ٧ .

(٣) الأنبياء : ٢٥ .

(٤) مريم : ١١ .

ومن الوحى بالإلهـام قوله تعالى :

[وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ][1] .

ومعنى الوحى فى اصطلاح أهل الشرع : كلام الله المنزل على نبى من أنبيائه .

أنواع وحى الله تعالى إلى أنبيائه

الله تعالى حين يكلم نبياً من أنبيائه بوحى فإنما يكلمه بأحد الأنواع الآتية:

١ – يكلمه عن طريق الوحى : والمراد به هنا الإلهـام فى اليقظة أو فى النوم . قال صلى الله عليه وسلم : «إن روح القدس نفث فى روعى(٢) أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب» . وهذا الإلهـام فى اليقظة . وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام :

[إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى][3]

وأول الوحى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان فى المنام مدة ستة أشهر .

٢ – أو يكلم الله تعـالى نبيه من وراء حجاب . قال تعالى :

[وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا][4] .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر رضى الله عنه : «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإن الله كلم أباك كفاحاً» : أى من غير حجاب .

٣ – أو يرسل الله رسولا من الملائكة كجبريل عليه السلام ليبلغ النبى كلام الله تعالى : وهذا هو الغالب .

---

(١) القصص : ٧ .

(٢) الروع بضم الراء : القلب والعقل .

(٣) الصـافات : ١٠٢ .

(٤) النسـاء : ١٦٤ .

قال تعالى مبيناً أن الأنواع الثلاثة السابقة هى الوسائل لتكليمه أنبياءه :

[وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ] (١) .

وكيفية مجىء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نعلم عنها إلا أنه :

١ - كان يأتيه أحياناً على صورة رجل كما جاء فى حديث الإيمان والإسلام والإحسان .

٢ - وأحياناً كثيرة كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ودقاته المتتابعة بهيئة وصورة لا نعلمها ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا عنها .

٣ - وظهر جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء .

بذلك وردت الأدلة ولا مجال للإطالة بذكرها وذكر أقوال العلماء فيها .

---

(١) الشورى : ٥١ .

الأولياء

من فضل الله على عباده ورحمته بهم ورعايته لهم أن فتح للمؤمنين أتباع المرسلين أبواب الترقى فى الكمالات إلى آفاق بعيدة جداً لا يحدها إلا مقام الرسالة وحدودها ، فكلما جاهد الإنسان نفسه وأكثر من عبادة ربه وتخلص من أمراض القلب وأهواء النفس ونزعات الشيطان وإخوان السوء وظلمات المعاصى زاد إحساسه وشعوره بصفاء نفسه وإشراق قلبه ونشوة روحه وجمال حياته وزيادة معارفه ؛ ذلك أن الفيوضات الإلهية لا تغزو إلا القلوب الربانية ، والرحمات الربانية قريبة من النفوس النورانية .

قال تعالى :

[إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ](1) .

وقال تعالى :

[وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ . . .](2) .

وهؤلاء الذين يؤمنون بالله إيماناً صادقاً ويواظبون على الطاعات ويجتنبون المعاصى والانهماك فى الملذات والشهوات المباحة ، ويعملون بالسنن والآداب الشرعية ما استطاعوا يسمون فى عرف الشرع — الأولياء —

---

(1) الأعراف : ٥٦ .

(2) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

تعريف الولى

الولى شرعاً : هو العارف بالله وبصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعة المجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات المباحة المحافظ على السنن والآداب الشرعية قدر الاستطاعة .

وسمى ولياً ؛ لأنه يتولى عبادة الله على الدوام ، أو لأن الله تعالى تولاه برحمته ولطفه وعنايته .

قال تعـــالى :

[أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١)] .

فالولى فى الآية تولى عبادة الله بالإيمان والتقوى .

وتولاه الله تعالى برفع الخوف والحزن عنه وبإدخال السرور عليه بما يبشره به من الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة .

والحديث القدسي يوضح نفس المعنى ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب(٢) وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه(٣) الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » رواه البخارى .

---

(١) يونس : ٦٢،٦٣،٦٤ .

(٢) آذنته : أعلمته والمراد انتقمت للولى ممن آذاه .

(٣) معنى كنت سمعه و بصره الخ ... أى وفقته للزيادة فى الطاعة .

ومما يبشر به الأوليـــاء فى الدنيا الرؤيا الصالحة الحسنة يراها الرجل الصالح أو تُرَى له .

ومن ذلك الكرامة يكرمهم الله بها ويتفضل بها عليهم .

تعريف الـــكرامة

الـكرامة : هى أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد عبد صالح غير مدع للرسالة . وهى من الأمور الجائزة عقلا والواقعة فعلا .

جاء بها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الصحيحة ، كما جاءت بها الأخبار الكثيرة المستفيضة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يومنا هذا .

أما الدليل من القرآن فاقرأ قصة مريم الصديقة حيث وجد عندها الرزق بلا سبب ، وحملت بعيسى عليه السلام بدون ملامسة رجل ، وتساقط عليها الرطب من النخلة اليابسة ، وأنطق الله لهـا وليدها فى المهد صبياً .

واقرأ قصة أهـــل الكهف حيث مكثوا فى الغار ثلثمائة وتسع سنين تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال .

ومنها عرش بلقيس ، فقد أحضره الذى عنده علم من الكتاب قبل أن يرتد طرف سليمان إليه . واقرأ فى الحديث قصة الثلاثة الذين آواهم غار ، وقصة جريج العابد وغيرهما ، وتجد الكثير من الكرامات للصحابة ومن بعدهم ، فاقرأ السير والتراجم وكتب الصفوة إن أردت المزيد .

والواجب عليك هو اعتقاد وقوع الكرامة ، وليس عليك أن تعتقد كرامة معينة لشخص إلا أن يأتى بذلك دليل من الكتاب أو السنة وكذلك الشأن فى الولى .

تحـــذير

إذا عرفت معنى الولى ومعنى الكرامة ، ووعيتهما وعياً سليما استطعت أن تفرق بسهولة بين من يمكن أن يكون ولياً ومن يمكن أن يكون دجالا نصاباً كذاباً .

فقد يستطيع بعض الدجالين بألاعيبهم وألاعيب أشياعهم أن يوهموا بعض الأغرار من الناس بأنهم أولياء وبأن لهم كرامات ؛ ليأكلوا بذلك أموال الناس بالباطل ، أو ليحتفظوا لأنفسهم بمكانة معينة عند الناس ، وهؤلاء كثيرون جداً وهم يجيدون حَبك مظاهرهم بأساليب عديدة ويوهمون الأغرار . كثيراً بأن من يعترض عليهم يؤذى فى نفسه وأولاده وماله . كذباً وافتراء وتحايلا ؛ ولذلك حذر العلماء المحققون وكبار الصالحين من هؤلاء الناس فقالوا : إذا رأيت رجلا يطير فى الهواء أو يمشى على الماء أو يقطع المسافة البعيدة فى طرفة عين فلا تغتر به . بل اعرضه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فان وجدته ملتزماً به متأدباً مع الله ، يشهد تاريخه بذلك فهو ولى وإلا فهو شيطان فى صورة آدمى أو آدمى فى جوفه شيطان . أعاذنا الله وحفظنا ورعانا .

السمعيات

معناها — مصدرها

هذا هو القسم الثالث من أقسام علم التوحيد الثلاثة : الإلهيات — النبوات السمعيات وتسمى الغيبيات أيضاً :

وسميت مباحثه بالسمعيات ، لأنه لا طريق لمعرفتها إلا الكتاب والسنة : والأصل فى وصولها إلينا السماع فقط أو مع القراءة .

فلا دخل للعقل فى الوصول إلى ما يذكر فى هذا القسم ويجب الإيمان به كالملائكة والجن والأرواح واليوم الآخر والجنة والنار إلا بالفهم عن الكتاب والسنة الصحيحة . أما تسميتها بالغيبيات فلأنها أمور غائبة عنا ولا أثر لها فى حياتنا يدلنا عليها دلالة قطعية .

ونحن فيما سبق اقتنعنا وآمنا بوجود الله تعالى بأدلة قطعية يقينية

وآمنا بوجود صفات الله تعالى بأدلة قطعية يقينية .

وآمنا برسل الله تعالى وصفاتهم بأدلة قطعية يقينية .

وآمنا بكتب الله تعالى التى أنزلها على رسله بأدلة قطعية يقينية .

نحن ملزمون نتيجة هذا الإيمان بالله وصفاته ورسله وكتبه أن نؤمن بما جاء فى الكتاب الذى أنزله الله تعالى على رسولنا من أجلنا ، وأن نعمل بما جاء فيه ، وهذا الكتاب نصوصه كلها (حروفه وكلماته وآياته وسوره) وردت إلينا بدليل قطعى ، والذى ينكر شيئاً مما ورد عن الله بدليل قطعى يكفر بسبب هذا الانكار .

وأما معانى كتاب الله تعالى فنها ما هو قطعى لم يختلف فيه العلماء بل أجمعوا كلهم عليه ، وهذا إنكاره كفر أيضاً ، مثل قوله تعالى : « قل هو الله أحــد » .

ومنها ما هو ظنى لم يتفق عليه العلماء ، بل اختلفوا فيه فلك أن تأخذ برأى أى منهم ما دام هذا الرأى متفقاً مع اللغة ومع الأصول والموازين الإسلامية .

وذلك مثل قوله تعالى :

[وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ](1).

فإن القرء فى اللغة يطلق على دم الحيض كما يطلق على الطهر منه ، لذلك اختلف الفقهاء فيه وفى الأحكام المترتبة عليه .

كما أنه يجب الإيمان بأن رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم بين لنا كتاب الله ، وأوضح شرعه ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ](2) .

كما يجب الإيمان بأننا مكلفون بالأخذ بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبية لقوله تعـالى :

[وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ](3) .

وهنا يقال : إن ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأحاديث : إن كان متواتراً مقطوعاً به فإن الإيمان به واجب ، وإلا كان كفراً : ويقال فى نصه ومعناه ما قيل فى القرآن .

وإذا لم يكن الحديث متواتراً فإن إنكاره ليس كفراً ، وإنما هو فسق إذا كان الحديث مجمعاً على صحته : والعمل بهذه الأحاديث واجب ، وعليها بنى أكثر الأحكام الفقهية ، غير أن هذه الأحكام المأخوذة من الأحاديث

---

(1) البقرة : ٢٢٨ .
(2) النحل : ٤٤ .
(3) الحشر : ٧ .

منها الواجب ومنها السنة ، ومنها الحرام ، ومنها المكروه ، ومنها المباح ، وكذلك الأحكام المأخوذة من القرآن أو منهما معاً .

وبناء على هذا نستطيع أن نفهم ، لماذا قلنا : إن العقائد الإسلامية مصدرها الأدلة القطعية « العقل ، الكتاب ، السنة المتواترة » .

فإنه صار واضحاً أن العقائد يترتب عليها الإيمان أو الكفر ، وهما أخطر وصفين يوصف الإنسان بهما ، ويترتب عليهما مصيره ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، ونستطيع أن ندرك الآن أن السمعيات التى سنذكرها فيما يأتى ، ويجب الإيمان بها ثابتة بأدلة قطعية من كتاب الله تعالى ، ولا يوجد دليل عقلى يمنع من وقوعها ، بل هى داخلة فى الأمور الجائزة عقلا ؛ لأنها أثر لقدرة الله تعالى وإرادته وعلمه ، وإليك بيانها :

الملائكة

يجب على كل مكلف شرعاً الإيمان بالملائكة :

وذلك بأن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنهم موجودون .

وبأنهم مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

وبأنهم قادرون على التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة .

وهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة : فمن قال إنهم إناث كفر ، ومن قال إنهم ذكور فسق أى « ارتكب معصية صار بها فاسقاً » وهم لا يتزوجون ، ولا يأكلون ولا يشربون ، ولا ينامون ، وهم أنواع كثيرة : فمنهم حملة العرش ومنهم رسل الوحى ، ومنهم الكتبة ، والحفظة ، والموكلون بقبض الأرواح ، ورئيسهم ملك الموت ، والموكلون بالأرزاق ، ورئيسهم ميكائيل ، والموكلون بالجنة ورئيسهم رضوان ، والموكلون بالنار ورئيسهم مالك ، ومنهم القائمان بالسؤال فى القبر ، ومنهم ملائكة ذكرت أسماؤهم

فى كتاب الله تعالى ، وهم جبريل ، وميكائيل ومالك . فالواجب علينا بالنسبة لمن ذكر بنوعه أن نصدق بالنوع الذى ذكر كحملة العرش وغيرهم ، ومن ذكر بشخصه وجب علينا التصديق بشخصه كجبريل وميكائيل ومالك.

والأدلة على ما ذكر أدلة قطعية من كتاب الله تعالى ، ومعانيها لا تحتمل غير ما ذكر .

الدليل على وجود الملائكة ، ووجوب الإيمان بهم

قال تعـــالى :

[وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً][1] .

وقال تعـــالى :

[آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ][2] .

وفى وصفهم :

قال الله تعـــالى :

[وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقونَهُ بِالْقَوْلِ . وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى * وَهم مِّنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ][3] .

---

(١) النساء آية : ١٣٦ .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) الأنبياء آيات : ٢٦،٢٧،٢٨ .

وقال تعـــالى :

[وَلَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ][1] .

فهم لا ينامون ولا يكسلون عن عبادة الله أبداً .

وفى تشكلهم بالأشكال الحسنة :

قال تعـــالى فى الذين نزلوا فى صور آدميين حسان الوجوه شبان على سيدنا لوط عليه السلام :

[قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ][2] .

وقال تعالى فى الملك الذى أرسله إلى الصديقة مريم ليبشرها بحملها بعيسى عليه الســـلام :

[فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا][3] .

وأنكر الله على الكفار وصفهم الملائكة بالأنوثة ، وتوعدهم على ذلك .

قال تعـــالى :

[وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ][4] .

وأما المنع من وصفهم بالذكورة فسببه أن الله تعالى لم يصفهم بذلك ، فالذى يصفهم بذلك يعتبر كاذباً مفترياً ، وبناء على عدم جواز وصفهم بالذكورة أو الأنوثة يجب الاعتقاد بأنهم لا يتزوجون ، ولا يتناسلون .

---

(١) الأنبياء آية : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) هـود : ٨١ .

(٣) مريم : ١٧ .

(٤) الزخرف : ١٩ .

ومن الافتراء على الله تعالى أيضاً القول بأنهم يأكلون أو يشربون ، فإن أمرهم غيبي لا يعلمه إلا الله ، ولا يجوز لنا أن نصفهم إلا بما وصفهم الله به ، لا نزيد ولا ننقص .

وفي حملة العرش قال تعالى :

[الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا][1] .

وفي الكتبة الذين يكتبون الحسنات والسيئات :

قال تعالى :

[وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ][2] .

وفي الحفظة الذين يحفظون الإنسان من كل شر سوى ما قدر عليه :

قال تعالى :

[لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ][3] .

أي للإنسان ملائكة يتناوبون حفظه من بين يديه ومن خلفه ، أمرهم الله بذلك وقد فصل الحديث مدة نوبتهم فقال صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم — وهو أعلم بهم — كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون . وأتيناهم وهم يصلون » رواه الشيخان والنسائي .

---

(١) غافر : ٧ .

(٢) الانفطار : ١٠، ١١، ١٢ .

(٣) الرعد : ١١ .

وفى ملك الموت قال تعالى :

[قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ][1].

وفى أعوانه قال تعـالى :

[حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ][2] .

والآيات فى خزنة الجنة ، وخزنة النار وغيرهم من الأنواع كثيرة فى كتاب الله تعالى فارجع إليها إن شئت .

وفى ذكر جبرائيل وميكائيل ومالك

قال تعـالى :

[مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ][3] .

وقال تعـالى :

[وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ][4] .

حكم إنكار الملائكة

دل على وجود الملائكة الكتاب والسنة والإجماع فمنكر وجودهم كافر .

من أى شىء خلقوا وما حقيقتهم ؟

ورد فى حديث صحيح أنهم خلقوا من نور .

---

(١) السجدة : ١١ .
(٢) الأنعام : ٦١ .
(٣) البقرة : ٩٨ .
(٤) الزخرف : ٧٧ .

فعن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور . وخلق الجان من مارج من نار . وخلق آدم مما وصف لكم » رواه أحمد والنسائى . أما حقيقتهم فالله أعلم بها . لأن القرآن والسنة لم يذكرا شيئاً عن حقيقتهم وكل ما ذكر أن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وورد أن جبريل له ستمائة جناح كما ثبت بالدليل القطعى أنهم أقوياء جداً فهم الذين حملوا قرى قوم لوط وقلبوها .

ومنهم حملة العرش وبصيحة من ملك هلك قوم صالح . وبنفخة فى الصور من الملك يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . وبنفخة أخرى يبعث الخلائق أجمعون .

وبالجملة فالملائكة عالم خلقه الله تعالى على حقيقة يعلمها الله .

وهذا العالم من الملائكة ينفذ أوامر الله تنفيذاً دقيقاً فهو أشبه بالإدارة الربانية التى تتلقى الأوامر من الله لتنفيذها . وهذه الإدارة مكانها السماء ، فهى مسكن الملائكة .

وليس الله تعالى فى حاجة إليهم ولا إلى غيرهم . لأنه تعالى غنى عن كل ما سواه ، لكنه تعالى كما قال :

[وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ][1]

وكما قال تعالى :

[فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ][2] .

فالعالم كله عالمه وهو تعالى مدبر أمره ، والأعلم بشأنه . ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ولا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء .

عصمة الملائكة

قول جمهور العلماء – وهو الحق الذى تدل عليه الآيات السابقة – أن الملائكة معصومون من الذنوب ومخالفة الله تعالى فى أى أمر ، وما ورد فى القرآن مما يوهم غير ذلك يجب حمله على الوجه المناسب لعصمتهم .

---

(١) القصص : ٦٨ .

(٢) البروج : ١٦ .

فمن اعترض بأن إبليس كان من الملائكة فعصى : أجيب بأن الله وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، وقد ذكر القرآن أن إبليس كان من الجن كما استثنى من الملائكة وذلك يدل على أنه منهم .

والتوفيق السليم أن يقال : إن إبليس كان من الجن حقيقة ، وكان من الملائكة حكماً ، أى إنه لشدة عبادته وبعده عن المخالفة أول الأمر كان شبيهاً بالملائكة فأخذ حكمهم .

ومن اعترض بقول الملائكة لله فى آدم قبل خلقه :

[أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ][1] .

أجيب بأن الملائكة لم ترد بهذا القول غيبة آدم ولا تزكية أنفسهم ولا الظن السيء كما قد يتوهم . إنما أرادوا السؤال عن الحكمة فى خلق آدم فى الأرض . وكانوا قد علموا عن الله تعالى ما يحصل من ذريته من الإفساد ، أو كان قولهم سببه أن الأرض كانت مسكونة قبل آدم بمخلوقات أفسدت وسفكت الدماء .

ومن اعترض بأن هاروت وماروت كانا ملكين فعلما الناس السحر ، وتعلم السحر للسحر لعصية : أجيب بأن هاروت وماروت قيل إنهما كانا ملكين بكسر اللام ، وقرئ بذلك ، وحينئذ فلا إشكال لأنهما آدميان ، والقول الثانى أنهما نزلا بأمر الله فى زمن كثر فيه السحر والسحرة ودعوى السحرة أنهم أنبياء ، لأنهم يأتون بأمور خارقة للعادة فنزل الملكان فى صورة بشر وعلما الناس علم السحر حتى يكذبوا السحرة فى ادعائهم النبوة ، وتعلم السحر للتوقى من ضرره غير محظور وغير ممنوع . بل قد يكون مطلوباً وبهذا تثبت عصمة الملائكة ، وتسقط الاعتراضات الموجهة إليهم .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) الجن والشياطين

الجن : هم عالم من العوالم الغيبية ، لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى .

دليل ثبوتهم الكتاب والسنة وإجماع العلماء .

قال تعـــالى :

[وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فلمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ][١] .

وهم لا يرون على حقيقتهم .

قال تعـــالى :

[إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ][٢] .

منهم المؤمنون ومنهم الكافرون والفاسقون .

قال تعالى في شأن الجن حاكياً قولهم عن أنفسهم .

[وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ، وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ[٣] قِدَداً][٤] .

ومن ذلك ندرك أنهم مكلفون كالإنس وأنهم مجازون مثلهم . قال تعالى حاكياً قولهم :

[وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[٥] ، فَمَنْ أَسْلَمَ

---

(١) الأحقاف : ٢٩ .

(٢) الأعراف : ٢٧ .

(٣) أي كنا أدياناً مختلفة .

(٤) الجـــن : ١١ .

(٥) الظالمون الكافرون .

فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً][1] .

واقرأ سورة الرحمن يتضح لك ذلك أكثر وأكثر .

منهم الشياطين ومنهم العفاريت .

قال تعـــالى :

[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً][2]

فذكرت الآية أن الشياطين تكون من الإنس ومن الجن .

وقال تعـــالى :

[قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ][3] .

لطيفة

قال ابن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان منزلون على مراتب ، فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا : جنى ، فإن أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا : عامر والجمع عُمـــَّار ، فإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا أرواح ، فإن خبث وتعزم (أى تمرد) قالوا شيطان ، فإن زاد على ذلك (أى فى الإيذاء) قالوا : مارد ، فإن زاد على ذلك وقوى فهو عفريت والجمع عفاريت ، والله تعالى أعلم بالصواب(٤). والشيطان : — كما يؤخذ من الكتاب والسنة — لفظ يطلق على كل متمرد فاسق فاجر يدعو إلى عصيان

---

(١) الجن : ١٤، ١٥ .

(٢) الأنعام : ١١٢ .

(٣) النمل : ٣٩ .

(٤) آكام المرجان فى أحكام الجان للشبلى .

الله . وقد اختلف العلماء فى الفرق بين الجن والشياطين . فهناك رأى يقول : هما جنس واحد ، ويطلق الشيطان على المتمرد من الجن وهو الأرجح الذى تدل الأدلة عليه كما سبق بعضها . وعلى هذا رأى جمهور العلماء . وهناك رأى يقول : إن الحقيقتين متغايرتان . فالجن أجسام هوائية لطيفة تتشكل بالأشكال المختلفة ، وتظهر منها الأفعال العجيبة ، ومنهم المؤمن والكافر .

أما الشياطين فهى أجسام نارية شأنها إضلال الناس وإلقاؤهم فى الغواية والهلاك .

من أى شىء خلق الجن ؟ وما حقيقتهم ؟

خلق الجن من النار التى لهبها خالص من الدخان وصاف منه .

قال تعالى :

[وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِن نَّارٍ][1] .

وقال تعالى :

[والْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ][2] .

وقد مر حديث عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » أخرجه أحمد ومسلم .

وأما حقيقتهم التى خلقوا عليها فالله أعلم بها ؛ لأنه لم يرد ما يدل عليها . ولكن العلماء استنبطوا من الأدلة الصحيحة الكثيرة التى مر بعضها وسيأتى بعضها « أن الجن أجسام نارية تتشكل بالأشكال الحسنة والأشكال القبيحة ، وأنهم يعقلون ، ويأكلون ويشربون ، وينامون ، ويتزوجون ، ويتناسلون ، وأن منهم الطائع ، ومنهم العاصى كما سبق ، غير أن الشيطان منهم لا يطلق إلا على العصاة المردة المؤذين .

---

(١) الرحمن : ١٥ .

(٢) الحجر : ٢٧ .

وقد سمعت الجن النبي صلى الله عليه وسلم بدون أن يراهم أول مرة وفى هذه المرة نزل قوله تعالى :

[وإذ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ] الآيات .

وجاء داعيهم إليه بعد ذلك فذهب صلى الله عليه وسلم إليهم ووعظهم وعلمهم ، لأنه مرسل إليهم كما سبق .

قال علقمة : قلت لابن مسعود : هل صحب النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ قال ما صحبه منا أحد ، ولكن افتقدناه ذات ليلة وهو بمكة ، فقلنا اغتيل(١) أو استطير ما فعل به ؟ فبتنا بشر ليلة بات بها قوم حتى إذا أصبحنا أو كان وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء . قال : فذكروا له الذى كانوا فيه . فقال : أتانى داعى الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم ، فانطلق فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد ، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم . فقال صلى الله عليه وسلم : فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وقال حسن صحيح فالحديث يدل على اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ورؤيته لهم ودعوتهم إلى الله ووعظهم بالقرآن ، كما يدل على أنهم يأكلون ويشربون ، ويدل على ذلك أيضاً الحديث الآتى : روى مسلم وأبو داود ومالك والترمذى من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها . أما تزاوج الجن وتوالدهم فيدل عليهما قوله تعالى فى وصف حور الجنة :

[لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ](٢) .

---

(١) اغتيل : مبنى للمجهول - أى قتل سراً ، واستطير - بصيغة المجهول - أى طارت به الجن حسب اعتقادهم فى الجاهلية .

(٢) الرحمن : ٧٤ .

أى لم يلمس الحور العين أحد من الإنس والجن قبل أزواجهم من أهل الجنة : وهذا دليل على أن للجن اتصالا جنسياً كما للأنس .

وقال تعالى فى شأن إبليس وجنوده :

[أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً][1] .

والآية تدل على أنهم يتوالدون وأن لهم ذرية كذرية الإنسان .

هل كان فى الجن نبى منهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

عرفنا فيما سبق أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم كانت بعثته عامة إلى جميع الإنس والجن ، ولكن العلماء اختلفوا فى الرسل الذين كانوا يرسلون إلى الجن قبل ذلك : هل كانوا من الإنس أم من الجن ؟ فجمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول . ولم تكن الرسالة إلا من الإنس ونقل معنى هذا عن ابن عباس وابن جريج ومجاهد والكلبى وأبى عبيد والواحدى . وقال الضحاك وابن حزم وغيرهما : لم يرسل إلى الجن قبل محمد صلى الله عليه وسلم رسول من الإنس .

قال ابن حزم : وباليقين ندرى أنهم قد أنذروا ، فصح أنهم جاءهم أنبياء منهم ، قال الله تعالى :

[يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا][2] .

وقال : لم يبعث إلى الجن نبى من الإنس قبل محمد صلى الله عليه

---

(١) الكهف : ٥٠ .
(٢) الأنعام : ١٣٠ .

وسلم ، لأنه ليس الجن من قوم الإنس ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وقد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة . والناس تشمل الإنس والجن فى اللغة .

صلة الجن بالإنسان

إن اتصال الجن بالإنس ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة ، غير أنه اتصال من نوع خاص ، فهو ليس كاتصال الإنس بالإنس ، لأن الجن كما عرفنا عالم غيبي يرانا ولا نراه ، وليس اتصال المشاركة فى الآلام والآمال ، والمتاعب والمشاكل ، والسلم والحرب ، والأمن والخوف ، كما هو الشأن بالنسبة للصلة بين الإنسان والإنسان إنما هو اتصال من نوع خاص يناسب طبيعة كل منهما وفى الحدود التى رسمتها سنن الله تعالى وقوانينه الكونية والشرعية .

فالجن موجودون فى كل مكان يكون فيه إنسى ، ويحضرون أكله وشربه ومآدبه ومجالسه لا يفارقونه أبداً إلا أن يحجزهم بذكر اسم الله تعالى .

والجن مسلطون على الإنس بالوسوسة والإغواء والإضلال ، وأحياناً بالتمثل والتشبه بأشياء تزيد من إضلالهم للإنس وتكفيرهم ، وأحياناً يلبسون جسم الإنسان ، ويعيشون فيه بكيفية لا يعلمها إلا الله تعالى ، فيصاب الإنسان عن طريقهم بمرض من الأمراض كالصرع والجنون والتشنج وغير ذلك . وكل ذلك بقدر الله ، كما يصاب الإنسان بغير ذلك من الأمراض والمصائب بسبب الإنسان . وقد يسرق لصوصهم أموال الإنسان ، وقد يكسر المشاغبون منهم الأوانى والأشياء الثمينة ، كما يظهر أحدهم للإنسان فى صورة إنسان ليضله أو يوقعه فى مهلكة كبئر أو نهر أو نار .

والخلاصة : أنهم يتشكلون بالأشكال المختلفة التى عن طريقها يحاولون الإضرار بالإنسان أو نفعه . كما أن شياطينهم مسلطون بالوسوسة للإنسان ، للإغواء والإضلال ، فهم مضرون ظاهراً وباطناً . غير أنه لا يضر منهم إلا الكافرون أو الفاسقون ، أما الصالحون منهم فشأنهم شأن صالحى

الإنسان ، لا يفعلون إلا الخير ، ولا يسعون إلا فيه . والله سبحانه وتعالى من فضله ورحمته أعطى الإنسان السر الذى به يفسد على الجن وسوستهم ، ويحفظ نفسه من أضرارهم وأذاهم .

فالإيمان الصادق عصمة لصاحبه من تسلط الشيطان عليه إلى النهاية .

قال تعـــالى :

[إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، والَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ](١) .

وذكر اسم الله يحجبهم عن الإنسان ويمنعهم من إيذائه كما سيأتى .

وقد كتب فى موضوع الجن ، وكل ما يتصل بهم وبصلتهم بالإنسان ابن تيمية فى الفتاوى وابن القيم فى كتاب « لقط المرجان فى أحكام الجان » والقاضى بدر الدين الشبلى الحنفى فى كتابه « آكام المرجان فى غرائب الأخبار وأحكام الجان » وكتب غير هؤلاء من علماء الإسلام عن الجن ما يغنى ويكفى .

ونحن نورد لك بعض الأدلة على ما ذكرنا مكتفين بذكر الدليل عن التعليق عليه خوف الإطالة فى موضوع يحتاج كتاباً مستقلا . كذلك لن نتعرض لوسوسة الجن للإنس ؛ لأن ذلك موضوع مفروغ منه ولا يشك فيه أحد ، وقد مر بعض أدلته .

الجن تسخر لسليمان عليه السلام

قال تعالى :

[وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ](٢) .

---

(١) النحل : ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) النمـــل : ١٧ .

وقال تعالى :

[وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ راسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ][1] .

وقال تعالى :

[وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ][2]

ظهور الجن والشياطين فى صور شتى

قال تعالى :

[وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ][3]

ذكر ابن اسحق وغيره فى سبب نزول هذه الآية أن المشركين جاءوا إلى غزوة بدر ومعهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى -- وكان سراقة من أشراف بنى كنانة . وكانت قريش تخشى كنانة على نفسها

---

(١) سبأ : ١٢، ١٣ .

(٢) الأنبياء : ٨٢ .

(٣) الأنفال : ٤٨ .

فقال لهم إبليس أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس نكص على عقبيه وهرب ، فقال له الحارث بن هشام – وتشبث به – إلى أين ياسراقة ؟ أين تفر ؟ فلكمه إبليس لكمة طرحه على قفاه ثم قال : إنى أرى ما لا ترون الخ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان عرض لى فشد على ليقطع الصلاة على فأمكننى الله منه فذعته(١) ، ولقد هممت أن أوثقه(٢) إلى سارية(٣) المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول سليمان « هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » فرده الله خاسئاً .

وقد روى النسائى على شرط البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وجدت برد لسانه على يدى ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس .

وعن أبى أيوب أنه كان فى سهوة (٤) له ، وكانت الغول (٥) تجىء فتأخذ فشكاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « فإذا رأيتها فقل باسم الله أجيبى رسول الله » .

قال فجاءت فقال لها فأخذها فقالت إنى لا أعود ، فأرسلها ، فجاء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ، ما فعل أسيرك ؟ قال أخذتها فقالت إنى لا أعود فأرسلتها ، فقال : إنها عائدة فأخذتها مرتين أو ثلاثاً كل ذلك تقول لا أعود وأجىء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : « ما فعل أسيرك ؟ » فأقول أخذتها فتقول : لا أعود فيقول : « إنها عائدة » فأخذتها فقالت أرسلنى وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء « « آية الكرسى » . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « صدقت وهى كذوب »

---

(١) ردعته .　　(٢) اربطه .

(٣) عمود .　　(٤) مكان بالمنزل .

(٥) الجن حين تظهر ليلا تسميها العرب غولا .

رواه أحمد والترمذى وروى البخارى مثل هذا الحديث عن أبى هريرة وروى الحافظ أبو يعلى مثله عن أبى بن كعب – راجع ابن كثير عند تفسير آية الكرسى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . . الخ »

وروى أبو نعيم عن الأحنف بن قيس قال : قال على بن أبى طالب : « والله لقد قاتل عمار بن ياسر الجن والإنس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلنا : هذا الإنس قد قاتل . فكيف الجن ؟ فقال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر . فقال لعمار : « انطلق فاستق لنا من الماء . فانطلق فعرض له الشيطان فى صورة عبد أسود فحال بينه وبين الماء . فأخذه فصرعه عمار . فقال له : دعنى وأخلى بينك وبين الماء . ففعل ثم أبى . فأخذه عمار الثانية فصرعه . فقال : دعنى وأخلى بينك وبين الماء . فتركه . فأبى فصرعه . فقال له : مثل ذلك ، فتركه فوفى له . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد حال بين عمار وبين الماء . فى صورة عبد أسود . وإن الله أظفر عماراً به . قال على : فلقينا عماراً . فقلت : ظفرت يداك ياأبا اليقظان . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كذا وكذا . قال : أما والله لو شعرت أنه الشيطان لقتلته . ولقد هممت أن أعض بأنفه لولا نتن ريحه » .

حضور الشياطين كل شيء للإنسان إذا لم يذكر اسم الله تعالى

روى مسلم والترمذى من حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضر عند طعامه » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : باسم الله . اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً » .

وروى مسلم من حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها تركز رايته » .

وروى مسلم وأبو داود عن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند طعامه . قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء . وإذا ذكر اسم الله عند دخوله ولم يذكره عند طعامه يقول : أدركتم العشاء ولا مبيت لكم . وإذا لم يذكر اسم الله عند دخوله قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

وروى مسلم وأبو داود عن حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى طعاماً) لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع يده . وإنا حضرنا مرة معه طعاماً فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت لتضع يدها فى الطعام فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها ثم جاء أعرابى فكأنما يدفع فذهب ليضع يده فأخذ يده . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها . فجاء بهذا الأعرابى ليستحل به ، والذى نفسى بيده إن يده فى يدى مع يديهما » .

وروى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا إلا أن الله تعالى أعاننى عليه فأسلم فليس يأمرنى إلا بخير . »

وفى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان جنح(١) الليل وأمسيتم فكفوا صبيانكم . فإن الشيطان ينتشر حينئذ . فإذا ذهبت ساعة من الليل فخلوهم (٢) ، وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله تعالى . وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله ولو أن تعرضوا عليها شيئاً (٣) . وأطفئوا مصابيحكم » .

---

(١) جنح الليل : أى أول الليل .

(٢) أى اتركوهم يخرجوا .

(٣) أى غطوا آنيتكم فإن لم تجدوا غطاء فضعوا عليها شيئاً ولو عوداً مع ذكر اسم الله .

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد قال : كان فتى منا حديث عهد بعرس فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله . فاستأذنه يوماً . فقال له : خذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قريظة . فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة . فأهوى اليها بالرمح لكى يطعنها لما أصابته غيرة . فقالت له : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى . فدخل فإذا بحية عظيمة منصوبة على الفراش فأهوى إليها بالرمح . فانتظمها (١) به . ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه فما ندرى أيهما كان أسرع موتاً . الحية أم الفتى » .

يؤخذ من هذا الحديث ومما سبق أن الجن يظهرون فى أشكال كثيرة . وخصوصاً أول الليل وآخره وفى الخربات والأماكن المظلمة والصحارى . والأماكن النجسة . فعلى الإنسان أن يأخذ دائماً حذره وألا يؤذى شيئاً مما يظن أنه قد يكون منهم إلا بعد أن يظهر أذاه ثم ينذره ثم يذكر اسم الله ويرد اعتداءه ولو بقتله .

فقد روى الترمذى والنسائى عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا . فإذا رأيتم من هذه الهوام شيئاً فآذنوه(٢) ثلاثاً فإن بدالكم فاقتلوه .

وقال الشيخ أبو العباس ابن تيميه : قتل الجن بغير حق لا يجوز كما لا يجوز قتل الإنس بغير حق والظلم محرم فى كل حال . والجن يتصورون فى صور شتى . فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جنيات فتؤذن ثلاثاً . فإن ذهبت فبها وإلا قتلت » .

---

(١) ركزه فيها .

(٢) أعلنوه وأنذروه .

صرع الجن الإنس

قال تعالى :

[الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ][1] .

قال ابن كثير فى معنى الآية : أى لا يقوم الذين يأكلون الربا فى الدنيا من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له .

واستدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية على أن الجن تدخل فى بدن المصروع .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى : إن قوماً يقولون : إن الجن لا تدخل فى بدن الإنس . قال يابنى يكذبون . هو ذا يتكلم على لسانه (أى على لسان من مسه الجن) .

وذكر الدارقطنى والدارمى بالسند إلى ابن عباس أن امرأة جاءت بابن لها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله . إن ابنى به جنون . وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ودعا له . فتفتفه (٢) فخرج من جوفه مثل الجرو (٣) الأسود فسعى .

وروى الإمام أحمد وأبو داود وأبو قاسم الطبرانى من حديث أم أبان بنت الوازع عن أبيها أن جدها انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن له مجنون . أو ابن أخت له . فقال يارسول الله . إن معى ابناً لى ، أو ابن أخت لى مجنون ، أتيتك به لتدعو الله تعالى له . قال : ائتنى به قال :

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

(٢) أى قاء الجنى .

(٣) الكلب الصغير حديث الولادة .

فانطلقت به إليه وهو فى الركاب . فأطلقت عنه وألقيت عليه ثياب السفر ، وألبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهيت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . أدنه منى ، واجعل ظهره مما يلينى ، قال . فأخذ بمجامع ثوبه بين أعلاه وأسفله فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض إبطه ويقول : اخرج عدو الله . فأقبل (يعنى المريض) ينظر نظر الصحيح ليس بالنظر الأول . ثم أقعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه فدعا له بماء فمسح وجهه ودعا له . فلم يكن فى الوفد أحد بعد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل عليه .

وذكر صاحب كتاب « آكام المرجان » حكاية عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : هى أن المتوكل أنفذ إليه صاحباً له يعلمه أن جارية بها صرع وسأله أن يدعو الله لها بالعافية . فأخرج له أحمد نعلى خشب بشراك (١) من خوص للوضوء فدفعه إلى صاحب له وقال له : تمضى إلى دار أمير المؤمنين ، وتجلس عند رأس هذه الجارية وتقول له (يعنى الجنى) يقول لك أحمد : أيما أحب إليك . تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذه النعل سبعين ؟ فمضى إليه وقال له بمثل ما قال له الإمام أحمد . فقال له المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة . لو أمرنا أحمد ألا نقيم بالعراق ما أقمنا به . إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شىء . وخرج من الجارية ، وهدأت ورزقت أولاداً .

ومما ذكر من الأدلة نعلم أن صرع الجن للإنس أمر ممكن وأنه وقع فعلا . وقد كانت العرب وغيرها من الأمم تؤمن بذلك وتحكى فيه الحكايات الكثيرة . ولا غرابة فيما حكى وفيما يحكى اليوم عن الجن وتشكلهم بالأشكال المختلفة واتصالهم بالإنس بأنواع من الاتصالات .

وهذا أمر مقرر فى الإسلام حتى اختلف الفقهاء فى جواز التزاوج بين الإنس والجن فالقلة أجازته والكثرة منعته ؛ لأن الجن جنس غير جنس الإنس .

---

(١) رباط .

وتكلم كثير من علماء الإسلام عن صرع الجنى الإنسى وكيفية علاج الإنسى منه وأكثر الكلام فى هذا الموضوع أبو العباس ابن تيمية ، وغيره وألفت فى ذلك أبواب عالجت الموضوع علاجاً علمياً مبنياً على أسس إسلامية .

والخلاصة فى هذا الموضوع أن علاج الإنسى المصاب بلمس الجنى أمر ممكن إما بالتصالح مع الجنى والتعاهد معه إن كان ذلك يصلح معه ، وإما بالرقى — والتعاويذ . وأهمها قراءة آية الكرسى . فقد ذكر ابن تيمية أن الله شفى بسببها كثيرين . ومنها التخويف والإرهاب إن كان الإنسى المعالج أهلا لذلك ، ومنها كتابة التعاويذ لتشرب أو لتحمل بشرط أن يكون المكتوب ليس استعاذة بغير الله تعالى ؛ لأن ذلك شرك ، وليس استعاذة بأسماء لا تعرف معناها ، لأنها غالباً ليست من أسماء الله تعالى .

فلا مانع من العلاج إذاً بأى شىء مباح . ولا يجوز بالشىء الممنوع شرعاً . ومعالجة هؤلاء المصروعين جائزة بل قد تكون مستحبة أو واجبة كما قال ابن تيمية ، لأنها إغاثة لمسلم ونصرة له من ظالمه ، ونصرة المظلوم واجبة لمن قدر عليها بالطريق المشروع .

ويلاحظ أن تصرفات المصروع التى يفعلها رغماً عنه ولا قدرة له على ردها تصرفات لا يحاسب عليها المصروع ولا يؤاخذ بها ، لأنها فوق طاقته ، فهو مثل المجنون .

تحضير الأرواح

هذا الموضوع ذو أهمية ويستحق الدرس والعناية به ، وليس المجال هنا متسعاً للاطالة فيه ، ولكن حسبنا أن نقول : إن هناك قضايا إذا فهمت عن درس أمكن الوصول إلى نتيجة يقينية لا لبس فيها ولا غموض .

الأولى : هي أن الجن ثبت وجودهم ، وأنهم يتشكلون بما يريدون ، وأنهم متصلون ببنى آدم اتصالا وثيقاً ويعيشون معهم على أرضهم ، وأحياناً يدخلون فى أجسامهم ويتسلطون عليها بكيفية لا يعلمها إلا الله ؛ لأن حقيقتهم لا يعلمها إلا الله .

وبناء على ذلك فالجنى يمكنه أن يتشبه بالرياح وبالأنوار المختلفة الألوان وبالسحاب والدخان والشخصيات العظيمة . كما يمكن للجنى أن يقلد أية شخصية حية أو ميتة بعد موتها ؛ لأن أعمار الجن تصل أحياناً إلى مئات السنين ، كما ثبت فى ذلك فى بعض الأحاديث والآثار – كما أن تكليم الجنى للإنسان على لسان إنسان آخر أمر ثابت كما سبق ، وتحريك الجنى لقلم يكتب ، أو لسلة ترسم بوساطة قلم ، أو لأثاث حجرة ليكسر أو لغير ذلك مما نسمع عنه أمر ممكن وواقع فيما مضى ويقع الآن كثيراً ، والمتتبع لهذا الأمر يجد الغرائب التى لا شك فيها .

الثانية : أن أرواح الموتى بعد موتهم لا سلطان لأحد عليها بتسخير أو تحضير أو غير ذلك لأن هذه الأرواح ذهبت إلى خالقها لتلقى مصيرها حسب عملها ، فهى فى روض من رياض الجنة ، أو فى حفرة من حفر النار ، وتلك حياة برزخية غيبية لا سلطان لأحد عليها غير الله تعالى . .

قال تعالى : [يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه][1] .

---

(١) الانشقاق : ٦ .

وقال تعالى فى مصير الإنسان بعد موته :

[فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ ، وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ](1) .

الثالثة : لم يثبت أن نبياً مرسلا أو صحابياً أو تابعياً أحضر روح ميت ليسأله عن أمر من الأمور – وكثيراً ما تأزمت أمور وتعقدت مسائل ووجدت قضايا لو قال الميت فيها كلمة واحدة لانتهى الأمر المعضل ، وكان ذلك يحدث فى حياة المرسلين الذين جاءوا بالمعجزات الباهرة ، ومع ذلك لم يحدث مرة واحدة فى عصرهم أن أحضرت روح لتقول الكلمة المطلوبة فتفك الأزمة القائمة ، وكل ما سمعناه عن الاتصال بأرواح الموتى إنما هو ما يحدث فى المنام لا فى اليقظة وأما إحياء عيسى عليه السلام الموتى فليس تحضيراً للأرواح إنما هو احياء للجسم مع الروح ، وكذلك احياء الله ميت بنى إسرائيل على يد موسى عليه السلام .

الرابعة : أرواح الموتى لو أحضرت لفاحت منها ومن أخبارها وتصرفاتها رائحة النعيم أو العذاب ، ولعرفنا منها أخباراً حقيقية عن أهل الجنة وأهل النار ، وعن نعيم الجنة وعذاب النار ، وأخبار القبور ، والأسئلة والأجوبة بالنسبة للموتى ، ولاتضح لنا كل ما يتصل بالعالم الآخر أو أكثره ، ولأمكن نشر ذلك كله على الناس ودعوتهم لسماعه ، وذلك ما لم يحدث بكيفية علمية مؤكدة .

الخامسة : لو أنك تتبعت كل ما قيل عن تحضير الأرواح لخرجت بنتيجة واحدة هى : أن كل ما قيل عن الأرواح أنها قالته أو عملته ، قيل وثبت عن الجن أنها قالت مثله وفعلت مثله .

---

(١) الواقعة : ٨٨–٩٤ .

فتحضير الجن كتحضير الأرواح ـ غير أن ما سمى تحضير الأرواح ألبس ثوباً علمياً كاذباً ووشاحاً يتفق مع عصر الصاروخ والقنبلة الذرية .

السادسة : الأرواح التى تستحضر تراوغ ، وتخلف الوعد ، وترضى بالمنكر فى مجالسها كأن ترضى بجلوس من يلبس الذهب والحرير من الرجال ، وترتضى قوماً نساؤهم وبناتهم سافرات عاريات وقد يكن غير مصليات ، كما أن الأرواح المستحضرة تكسر الأشياء أحياناً وتؤذى بعض الناس وقد تقوم بأعمال بهلوانية كالرقص والتلون بألوان مختلفة وإضاءة الحجرة والإخبار ببعض ما يحدث بين الناس وفى العالم مما لا يراه ولا يعلمه المحضرون ولكن تعلمه الجن لسعة كشفها وسرعة تنقلها بدرجة تفوق سرعة أسرع صاروخ اكتشفه العلم وكل هذه الأمور فعلتها الجن وفعلت أكثر منها وتجد لها أمثلة فى القرى والمدن عند المتخصصين فى أمور الجن ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا حولهم هالة من الدعاية ونفخ الأبواق ليلبسوا أمورهم لباساً علمياً مزيفاً ، ويقولوا للناس ـ افتراء ـ إننا نستحضر الأرواح ، إنما يقولون صادقين إننا نستحضر الجن أو هم يحضرون معنا . وكثيراً ما رأيت أناساً مضللين بادعائهم تحضير الأرواح أو حضور جلساتها وأن هذه الأرواح زينت لهم فعل منكر أو أباحت لهم ترك فريضة أو هونت عليهم فعل جريمة بحجة أنها أرواح من عند الله وأنها تعلم الحقائق عارية مكشوفة لا لبس فيها ولا خفاء . ولم يدر المسكين أنه واقع فى شباك جنى كذاب مضلل .

السابعة : أن الأرواح بعد فراق الأجساد محكومة بناموس وسر إلهى فلا يمكن لأحد أن يتسرب إليها ولا أن يسخرها هذا التسخير المزرى ولا يمكن لها إلا أن تكون صورة صادقة للعالم الآخر وذلك ما لم يحدث أبداً فى عالم ما يسمونه تحضير الأرواح .

خلاصة

وخلاصة القول بعد عرض الأمور السابقة أن كل ما قيل فى تحضير الأرواح المزعومة قيل فى تحضير الجن ، وأن كل ما تفعله الجن تفعله الأرواح ، وأن محضرى الأرواح لو اتصلوا بمحضرى الجن لقالوا : لقد كنا مخدوعين حين صدقنا أن ما نستحضره هو أرواح الموتى ، والحقيقة أنها ألعاب الجن ، ولو اتصل محضروا الجن بمحضرى الأرواح لقالوا : لو علمنا حقيقة محضرى الأرواح لادعينا ادعاءهم وأوهمنا الناس أننا نحضر أرواحاً علوية ، ولكسونا أعمالنا كسوة علمية لكى يلبس الوهم ثوب الحقائق .

فالكل يستحضر الجن بطرق شتى يستوى فيها طريقة المندل ، والتعاويذ السحرية المبنية على امتهان القرآن والحديث وكل ما هو مقدس شرعاً ، وطريقة السلة وعلبة السجاير ، ولعبة الحروف الأبجدية ، والأرقام الحسابية ، وطريقة القاعة المغلقة وطريقة الآلات المتحركة والوسيط وغيرها .

ويستوى ظهورهم على لسان إنسان ، أو فى شكل نور ، أو ريح أو سحاب فى سقف حجرة أو فى شكل ولى ، أو غير ذلك .

ولن نستطيع حين ندرس تحضير الجن ، وتحضير الأرواح أن نجد أى فارق فى النتيجة والأثر .

إذا عرفنا هذا وعرفنا أن هذا الذى يحدث فى تحضير الأرواح المزعومة هو نفسه أعراض الجن وأعمالها ، وأضاليلها ثم عرفنا مع ذلك أن أرواح الموتى لا تسخر لأحد ، ولا تحيا حياتنا ، ولا يمكن أن تكذب ، أو تخدع ، أو تدعى غيباً مستقبلا كما أنها مشغولة بما فيه من نعيم أو عذاب . . . الخ ما سبق ذكره .

إذا ثبت هذا كله فى ذهن القارئ أدرك أن تحضير الأرواح هو بيقين تحضير للجن لا لأرواح الموتى .

والجنى بحكم طبيعته يستطيع أن يخبرك عن الماضى البعيد . وأن يتشكل فى صور أهله وأن يعرف من قرين الميت ما كان عليه الميت ، وما كان عنده من أسرار كما يستطيع الجنى بسهولة أن يعرف أماكن بعض الأشياء ، كما يدل على المسروقات أحياناً ، ويخبر ببعض الأحداث التى تغيب عن كثير من الناس ، أما علمهم بالمستقبل فأمر غير ممكن . لكن يمكن التخمين كتخمين البشر فيصدق أحياناً ويتحقق تخمينه . فيظن الناس أنه يعلم المستقبل وهو أبعد ما يكون عن علمه ، فثبت بهذا أن تحضير الأرواح هو تحضير للجن لا لأرواح الموتى — وأى موتى هؤلاء الذين يرضون بعد لقاء ربهم أن يعودوا إلينا ويروا حياتنا التى ملأها الفسقة فجوراً وفسوقاً وكفراً وانحلالا وسخرية من القيم الإنسانية والمبادىء الدينية ؟!! إن بعد الناس عن معرفة حقائق الدين وأحواله كبدهم تخبطات كثيرة والبقية تأتى ؟!!!

الأجــــل

يجب الإيمان بأن الإنسان وسائر الحيوانات ، والجن والملائكة لا يموت أحد منهم حتى يتم أجله الذى قدره الله له سواء مات حتف أنفه ، أم مات مقتولا بأى سبب من الأسباب . قال تعالى :

[لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ](1) .

والأمة تشمل الأمة الإنسانية وغيرها .

قال تعـالى :

[وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ](2) .

وملك الموت هو الذى يقبض الأرواح بأمر الله تعالى ، وله أعوان من الملائكة الكرام كما سبق ذكره ، وعند الاحتضار (خروج الروح) يرى المحتضر الملائكة الذين يقبضون روحه ويعرف مصيره إن كان إلى الجنة أو إلى النار .

قال تعـالى :

[الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ](3) .

---

(١) يونس : ٤٩ .
(٢) الأنعام : ٣٨ .
(٣) النحل : ٣٢ .

وقال تعالى :

[وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ][1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب . اخرجي حميدة وابشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . قال : فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج ثم يزج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان . فيقولون : مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب . ادخلي حميدة وابشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . قال : فلا يزال يقال لها حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل .

وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث . اخرجي ذميمة وابشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها . فيقال من هذا ؟ فيقال فلان . فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث . ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء . فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر . . . إلى آخر الحديث . رواه ابن ماجة . قال فى التنقيح : ورجاله رجال الصحيح . قال ولحديث أبي هريرة هذا ألفاظ عند أحمد ومسلم وابن ماجة وابن حبان .

---

(١) الأنعام : ٩٣ .

سؤال القبر ، ونعيمه وعذابه

يجب الإيمان بأن أول ما ينزل بالميت بعد موته سؤال الملكين فى القبر بأن يرد الله عليه روحه وسمعه وبصره ثم يسأله الملكان عن ربه ودينه ونبيه فإما أن ينعم أو يعذب حسب حسن إجابته أو سوئها . وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة صحيحة بلغت حد الشهرة والتواتر المعنوى ، منها : حديث عثمان رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » أخرجه أبوداود والبزار والدارقطنى والبيهقى والحاكم وصححه

ومنها حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر » أخرجه أحمد ومسلم والنسائى .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ، لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ويفسح له من قبره سبعون ذرعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون . وأما الكافر أو المنافق فيقال له ، ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى إنى كنت أقول ما يقول الناس . فيقال له : لا دريت ولا تليت . ويضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه » أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى واللفظ للبخارى .

هذا : والمنعم والمعذب عند أهل السنة الجسد والروح جميعاً .

ومما تقدم يستفاد أن لأهل القبور حياة يدركون بها أثر النعيم والعذاب ، ولو تفتتت أجسادهم . وأما كيفية تنعيمهم أو تعذيبهم فأمرها غيبي لا نعرف حقيقته . وحال الميت فى ذلك كحال النائم يرى الملاذ والمؤلمات ولا يرى من بجواره شيئاً .

ويسأل من غرق أو أحرق أو أكله سبع بكيفية يعلمها الله تعالى . هذا ، ولا يسأل الأنبياء ، والصبيان ، والشهداء للأدلة الواردة فى ذلك .

اليوم الآخر

هو يوم القيامة : وأوله من الموت لحديث هانئ مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له : أتذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتذكر القبر وتبكى ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب .

وقيل : أول اليوم الآخر من النشر (وهو الخروج من القبور) . وآخره على القولين دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار . ولا يعلم وقت مجيئه إلا الله تعالى . قال تعالى :

[يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً][1] .

وعن بريدة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل » :

[إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعة ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فى الأَرْحَام ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا][2] .

أخرجه أحمد بسند صحيح .

والكلام عن اليوم الآخر ينحصر فى علامات الساعة ومشتملات يوم القيامة وعلامات الساعة نوعان : ١ ــ علامات صغرى ٢ ــ علامات كبرى

---

(١) الأحزاب : ٦٣ . (٢) لقمان : ٣٤ .

١ ــ علامات القيامة الصغرى :

العلامات الصغرى لقرب يوم القيامة كثيرة وردت بها الأحاديث الشريفة ، وخلاصتها انتقاض عرى الدين الإسلامى وانتكاس الفطرة الإنسانية.

وإليك بعض الأمثلة لها كما جاءت بها الأحاديث النبوية الصحيحة .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن من أشراط(١) الساعة أن يرفع العلم (أى العلم بالله وبدينه) ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، ويشرب الخمر ، ويكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد » أخرجه السبعة إلا أبا داود وقال الترمذى : حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، (أى تذهب بركة الأيام فتمر بدون الاستفادة المطلوبة منها) وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج (القتل) حتى يكون فيكم المال فيفيض » . أخرجه الشيخان وابن ماجة .

وعنه رضى الله عنه أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» . قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » أخرجه البخارى .

وعنه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » . أخرجه الشيخان وهذا لفظ مسلم . والغرقد بفتح الغين فسكون الراء : نوع من الشجر له شوك عظيم معروف ببلاد بيت المقدس .

وكلام الحجر والشجر يحتمل أن يكون حقيقياً ويحتمل أن يكون كناية عن تمكن المسلمين من اليهود حتى لا يستطيعوا فراراً ولا هرباً .

---

(١) أى علاماتها .

٢ – العلامات الكبرى

وأهمها الآيات الآتية :

١ – **طلوع الشمس من المغرب** : وهى أول الآيات الكبرى المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوى حتى ينتهى بقيام الساعة .

روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى . وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً » أخرجه أحمد وابن ماجة وأبو داود ومسلم واللفظ له .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » . أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجة .

والمعنى أنه إذا طلعت الشمس من المغرب فإن الإيمان حينئذ لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل ذلك . كما لا تنفع التوبة نفساً كانت عاصية قبلها . وهذا بالنسبة لمن طلعت عليه الشمس وهو بالغ والله أعلم .

وطلوع الشمس من المغرب يكون فى يوم ثم تطلع من الشرق كعادتها وإذا طلعت من الغرب غربت فى المشرق . وحينئذ يغلق باب التوبة إلى يوم القيامة على القول الراجح لقوله تعالى :

[يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً] [١] .

والمراد ببعض آيات الرب طلوع الشمس من المغرب كما فى الحديث السابق .

---

(١) الأنعام : ١٥٨ .

٢ – خروج الدابة :

والظاهر أن خروجها يكون فى زمن طلوع الشمس من مغربها كما فى فتح البارى لابن حجر . قال تعالى :

[وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ] (١)

قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق .

وهذه الدابة قيل تخرج من مكة وقيل من غيرها . وحين تخرج تكلم الناس وتخبرهم بما هم عليه من إيمان أو كفر ، ومن صلاح أو فسق وبخروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعدم فائدة ذلك . فإن التوبة لا تقبل بالنسبة لمن رآها أو علم بها . وقد سبق الدليل على إثباتها .

٣ – خروج المسيح :

وسمى المسيح بالحاء على الصحيح ؛ لأنه يمسح الأرض ويقطعها فى أربعين يوماً ، ولأنه ممسوح العين اليمنى ، وهو الآية الكبرى المؤذنة بتغير الأحوال العامة فى معظم الأرض . وهو أول هذه الآيات . وقد وصفه النبى صلى الله عليه وسلم وصفاً كافياً لنكون منه على حذر ، ولننجو من فتنته . فعن أبى سعيد الخدرى قال : « حدثنا النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً طويلا عن الدجال فكان فيما حدثنا قال : يأتى الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة(٢) فينتهى إلى بعض السباخ(٣) التى تلى المدينة . فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس ، فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون فى الأمر ، فيقولون : لا . فيقتله

---

(١) النمل : ٨٢ .

(٢) طرقها .

(٣) السباخ جمع سبخة وهى أرض بجوار المدينة تعلوها الملوحة لا تنبت إلا قليلا .

ثم يحييه . فيقول حين يحييه : والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه » . أخرجه أحمد والشيخان واللفظ لمسلم .

وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته من الدجال . وإنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه ، فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور وأنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبي قومه ؟ إنه أعور وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار فالتي تقول : إنها الجنة هي النار ، وإني أنذركم به كما أنذر به نوح قومه » . أخرجه م .

وعن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن مع الدجال إذا خرج ماء ونار ، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء عذب ، وأما الذي يرى الناس أنه ماء فنار تحرق . فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنه نار فإنه ماء بارد عذب » . أخرجه الشيخان وأبو داود .

ومن حديث النواس بن سمعان قال : قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً . يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة . وسائر أيامه كأيامكم . قلنا يا رسول الله . فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا . اقدروا له قدره . . . الخ . الحديث أحمد ومسلم وابن ماجة . والترمذي . وقال : غريب حسن صحيح .

٤ — نزول المسيح عيسى عليه السلام وقتله الدجال :

دلت السنة على أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل قرب الساعة ، ويقتل الدجال ويحكم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث . ثم يموت ويصلي عليه المسلمون .

---

(١) طافية — ظاهرة . فعيناه إحداهما طافية لا ضوء فيها والأخرى طافية يبصر بها .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل ابن مريم حكماً مقسطا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » . ثم قال أبو هريرة ؛ اقرءوا إن شئتم :

[وإن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا](1) .

أخرجه أحمد والخمسة إلا النسائى .

وعن عروة بن مسعود الثقفى قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين : لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً . فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه . ثم يحكم الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة . ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً . ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دَارٌّ رزقهم(2) حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فيصعق الناس ، ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يأيها الناس هلم إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق » أخرجه أحمد ومسلم .

والأحاديث فى هذا كثيرة شهيرة صحيحة . قال القاضى عياض : نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة فى ذلك . وليس فى العقل ولا فى الشرع ما يبطله ، فوجب إثباته .

---

(1) النساء : ١٠٩

(2) كثير رزقهم .

٥ ـ يأجوج ومأجوج :

قال تعالى :

[حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ(١) يَنْسِلُونَ(٢)](٣) .

قال ابن كثير فى تفسيره(٤) : إنهم من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث ، أى أبى الترك ، والترك شرذمة منهم تركوا وراء السد الذى بناه ذو القرنين . . . وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية ، وأن خروجهم يكون مع وجود عيسى ونزوله ، وإليك الدليل :

فعن عبد الرحمن بن جبير بن نقير الحضرمى عن أبيه أنه سمع النواس ابن سمعان الكلابى قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع(٥) حتى ظنناه فى ناحية النخل فقال : غير الدجال أخوفنى عليكم فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، وإنه شاب جعد قطط ، عينه طافية ، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وشمالا ـ يا عباد الله اثبتوا ـ قلنا يا رسول الله : ما لبثه فى الأرض ؟ قال : أربعون يوماً . يوم كسنة ويوم كشهر ، ويوم كجمعة . وسائر أيامه كأيامكم . قلنا يا رسول الله . فذلك اليوم الذى كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة ؟؟ قال : « لا . اقدروا له قدره » قلنا يا رسول الله : فما إسراعه فى الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح قال : فيمر بالحى فيدعوهم فيستجيبون

---

(١) مرتفع .
(٢) يسرعون فى المشى إلى الفساد .
(٣) الأنبياء : ٩٦ .
(٤) جـ ٣ ص ١٩٥ .
(٥) دون من شأنه وبين فظاعته .

له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم(١) وهى أطول ما كانت ذرى ، وأمده خواصر وأسبغه ضروعاً ، ويمر بالحى فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم ، فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شىء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل — قال : ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقى — قال — فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أنى قد أخرجت عباداً من عبادى لا يدان لك بقتالهم فَحَرِّزْ عبادى إلى الطور فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج (وهم من كل حدب ينسلون) فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل نغفاً(٢) فى رقابهم فيصبحون كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون فى الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب(٣) عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البُخْتِ فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله » قال ابن جابر : فحدثنى عطاء بن يزيد السكسكى عن كعب أو غيره قال فتطرحهم بالمهيل : قال ابن جابر : فقلت يا أبا يزيد : وأين المهيل ؟ قال مطلع الشمس قال : ويرسل الله مطراً لا يُكِنُّ منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ، ويقال للأرض : أنبتى ثمرك ، ودرى بركتك ، قال : فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بِقِحْفِها ، ويبارك فى الرِّسْل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفى الفخذ ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت ، قال فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم — أو قال مؤمن — ويبقى شرار الناس يتهارجون

---

(١) أنعامهم .
(٢) هو الدود الذى يكون فى أنوف الإبل والغنم .
(٣) يضرع هو ومن معه إلى الله .

تهارج الحُـمُـرِ وعليهم تقوم الساعة » . رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن وقال الترمذى : حسن صحيح . ونكتفى بهذا الحديث مع ما سبق .

٦ — الريح التى تقبض أرواح المؤمنين :

وقد ذكرت الريح فى الحديثين السابقين : حديث عروة بن مسعود ، وحديث النواس بن سمعان السالف ، فلا داعى لإعادة ذكر الأدلة .

مشتملات اليوم الآخر

يشتمل اليوم الآخر أموراً كثيرة المذكور منها ههنا أحد عشر وإليك بيانها :

١ — **البعث** : وهو إحياء الله الموتى ليلقى كل منهم جزاءه الذى قدر له من نعيم أو عذاب . قال تعالى :

[ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُم إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ] (١) .

وقال تعـــالى :

[ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا ، وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُور] (٢) .

وقال تعـــالى :

[يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] (٣) .

---

(١) المؤمنون : ١٥، ١٦ .
(٢) الحج : ٦، ٧ .
(٣) المجـادلة : ٦ .

وقال تعـــالى :

[زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ][1] .

وقال تعـــالى :

[وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ][2] (أى هيِّن عليه) .

وقال تعالى :

[وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ][3] .

وعن كعب بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نسمة المؤمن طير يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » . أخرجه مالك ، وأحمد ، والنسائى ، وابن ماجة ، والبيهقى بسند صحيح . وهذا البعث مع ثبوته شرعاً بأدلة قطعية فهو يعتبر ضرورة حيوية بالنسبة للإنسان ، ولا يتصور عقل عاقل يؤمن بالله تعالى أن ينتهى أمر الخلائق بمجرد موتهم ، لأن الله تعالى خلقهم لغاية ، وأنزل إليهم الكتب وأرسل الرسل من أجل تحقيق هذه الغاية . فمن الناس من استجاب ، ومنهم أعرض ، ومن استجاب ضحى بكل شىء فى سبيل مرضاة ربه ، ومن أعرض فعل بمن استجاب الأفاعيل ، وعاث فى الأرض فساداً ، وظلم العباد ، وخرب ودمر ، وفسق وفجر ، وزرع فى الناس أنواع الكفر والفسوق والضلال .

---

(١) التغابن : ٧ .

(٢) الروم : ٢٧ .

(٣) يس : ٧٨ ، ٧٩ .

فهل يخطر ببال عاقل أن يمر الأمر يدون مجازاة للمحسن على إحسانه وللمسيء على إساءته ؟ تعالى الله وتنزه عن ذلك . قال تعالى :

[أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ](١) .

٢ – الحشر : وهو سوق الناس إلى مكان الحساب الذى يجتمع فيه الخلائق ، وفيه يحاسبون وتوزن أعمالهم ، ويعرف كل مصيره .

قال تعالى :

[وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ](٢) .

وقال تعالى :

[وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً](٣) .

وقال تعالى :

[وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى](٤) .

وقال تعالى :

[وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ

---

(١) المؤمنون : ١١٥ – ١٦ .
(٢) البقرة : ٢٠٣ .
(٣) الكهف : ٤٧ .
(٤) طه : ١٢٤ .

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ][1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : « يأيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة عراة غرلا(٢)(كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام . إلا أنه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب أصحابى . فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوه بعدك فأقول : كما قال العبـــد الصالح (٣) : « وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم . . . » إلى قوله : « العزيز الحكيم » . قال : فيقال لى : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول : سحقاً ، سحقاً » أخرجه أحمد والشيخان والنسائى والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم » . قيل: يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم , أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب(٤) وشوك » . أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه .

٣ ــ **الحساب** : وهو توقيف الله سبحانه وتعالى عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم أقوالا وأفعالا واعتقادات تفصيلا بعد أخذهم كتبهم

وكيفيته أمر غيبى لم يرد ما يدل عليه . والناس فيه متفاوتون (فنهم) من يحاسب حساباً يسيراً بأن يعرض عمله عليه فيطلعه الله على سيئاته سراً

---

(١) يونس : ٤٥ .

(٢) أى غير مختونين .

(٣) هو عيسى عليه السلام .

(٤) الحدب : بفتحتين : المرتفع من الأرض .

بحيث لا يطلع عليها أحد ، ثم يعفو عنه ويأمر به إلى الجنة . (ومنهم) من يناقش الحساب . بأن يسأل عن كل جزئية ، ويطالب بالعذر والحجة ، فلا يجد عذراً ولا حجة فيهلك مع الهالكين ويفتضح بين الخلائق .

. قال تعالى :

[فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً] (١) .

وقال تعالى :

[وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ] (٢) .

وقال تعالى :

[إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ] (٣) .

وقال تعالى :

[وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ].

وقال تعالى :

[إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً] (٤) .

---

(١) الانشقاق : ٧-١٢ .

(٢) الأنبياء : ٤٧ .

(٣) الغاشية : ٢٥-٢٦ .

(٤) الرعد : ٤١ .

(٥) النساء : ٤٠ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نوقش الحساب عذب » . فقلت : أليس يقول الله (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ؟) فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . أخرجه الشيخان والترمذى ، وأبو داوود .

وعن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه » ؟ أخرجه الترمذى ، وقال حسن صحيح . والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية .

هذا . واعلم أنه سيشهد على العاصى يوم القيامة أحد عشر شاهداً : اللسان ، والأيدى ، والأرجل ، والسمع ، والبصر ، والجلد ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والحفظة الكرام ، والمال ، فضلا عن الشهداء من الناس .

قال تعالى :

[يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ][1] .

وقال تعالى :

[حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ][2] .

وقال تعالى :

[وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ][3] .

---

(١) النور : ٢٤ .
(٢) فصلت : ٢٠ .
(٣) ق : ٢١ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) فقال : « أتدرى ما أَخْبَارَهَا ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . قال : فهذه أخبارها » . أخرجه أحمد ، والبغوى ، وابن حبان ، والترمذى وصححه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك» ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : « من مخاطبة العبد ربه فيقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ يقول : بلى ، فيقول : إنى لا أجيز اليوم على نفسى شاهداً إلا منى فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ، ويقول لأركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل » . أخرجه مسلم .

وفى الحديث « ما من يوم يأتى على ابن آدم إلا ينادى فيه : يا ابن آدم أنت خلق جديد ، وأنا فيما تعمل عليك شهيد . فاعمل خيراً أشهد لك به غداً ، فإنى لو مضيت لن ترانى أبداً ، ويقول الليل مثل ذلك . أخرجه أبو نعيم .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن هذا المـــال خضرة حلوة ، ونعم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع ويكون شهيداً عليه يوم القيامة » . أخرجه مسلم .

٤ — **صحائف الأعمال** : وهى الكتب التى كتبت فيها الملائكة ما فعله العباد فى الدنيا من اعتقادات وأقوال وأفعال ، وهى ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع فمنكرها كافر . وقد سبقت الأدلة العديدة على ذلك فى الحساب وغيره .

وهذه الصحف لا يأخذها الأنبياء والملائكة ومن يدخلون الجنة بغير حساب ؛ لأنهم لا يحاسبون .

٥ — **الميزان** : وهو ذو كفتين ولسان (كالميزان المعهود) توزن

فيه أعمال من يحاسب بقدرة الله تعالى دفعة واحدة . والصنج مثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لإظهار تمام العدل . وقيل إن حقيقته لا يعلمها إلا الله تعالى .

قال تعـــالى :

[وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ](١) .

وقال تعـــالى :

[فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ](٢) .

وعن الحسن عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك . قالت : ذكرت النار فبكيت . فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً . عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الكتاب حين يقال : « هاؤم اقرءوا كتابيه » حتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم حتى يجوز » أخرجه أبو داود .

وعن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيقول : لا يارب ،

---

(١) الأنبياء ٤٧ .
(٢) القارعة : ٦-١١ .

فيقول الله عز وجل : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة له فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لن تظلم . فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء . أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب والبيهقى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . أخرجه أحمد ، والشيخان ، والترمذى .

ومما تقدم يعلم أنه يوزن عمل كل من يحاسب حتى من لا حسنة له ، ليزداد خزياً على رؤوس الاشهاد ، وبالوزن يظهر العدل فى العذاب والعفو عن الآثام .

٦ — **الصراط** : وهو جسر ممدود على ظهر جهنم يمر عليه الأولون والآخرون كل بحسب عمله ، فنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح العاصف ، وناس كالجواد ، وناس هرولة وناس حبوا ، وناس زحفاً ، وناس يتساقطون فى النار ، وعلى جوانبه كلاليب ، لا يعلم عددها إلا الله تخطف بعض الخلائق (والكلاليب مثل الخطاطيف) .

قال تعـالى :

[وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا](١) .

وعن ابن مسعود : الصراط على جهنم مثل حد السيف . فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة

---

(١) مريم : ٧١ ، ٧٢ .

كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : « اللهم سلم سلم » أخرجه ابن جرير .

وعن السدى عن مرة عن ابن مسعود قال : « يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى أن آخرهم مروراً رجل نوره على موضع إبهام قدميه فيتكفأ به الصراط . والصراط دحض مذلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس » . الحديث أخرجه ابن حاتم ، وابن كثير ، وقال : ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبى سعيد وأبى هريرة ، وجابر وغيرهم ولشدة الهول حينئذ يقول المؤمنون "رب سلم سلم".

عن المغيرة بن شعبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة : رب سلم سلم » . أخرجه الترمذى ، والحاكم وصححاه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى : (يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط . . منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة » أخرجه ابن أبى حاتم وابن جرير .

٧ ــ الحوض : يجب الإيمان بأن لكل رسول حوضاً يرده الطائعون من أمته ، وأن حوض النبى صلى الله عليه وسلم : أكبرها وأعظمها . طوله مسيرة شهر ، مربع الشكل له ميزابان يصبان فيه من الكوثر . ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، كيزانه أكثر من نجوم السماء ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ظمأ ألم . ولو دخل النار يعذب بغير العطش . ويكون شربه منه أو من غيره كالتسنيم بعد ذلك لمجرد اللذة ، يرده الأخيار وهم المؤمنون بالنبى صلى الله عليه وسلم الآخذون بسنته وسنة

الخلفاء الراشدين المهديين ، ويطرد عنه الكفار والمبتدعة فى العقيدة وكل من تعامل بالربا أو جار فى الأحكام أو أعان ظالماً أو جاوز حداً من حدود الله . وهو ثابت بأحاديث مشهورة تفيد التواتر المعنوى . منها حديث ابن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : حوضى مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من يشرب منه فلا يظمأ أبداً » . أخرجه الشيخان .

وحديث ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنى لبعقر حوضى أذود الناس عنه لأهل اليمن أضرب بعصاى حتى يَرْفَضّ عليهم ، فسئل عن عرضه فقال : من مقامى إلى عمان ، وسئل عن شرابه فقال : أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يُغِت فيه ميزابان يمدانه من الجنة . أحدهما من ذهب والآخر من ورق » أخرجه أحمد ومسلم والبغوى وفيه : حتى يرفضوا عنه (أى ينصرفوا عنه) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه ضاحكاً فقيل : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت على سورة آنفاً فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ) فقال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه نهر وعدنيه ربى عز وجل عليه خير كثير . وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة . آنيته عدد نجوم السماء . فيختلج العبد منهم فأقول : ربى إنه من أمتى فيقول : ما تدرى ما أحدث بعدك » . أخرجه الشيخان .

(فائدة) صحح الغزالى أن الحوض قبل الصراط وكذا القرطبي وقال : المعنى يقتضيه . فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً . فناسب تقديم الحوض ، وأيضاً فإنه من جاز الصراط لا يتأتى طرده عن الحوض فقد كملت نجاته (ورجح) القاضى عياض أنه بعد الصراط ، وأن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار . ويؤيده من جهة المعنى أن الصراط يسقط منه من يسقط من المؤمنين ، ويخدش فيه من يخدش ووقوع ذلك للمؤمن بعد شربه من الحوض بعيد فناسب تقديم الصراط حتى إذا خلص

من خلص شرب من الحوض : وقيل : يشهد له ما تقدم من أن للحوض ميزابين يصبان فيه من الكوثر . ولو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين وصول ماء الكوثر إليه . ولكن وصول ذلك ممكن . والله على كل شيء قدير ويمكن الجمع بأن يكون الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم . وبعده لآخرين بسبب ما عليهم من ذنوب ، فيؤخرون حتى يطهروا من الذنوب بالعذاب في النار .

هذا . ولم يقم دليل صريح على شيء مما ذكر . فالواجب اعتقاده هو أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضاً تعدد أو اتحد ، تقدم على الصراط أو تأخر . ولا يضرنا جهل ذلك ، والله الموفق .

٨ — **الشفاعة** : وهي لغة الوسيلة والطلب . وعرفاً سؤال الخير للغير ، وهي تكون من الأنبياء والعلماء العاملين والشهداء والصالحين .

فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » . أخرجه ابن ماجه ، وهو حسن .

يشفع كل لأهل الكبائر على قدر منزلته عند الله تعالى

والنبي محمد صلى الله عليه وسلم أول من يفتح باب الشفاعة حين يشفع في فصل القضاء . وهي الشفاعة العظمى المختصة به ، والتي يغبطه عليها الأولون والآخرون ، وهي المقام المحمود المذكور في قوله تعالى :

[عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُوداً](١)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود في الآية فقال : « هو المقام الذى أشفع فيه لأمتي » أخرجه أحمد والترمذي والبيهقي في الدلائل .

وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشمس تدنو

---

(١) الإسراء ٧٩ .

يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن . فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول : لست بصاحب ذلك ثم بموسى فيقول كذلك ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة . فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم » أخرجه البخارى وابن جرير

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان وأبو داود والترمذى وقال : حديث غريب .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع » أخرجه مسلم وأبو داود .

والشفاعة خمسة أنواع :

١ ــ الشفاعة فى فصل القضاء لإراحة الخلق جميعاً مسلمهم وكافرهم من طول الموقف وأهواله . وهى مختصة بالنبى صلى الله عليه وسلم . وتسمى الشفاعة العظمى . وهى المقام المحمود المذكور فى الآية .

٢ ــ الشفاعة فى إدخال فريق الجنة بغير حساب . وهى مختصة به صلى الله عليه وسلم أيضاً .

٣ ــ الشفاعة فى زيادة الدرجات : وهذه ليست خاصة بالنبى إجماعاً .

وهذه الأنواع الثلاثة لم يخالف فيها أحد من علماء التوحيد .

٤ ــ الشفاعة فى مرتكب الكبيرة المستحق دخول النار قبل أن يدخلها .

٥ ــ الشفاعة فى إخراج مرتكب الكبيرة من النار .

وهذان النوعان أنكرهما المعتزلة والخوارج ، وكل من قال : إن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ، وأثبتها الأشاعرة والماتريدية وأهل السنة لوجود الأدلة فى ذلك ، وقد مر بعضها .

٩ ــ النار : وهي دار العذاب والعقاب أعدها الله للكافرين والعصاة وثبتت بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة ، لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم : والعذاب فيها مختلف الأنواع والأقسام وهي موجودة الآن باقية لا تفنى ، والكفار فيها مخلدون .

[لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا] .

قال تعالى :

[فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] (١).

وقال تعالى :

[إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا] (٢) .

وقال تعالى :

[فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (٣) * يُصْهَرُ (٤) بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ (٥) مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ] (٦)

---

(١) البقرة : ٢٤ .
(٢) الكهف : ٢٩ .
(٣) الماء البالغ الحرارة .
(٤) يذاب .
(٥) مضارب .
(٦) الحج الآية ١٩ – ٢٢ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التي توقدون فيها جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » . قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله قال : « فإنها فضلت بتسعة وستين جزءاً كلهم مثل حرها » . أخرجه أحمد والشيخان والترمذى وقال حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تخرج عنق من النار يوم القيامة ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق يقول : إنى وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين » . أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح غريب .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن قطرة من الزقوم(١) قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه » ؟ أخرجه أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم والترمذى وقال : حسن صحيح .

واعلم أنه لا يخلد فى النار من مات على التوحيد ولو ارتكب الكبائر ، أما من مات على الشرك والكفر فإنه لا يخرج منها أبداً .

قال تعالى :

[إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ](٢)

وقال تعالى :

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ](٣) .

فأهل الكبائر : من مات منهم قبل التوبة يدخله الله النار ليصلى جزاء ما فعل ثم تكون نهايته ومأواه الجنة إلا أن يغفر الله له فيدخله الجنة بدون سابق عذاب .

---

(١) شجر كثير الشوك مر يطلع فى البادية .
(٢) النساء : ٤٨ .
(٣) البينة : ٦ .

عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن بـُرَّةٍ من خير . ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير » أخرجه أحمد والشيخان والنسائى وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح .

١٠ – **الجنة** : وهى لغة البستان . والمراد هنا دار الثواب والنعيم المقيم التى أعدها الله للمؤمنين . فيها الحور العين ، والولدان المخلدون ، ولحم طير مما يشتهون ، وأنهار من الماء العذب والعسل المصفى ، واللبن الذى لم يتغير طعمه ، والخمر التى فيها لذة للشاربين ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أهلها إخوان على سرر متقابلين ، نزع الله ما فى قلوبهم من غل فصاروا أحبة متمتعين ، تحيتهم فيها سلام ، ونعيمهم دائم فى دار السلام .

وللجنة ثمانية أبواب ، وهى أنواع وأقسام ودرجات ، أعلاها جنة الفردوس ، وأقل الناس فى الجنة له من النعيم ما يعدل الدنيا وسبعة أمثالها معها ، لا يلقى أهلها موتاً ولا يقربهم فناء ، وهى موجودة الآن فى مكان يعلمه الله وحده كما يعلم وحده مكان النار .

دل على ذلك كله الكتاب والسنة وإجماع الأئمة .

قال تعالى :

[وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ] [١] .

وقال تعالى :

[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ

---

(١) آل عمران : ١٣٣ .

جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً] (١) .

وقال تعالى :

[إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ] (٢) .

وقال تعالى :

[إنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ ونَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ] (٣) .

وقال تعالى :

[مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ . وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا من كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ] (٤) .

---

(١) الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) البينة : ٧ ، ٨ .

(٣) القمر : ٥٤ ، ٥٥ .

(٤) محمد : ١٥ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » أخرجه السبعة إلا أبا داوود . وعنه قال : قلت يا رسول الله الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من فضة ولبنة من ذهب ، وملاطها(١) المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من دخلها ينعم ولا يبؤس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم » . (الحديث) أخرجه أحمد والدارمى والبزار وابن حيان والترمذى .

وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم (٢) الأَلُوَّة(٣) ، أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء » أخرجه أحمد والشيخان والترمذى وابن ماجه .

١١ — رؤية الله تعالى :

إعلم أن أهل السنة أجمعوا على أن رؤية الله تعالى ممكنة عقلا واجبة نقلا ، واقعة فعلا فى الآخرة للمؤمنين دون الكافرين ، بلا كيف ولا انحصار .

فيرى سبحانه وتعالى لا فى مكان ولا فى جهة ولا كيفية من مقابلة أو اتصال شعاع ، أو ثبوت مسافة بين الرائى وبين الله تعالى ، فإن الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى فى خلقه ، لا يشترط فيها الأشعة ، ولا مقابلة المرئى ولا غير ذلك ، فلا يلزم من رؤيته تعالى إثبات جهة له ، بل يراه

---

(١) ملاطها بكسر الميم : وهو الطين يصلح به الحائط .

(٢) المجامر ما يوضع فيه النار للبخور .

(٣) والألوة بفتح الضمة فواو مشددة مفتوحة : العود الذى يتبخر به — والكلام تشبيه لأن الجنة لا نار فيها .

المؤمنون لا فى جهة كما يعلمونه لا فى جهة ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الآمة على ذلك .

قال تعالى :

[وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ][1] .

وقال تعالى :

[كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ][2] .

وقال جرير بن عبد الله : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال :

«إنكم ستَرون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر ، لا تضامون(٣) فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ :

[وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ][4] .

وعن صهيب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : « تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ ألم تنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، ثم تلا « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أخرجه مسلم والأربعة إلا أبا داود .

وأما رؤيته تعالى فى الدنيا فهى ممكنة : ولذلك طلبها سيدنا موسى عليه السلام فعلق الله حصولها له على استقرار الجبل حين يتجلى الله تعالى له

---

(١) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) المطففين ١٥ .
(٣) لا تشكون .
(٤) ق : ٣٩ .

ولم يستقر الجبل حينئذ ، ولم تحصل له عليه السلام مع إمكانها كما أشير إلى ذلك بقوله تعالى :

[قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لن تراني وَلٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا] (١) .

وأما رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء يقظة بجسمه وروحه بعد السماء السابعة فالجمهور على أنها وقعت ، وعلى ذلك الرأى بعض الصحابة ومنهم ابن عباس وأنس والحسن وغيرهم . وقال قوم : لم تقع له صلى الله عليه وسلم فى الدنيا ، ومنهم بعض الصحابة والسيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، والخلاف فى ذلك معروف ولكل أدلته(٢) والله ولى التوفيق والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .
(٢) ا.هـ. ملخصاً من الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى .

مسائل من التوحيد

إن القضايا التي ذكرت في هذا الكتاب وسبق الكلام عليها من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من السهل الإيمان بها علمياً لأن الأدلة عليها قائمة واضحة ، وإنكارها لا تسوغه العقول السليمة . ولا يجد أثراً من علم يعتمد عليه . ولكن الأمر الذى تورط فيه كثير من المؤمنين هو إخلاص التوحيد لله تعالى ؛ ولكى يتضح ذلك نبين لك معنى التوحيد أولا ، ثم نبين ما تورط فيه بعض المؤمنين حتى خرجوا من هذا التوحيد حقيقة أو حكماً أو كادوا يخرجون .

معنى التوحيد

قال ابن القيم : التوحيد نوعان :

١ – توحيد فى المعرفة والإثبات : وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات بمعنى أن يعتقد المؤمن إثبات ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وأنه تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو الخالق الرزاق المهيمن المدبر العزيز العليم الحكيم المريد المتكلم إلى آخر ما يجب أن يتصف به تعالى من الصفات وما يسمى به من الأسماء .

٢ – توحيد فى الطلب والقصد : وهو توحيد الإلهية والعبادة . بمعنى أن المؤمن لا يعبد إلا الله ولا يقصد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالى إلا له ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعمل إلا ابتغاء وجهه ورضاه وحبه ، ولا يسأل إلا الله ولا ينذر إلا له ، ولا يخضع إلا لعظمته وجلاله وأمره ونهيه .

والتوحيد بالمعنى الأول لم يكن مثار جدال ونقاش بين المسلمين والمشركين فإن المشركين كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى ، وبأنه هو الخالق الرزاق المدبر المهيمن المالك للسموات والأرض كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم .

قال تعالى :

[وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ][1] .

وقال تعالى :

[وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ][2] .

وقال تعالى :

[قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ][3] .

أما التوحيد بالمعنى الثانى فهو الذى لقى المعارضة الشديدة من المشركين وهو الذى بسببه سمى الكفار مشركين وخلد فى النار من مات منهم غير موحد توحيد الإلهية السابق . وكثير من المسلمين تورطوا فى أفعال وأقوال واعتقادات تتنافى مع هذا النوع من التوحيد عن حسن قصد أو عن سوء قصد ، وفى كلا الحالين لا يعذر أحد منهم بعمله المنافى لتوحيد الألوهية والعبادة والقصد بعد أن بلغته الدعوة واستبان له السبيل .

مع ملاحظة أن التوحيد بالمعنى الثانى هو الذى جاءت به الرسل ، وهو الذى وقعت بسببه الحروب بين المؤمنين والمشركين ، وهو الذى حاول المشركون القضاء على الدعوة إليه بكل طريقة استطاعوها متمسكين بأصنامهم .

---

(١) الزخرف : ٩ .
(٢) الزخرف : ٨٧ .
(٣) يونس : ٣١ .

قال تعالى :

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُول إلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ][1].

وقال تعالى :

[وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُم فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ][2] .

وقال تعالى حكاية لقول المشركين المتعجبين من الدعوة فى التوحيد :

[أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلهاً وَاحِداً ؟ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ][3].

وقال تعالى :

[وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : هٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ][4] .

فإشراك غير الله مع الله تعالى فى العبادة هو الكفر الذى حاربته الأديان وفضحت القائلين به ، وهو الذى حاول الرسل القضاء عليه حتى يخلص التوحيد لله تعالى بلا شائبة من شرك خفى أو جلى .

قال تعالى :

[قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ *

---

(١) الأنبياء ٢٥ .
(٢) الزمر : ٣ .
(٣) ص : ٥ .
(٤) يونس : ١٨ .

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ][1] .

وإليك بعض ما ليس من التوحيد لتتقيه وتنأى عنه وتنهى الناس عن الوقوع فيه .

١ - إطاعة من حرم ما أحل الله وأحل ما حرم الله مع العلم بذلك .

قال تعـــالى :

[اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَم ، وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ][2] .

الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العباد ، وقد وقع النصارى فى الشرك بسبب انحرافهم عن التوحيد الخالص لله وحده . وقد أمروا أن يعبدوا إلهاً واحداً هو الله وألا يتخذوا أحداً غيره رباً يعبد من دون الله ، ولكنهم افتروا على الله وضلوا سواء السبيل فعبدوا المسيح واتخذوه رباً ، كما عبدوا علماءهم وعبادهم ، لكن عبادتهم للعلماء والعباد كانت من نوع آخر غير عبادتهم المسيح عليه السلام .

فإنهم بالنسبة للمسيح تشعبت أقوالهم : فمنهم من قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، ومنهم الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة : هم الأب والابن وروح القدس . ومنهم من قالوا : إن المسيح ابن الله . وكل ذلك ذكر فى القرآن الكريم .

أما بالنسبة للعلماء والعباد فإنهم لم يقولوا فيهم : إنهم آلهة أو أبناء الإله ،

---

(١) الزمر : ١١، ١٥ .

(٢) التوبة : ٣١ .

ولكن أشركوهم مع الله تعالى فيما هو من خصوصيات الإله أصلا وحقيقة وهو التحليل والتحريم . فإن الحكم على الشيء بكونه حلالا أو حراماً هو تشريع من الله وحده ولا يحق لبشر أن يفعله إلا بإذن من الله تعالى وفى الحدود المرسومة ، كما أذن الله للرسل فى ذلك باعتبارهم معصومين ومبلغين عنه تعالى وكما أذن للعلماء أن يجتهدوا فيما لا نص فيه .

وهذه الآية قد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم — وكان نصرانياً قبل أن يسلم — ولما جاء مسلماً دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه هذه الآية . قال : — أى عدى — فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى معنى هذه الآية : هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين .

أحدهما : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر . وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك المخالف دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء .

الثانى : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً لكنهم أطاعوا علماءهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاصى ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » .

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه .

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عز قول الرسول فهذا له نصيب من الشرك الذى ذمه الله ولا سيما إن اتبع فى لك هواه ونصره باليد واللسان ، مع علمه أنه مخالف للرسل . فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد فى خلافه ، وإنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذى يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشى وغيره .

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله : من الاجتهاد فى التقليد . فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة ، وأما من قلد شخصاً دون غيره من نظرائه بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال فى القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار . اه . وهو كلام قيم وتفصيل نادر فافهمه واحرص عليه .

وبهذا التفصيل الدقيق يتضح لك موضع الخطورة فى اتباع الآخرين فى التحليل والتحريم والتشريع . ويتبع هذا بالأولى أن يعتبر مشركاً كل من رضى بدين غير دين الإسلام وهو يعلم الاسلام . أو رضى بأى مبدأ أو مذهب من المذاهب الحديثة أو القديمة يناقض المبادىء الإسلامية ويضادها وهو يعلم أن ما ارتضاه لا يرتضيه الله ورسوله ولا هو من دين الاسلام فى شىء . كما يدخل فى هذا الشرك والكفر كل إنسان قدس وعظم أى دين أو مبدأ من المبادىء المضادة للإسلام وهو يعلم ذلك . فما بالك إذا قدمها على الاسلام وأخره ؟ ؟ !

٢ – الذبح لغير الله تعـالى

الذبح الذى تحل به الذبيحة ويجوز الأكل منها نوعان :

١ – ذبح أريد به التقرب إلى الله تعالى كالذبح للهدى فى الحج والذبح للأضحية وللمنذر وكل ما هو مطلوب ذبحه شرعاً على سبيل الندب أو الوجوب .

٢ – ذبح أريد به الانتفاع بلحم الذبيحة وتحليله حيث لا يحل إلا بالزكاة الشرعية وذلك كالذبائح التى تذبح كل يوم ويتداولها الناس بالبيع والشراء وغيرهما .

والذبح الذى لا تحل به الذبيحة بحيث يحرم الأكل منها ثلاثة أنواع .

١ – الذبح الذى لم يستوف شروطه الشرعية مثل ذبح الحيوان من مكان غير مكان الذبح المشروع أو عدم قطع ما يطلب قطعه إلى غير ما ذكر من شروط فى كتب الفقه .

٢ – أن يذكر الذابح على الذبيحة وقت الذبح اسم غير الله تعالى : كأن يقول باسم المسيح أو باسم النبى الفلانى أو باسم الولى الفلانى لقوله تعالى :

[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ][1] .

ومعنى أهل لغير الله به : أى رفع الذابح صوته عند الذبح بذكر اسم غير اسم الله تعالى على عادة العرب فى ذكر أصنامهم عند الذبح ، فكان الذابح يقول باسم اللات : أو باسم العزى : والله تعالى لم يحدد اسماً معيناً تحرم الذبيحة بذكره بل حرم الله تعالى كل ذبيحة يذكر عليها عند الذبح

---

(١) المـائدة : ٣ .

اسم غير الله تعالى ، سواء أكان اسم صنم أو انسان أو جنى أو أى اسم غير اسم الله على الإطلاق .

٣ ــ أن يريد الذابح بذبحه التقرب بالذبيحة لغير الله تعالى : وذلك كأن يذبح الذبيحة تقرباً إلى ولى أو نبي أو حاكم أو جنى أو عفريت أو غير هؤلاء .

والدليل على ذلك ما فى الآية السابقة من قوله تعالى : «وما أهل لغير الله به » فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ظاهره أنه ما ذبح لغير الله تعالى مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا وإذا كان هذا هو المقصود فسواء تلفظ به أو لم يتلفظ . وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال فيه باسم المسيح أو نحوه ، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان هو أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه بسم الله . فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك من باب أولى ، فإن العباده لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله .

وعلى هذا : فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم ويعتبر هذا نوعاً من الشرك وإن قال عند الذبح : باسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقى هذه الأمة . . . ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ، ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن .

قال الزمخشرى : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن فأضيفت إليهم الذبائح لذلك . ا.هـ. كلامه وذكر إبراهيم المروزى : أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارى بتحريمه ، لأنه مما أهل به لغير الله .

ومن الأدلة الصريحة على تحريم الذبح لغير الله تعالى أمره تعالى بأن يكون الذبح له وحده دون سواه . فقال تعالى :

[قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ][1] .

والمراد بالنسك فى الآية الذبح كما قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير . ومعنى « ومحياى ومماتى » وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح .

وعن على رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات :

« لعن الله من ذبح لغير الله . لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غير منار الأرض » رواه مسلم .

ومعنى اللعن : « الطرد والإبعاد من رحمة الله » .

ومعنى آوى محدثاً : منع ونصر جانياً حتى لا يقتص منه ولا يؤخذ منه الحق الذى عليه وينفذ فيه حد الله ، وينتصر منه للمظلوم .

ومعنى : غير منار الأرض : قيل أراد حدود الحرم خاصة ، وقيل هو عام فى جميع الأرض ، أو أراد المعالم التى يهتدى بها فى الطريق ، وقيل : هو أن يدخل الرجل فى ملك غيره فيقتطعه ظلماً » ولا مانع من إرادة الجميع .

وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب . قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم . لا يجوزه (يمر به) أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما ، قرب . قال : ليس عندى شىء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً ، فخلوا سبيله فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب ، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » رواه أحمد .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

٣ ـ الذبح بمكان يذبح فيه لغير الله أو فيـــه معبود غير الله

عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة(١) فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود . وإسناده على شرطهما . أى على شرط البخارى ومسلم .

ويؤخذ من الحديث ما يأتى :

١ ـ أن يسأل المفتى ويستفصل عن الجوانب المتعلقة بالسؤال لتتضح له.

٢ ـ أن تخصيص أى بقعة ليفى بنذره فيها لا بأس به إذا خلا من الموانع .

٣ ـ يمنع الوفاء بالنذر فى مكان معين إذا كان ذلك فيه وثن من أوثان الجاهلية أو فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زوال الوثن والعيد فإن فعل فقد عصى الله تعالى بتشبهه بالكافرين ما دام يعلم ذلك ولو لم يقصد التشبه . ويدخل فى ذلك الذبح فى مقبرة معينة أو أمام ضريح معين أو فى أى مكان يزعم الناس أن الذبح فيه يرضى الجن مثلا أو يطرد العفاريت والأمراض الخ هذه الخرافات .

٤ ـ لا يجوز الوفاء بما نذر الناذر أن يذبحه فى تلك البقعة ، لأنه نذر معصية ، وعليه كفارة يمين ، وقيل : لا كفارة عليه ولا شىء .

٥ ـ لا نذر لابن آدم فيما لا يملك . فإذا قال مثلا : إن شفى الله مريضى فلله على أن أذبح بقرة فلان أو أتصدق بجزء معين من مال فلان فإن هذا النذر لاغ . أما إذا قال : إن شفى الله مريضى فعلى أن أنحر بعيراً مثلا وهو لا يملك البعير فإن النذر يلزمه ويتعلق بذمته كجميع الديون إن حصل شفاء المريض المذكور .

---

(١) بوانة بضم الباء وقيل بفتحها : موضع فى أسفل مكة .

٤ - النذر لغير الله تعالى

قال تعالى :

[قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ][1] .

فى هاتين الآيتين أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن يشركون مع الله غيره فى العبادة : إن صلاتى بجميع أنواعها وذبيحتى التى أذبحها للتقرب إلى الله تعالى ، وما أعمله فى حياتى من القربات وما أعمله عند الممات منها مثل الوصية بالصدقة وغيرها . كل ذلك أجعله لله وحده خالصاً من إشراك أحد معه تعالى ، وبهذا الإخلاص أمرت وأنا أول مسلمى أمتى وأول من علمها ودلها على الله والإخلاص له والصدق معه .

والنذر بإجماع المسلمين نوع من العبادة التى يتقرب بها إلى الله تعالى فإن كان خالصاً له فهو نذر صحيح ومشروع وإن كان لغير الله فهو حرام وباطل وإليك أقوال العلماء فى ذلك لتعرف حكم النذر للنبي أو للولى أو الأماكن أو الأشياء مما فتن به المسلمون .

قال الرافعى فى شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التى على قبر ولى أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء أو تردد فى تلك البقعة من الأولياء ، والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك – وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة – تعظيم البقعة أو المشهد أو الزاوية أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يدفع به البلاء ، ويستجلب

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم لينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت ، ويقولون : القبر الفلانى أو المكان الفلانى يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء المريض أو قدوم الغائب أو سلامة المال وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه .

وقال الشيخ الحنفى فى شرح درر البحار :

النذر الذى ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ، فيأتى إلى بعض الصلحاء ويقول : ياسيدى فلان ، إن رد الله غائبى ، أو عوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى ، فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع كذا . فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه : منها أنه نذر لمخلوق ، والنذر لمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك .

ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر ... إلى أن قال . إذا علمت هذا ، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام بإجماع المسلمين ، ولا يحل لأحد الانتفاع به بأكل أو غيره ولو كان فقيراً .

وقال الشيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله فيكون باطلا ، وفى التنزيل « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » الأنعام — ١٢١ . قل ان صلاتى الآية — ثم قال : والنذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما ما نذر لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك فهو بمنزلة أن يحلف بغير

الله من المخلوقات ، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ، ويقول ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف وقال فى حلفه واللات والعزى ، فليقل: لا إله إلا الله » .

وقال فى من نذر للقبور أو نحوها دهناً لتنور به ويقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين ، لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالا للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة ، فإن فيهم شبها من السدنة التى كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال الخليل فيهم : (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) والذين مر موسى عليه السلام وقومه عليهم بعد النجاة من مصر ، قال تعالى :

[وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ][1] .

فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين فى هذه البقاع نذر معصية ، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها ، أو لسدنة الأبداد فى الهند والمجاورين عندها .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » « زاد الطحاوى » « وليكفر عن يمينه » فيستدل من الحديث أن هناك نذراً بمعصية فلا يجوز تنفيذه . والنذر لغير الله تعالى هو نذر بمعصية فلا يحل أن ينفذ .

قال الحافظ : وقد يستدل بالحديث على صحة النذر فى المباح كما هو

---

(١) الأعراف : ١٣٨ .

مذهب أحمد وغيره ، ويؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وأحمد والترمذى عن بريده أن امرأة قالت يارسول الله ، إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدف فقال : « أوفى بنذرك » . فيستفاد من الآية والحديث السابقين وجوب الحذر من الوقوع فى المعصية بالنذر لغير الله تعالى كما يستفاد مما سبق حرمة أكل المال المنذور لغير الله تعالى واستفادة الأشخاص به ، لأنه سحت وشبيه بما كان يهدى لسدنة الأصنام فإن كان لا بد من صرفه فى وجوه الخير فليكن ذلك فى بناء المساجد وتعميرها وبناء المستشفيات والملاجئ ونحوها مما ليس فيه تمليك لفرد أو لأفراد من الناس ، والله الموفق .

٥ ـ الاستعاذة بغير الله تعالى من الجن والشياطين وغيرها

معنى الاستعاذة : هو الالتجاء والاعتصام ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأ . فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه ، واعتصم واستجار به والتجأ اليه . وهذا تمثيل وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله والاعتصام به ، والانطراح بين يدى الرب والافتقار إليه ، والتذلل له ، أمر لا تحيط به العبارة . قاله ابن القيم رحمه الله . وقال ابن كثير : الاستعاذة هى الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر . والعياذ يكون لدفع الشر ، والعياذ يكون لطلب الخير .

وقد بين القرآن أن الاستعاذة بالجن والشياطين لا تفيد المستعيذ شيئاً .

قال تعالى :

[وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً][1] .

---

(١) الجن : ٦ .

قال ابن كثير : أى كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا : أى إذا نزل الإنس وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيرها – كما كانت عادة العرب فى الجاهلية – يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان حتى لا يصيبهم شيء بسوء ، فكلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً : أى خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم .

وقال ملا على قارئ الحنفى : لا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله تعالى الكافرين على ذلك وذكر الآية ، وقال تعالى :

[وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ][1] .

فاستمتاع الإنسى بالجنى فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات . واستمتاع الجنى بإنسى تعظيمه إياه ، واستعاذته به ، وخضوعه له . اهـ . هذا باختصار .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب اليه بما يحب فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة بل يسميه استخداماً . وصدق ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به .

وقد بين الله تعالى لنا كيفية الاستعاذة فى سورتين تامتين من كتابه هما : « قل أعوذ برب الفلق » إلى آخرها ، و « قل أعوذ برب الناس » إلى آخرها .

---

(١) الأنعام : ١٢٨ .

كما بينها لنا النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « من نزل منزلا ، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » . رواه مسلم .

٦ – دعاء غير الله والاستغاثة به

الاستغاثة : هى طلب الغوث : وهو إزالة الشدة كالاستنصار : طلب النصر . والاستعانة : طلب العون . والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب . أما الدعاء فيكون من المكروب وغيره ، فهو أعم منها وبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة وينفرد الأعم . وعلى هذا فكل استغاثة دعاء ولا عكس .

وهذا الموضوع شائك خطير ، وجدير بالتنبيه إليه وتناوله بالدقة والحكمة ، فإن الفرق بين الجائز منه والممنوع قد يكون شعرة ، ومع دقة الفارق فإن الوقوع فى الممنوع قد يكون معناه الوقوع فى الشرك الذى هو كفر يؤدى إلى الخلود فى النار والعياذ بالله تعالى ؛ لذلك نقول :

إن الاستغاثة إذا كانت بالله تعالى فهى عبادة كالدعاء ، وهو تعالى الأحق بأن يستعاذ به ، والأحق بأن يدعى ويطلب منه كل شيء ، لأنه تعالى القادر على إغاثة من يستغيث به وإجابة من يدعوه ولذا قال تعالى :

[أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ][1] .

وقال تعالى آمرأ عباده بالتوجه اليه ودعائه :

[وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ][2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ : (وقال ربكم ادعونى استجب لكم) الآية – رواه أبو داود والترمذى وصححه وهذا لفظه.

---

(١) النمل : ٦٢ .

(٢) غافر : ٦٠ .

وإذا كان هذا شأن الدعاء والاستغاثة فلا يجوز لإنسان أن يستغيث بغير الله تعالى ، ولا أن يدعوه ويسأله قضاء حاجاته وإغاثته من مكروه نزل به إلا إذا كان المستغاث به والمدعو قد أذن الشرع بأن نستغيث به وندعوه . فالاستغاثة والدعاء الممنوعان هما الاستغاثة بالأصنام والأموات والجن والملائكة وأمثالهم ، لأن هذا نوع من الشرك ، وبسببه ضل كثير من الناس وانحرفوا عن الطريق الصحيح ، وهذا النوع هو الذى نزل فيه مثل قوله تعالى :

[وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وإِذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ][1].

وقوله تعالى :

[إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ][2] .

وهذا يوضح أن هذا النوع من الاستغاثة شرك بالله تعالى وكذلك ما يماثله من الدعاء ؛ ولذا قال تعالى :

[وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ][3] .

والاستغاثة والدعاء ؛ يجوز توجيههما إلى الإنسان الحى فى حالات معينة أذن الشرع بها ، وقد تكون واجبة . وذلك مثل أن يقع الإنسان فى كارثة

---

(١) الأحقاف : ٥ ، ٦ .
(٢) فاطر : ١٤ .
(٣) يونس : ١٠٦ .

ومصيبة يرجو الخلاص منها ، كأن يقع فى نهر أو بئر فيطلب من يغيثه وينقذه ، وكأن يصطدم بسيارة ، أو تشب فيه نار ، أو يصاب بمرض من الأمراض ، وأمثال هذه الأمور التى تعارف الناس واعتادوا على أن يطلبها الإنسان من الإنسان ، ولم يأت من الشرع ما يمنع ذلك ، وتلك أمور واضحة ، والفرق بينها وبين الأمور الأولى الممنوعة لا يخفى على من له أدنى فهم .

٧ - الغلو فى الأنبياء والصالحين

للأنبياء عليهم الصلاة والسلام مكانة فى نفوس المؤمنين ، ولهم واجبات وحقوق وأنواع من التبجيل والاحترام مطلوبة ومشروعة ، وقد فصلها الشارع وبينها .

ولكن النفوس البشرية جبلت على ألا يقف تصورها عند حد إذا لم يرتبط بأصول معينة تمنعه من التغالى والزيادة عن الحد المشروع .

وكذلك حدث فى جميع الأمم أن غالت فى تصوراتها بأنبيائها والصالحين فيها حتى أعطتهم ما ليس لهم من حق ، وجعلتهم آلهة أو أشباه آلهة . فاستغاثت بهم بعد موتهم ووجهت الدعاء والاستغاثة إليهم ، وركعت لهم وسجدت ، ونذرت لهم الأموال والذبائح وسألتهم جلب المنافع ودفع المضار ، ونسبت إليهم ما يحدث من كوارث ومصائب أحياناً ، وأحياناً أخرى تنسب إليهم ما يحدث من رخاء ونعيم وشفاء أمراض ودفع بلاء وغير ذلك ، سواء أكان الأنبياء والصالحون قابعين فى قبورهم ، أم اتخذ الناس لهم صوراً تمثلهم كالأصنام والتماثيل وغيرها .

وبذلك جعلهم الناس شركاء لله ، وقدموا إليهم من الولاء والطاعة والعبادة والقربات ما لا يجوز أن يقدم إلا لله تعالى ، وذلك كفر صريح لا شك فيه .

وقد حذر القرآن والسنة من هذا الانحراف ونبهنا إليه فى مواضع كثيرة .

قال تعالى :

[يَاأَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ ، إنَّما الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ ، انْتَهُوا خَيراً لَّكُمْ ، إنَّمَا اللهُ إلٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى باللهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعاً][1] .

واضح من الآيتين أن الله تعالى ارتضى بالنسبة لرسوله عيسى عليه الصلاة والسلام حداً معيناً ونسبة محدودة من التقدير والتعظيم ، وهى النسبة التى أخبر الله تعالى أنه أفاضها عليه وأكرمه بها ، ولكنه تعالى لم يرتض الزيادة على ذلك والغلو فى المسيح ، وأنكر على أتباعه أن جعلوه إلهاً أو ابن الله أو ثالث ثلاثة كما جاء ذلك فى سورة المائدة ، فإن أى رسول أو ملك مقرب ما هو إلا عبد خاضع ذليل لله تعالى ، فيجب على المؤمنين ألا يرفعوا أحداً إلى مرتبة الألوهية وإلا اعتبر ذلك غلواً مرفوضاً وشركاً مكفراً .

وفى الصحيح عن ابن عباس فى قوله تعالى :

[وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً][2] .

---

(١) النساء : ١٧١ ، ١٧٢ .   (٢) نوح : ٢٣ .

قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن ينصبوا إلى مجالسهم التى كانوا فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت » .

وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوها .

وعن عمران أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » البخارى ومسلم .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هلك المتنطعون » « قالها ثلاثاً » رواه مسلم ، والمتنطعون المراد بهم هنا المغالون فى الدين .

ومن المغالاة المقيتة بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين ، واتخاذ القبور مساجد ، وذلك بالصلاة فى القبور أو بالتوجه إلى هذه القبور أثناء الصلاة بأن يجعل القبر بين يدى المصلى : وذلك بقصد التبرك بالقبور ، وبمن فيها : فقد ترتب على ذلك أن عبدت القبور ، وعبد من فيها على الوجه الذى سبق ذكره .

ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم تحذيراً شديداً من هذا النوع من المغالاة ، وظل يحذر منه إلى آخر وقت فى حياته .

فعن عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » البخارى ومسلم .

وعنها قالت : « لما نزل(١) برسول الله عليه وسلم طفق(٢) يطرح خميصة(٣) له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد – يحذر ما صنعوا – ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً » رواه البخاري ومسلم .

وروى مالك فى الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

٨ – الريـــاء

وهو أن يحسن المرء عمله أمام الناس حتى إذا خلا مع نفسه أو مع رفقة مماثلين له أساء العمل .

قال صلى الله عليه وسلم : « من أحسن الصلاة حين يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربه تبارك وتعالى : » رواه عبد الرزاق وأبو يعلى وابن جرير الطبرى .

وقال تعالى مبيناً حال المنافقين :

[إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى ، يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً](٤) .

وقال تعالى محذراً من الرياء وأمثاله من أنواع الشرك :

[فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً](٥) .

---

(١) حضر وقت موته .
(٢) أخـــذ .
(٣) نوع معين من النسيج .
(٤) النساء : ١٤٢ .
(٥) الكهف : ١١٠

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من صام يرائي فقد أشرك . ومن صلى يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك » رواه البيهقي .

٩ ــ السحر

وهو عبارة عن تعاويذ شيطانية وأعمال معينة يترتب عليها خداع الآخرين حتى يتخيلوا أموراً لا حقيقة لها ، كأن يتخيل العصا حية ، واللبن دما ، والسحاب جيشاً . وقد اتفق العلماء على أن فعل السحر كفر إن فعل على الوجه المذكور من الاستعانة بالشياطين والاستهانة بالدين والقرآن وأمثالهما .

وقال كثيرون : إن هذا الساحر يقتل حدا ، ولم يجوز السحر أحد من العلماء إلا إذا تعلمه إنسان أو عمله ليدفع به ضرراً وقع بمسلم كأن يفك سحر ساحر ويبطل عمله ، بشرط أن لا يعمله بشيء محرم شرعاً ، وفيما عدا ذلك فهو حرام ممنوع تجب محاربته لما فيه من فتنة للناس والإضرار بهم ، وقد يكون كفراً كما سبق وذلك للأدلة الآتية :

قال تعالى :

[وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ][1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله : وما هي ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم

(١) البقرة : ١٠٣ .

الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » رواه البخارى ومسلم .

وعن جندب مرفوعاً « حد الساحر ضربه بالسيف » رواه الترمذى وقال : الصحيح أنه موقوف ، وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبيد قال : « كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، فقتلنا ثلاث سواحر » .

وصح عن حفصة رضى الله عنها : أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها . قلت : وبهذا أخذ أبو حنيفة ومالك وأحمد فقالوا : يقتل الساحر إذا لم يتب ، ولم ير الشافعى القتل عليه بمجرد السحر إلا إذا عمل فى سحره ما يبلغ الكفر ، وبه قال ابن المنذر ، وهو رواية عن أحمد .

١٠ - إتيان الكهان والعرافين بجميع أنواعهم

وهم الذين يزعمون أنهم يعرفون المغيبات من أمور الناس ، فيضحكون عليهم ، ويسخرون بهم ، ويأكلون بالباطل أموالهم .

فهؤلاء لا يليق بمسلم أن يأتى إليهم ، ولا يحل له أن يصدقهم ، ويجب عليه محاربتهم بالكلام ، وبزجرهم ، وبتبليغ الحاكم والمسئولين عنهم ، وتنبيه الناس إلى أضرارهم .

فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

قال ابن تيمية : العراف اسم الكاهن والمنجم والرمال ، ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق . والمراد بالكفر هنا هو التشبه بالكافرين فى الجاهلية لا أنه كافر حقيقة . وروى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »(١) .

---

(١) الروضة الندية جـ ٢ ص ٢٩٣ .

قال الإمام النووى وغيره : معناه أنه لا ثواب له فى هذه الصلاة ، وان كانت صحيحة ومجزية بسقوط الفرض عنه ، ولا بد من هذا التأويل فى هذا الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين يوماً .

١١ – كل قول أو فعل يتنافى مع الإيمان

قال الشوكانى : الذى يسب الله أو رسول الإسلام ، أو الكتاب ، أو السنة ، والطاعن فى الدين ، كل هذه الأفعال موجبة للكفر الصريح ففاعلها مرتد ، حده حد المرتد (يعنى القتل) قال الشارح : أخرج أبو داود والنسائى من حديث ابن عباس أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبى صلى الله عليه وسلم فقتلها ، فأهدر النبى دمها . وقال : وكفر من فعل هذه الأشياء لا يحتاج إلى برهان .

وقال : ومن اعترف بالدين ظاهراً وباطناً لكنه يفسر بعض ما ثبت من الدين بالضرورة بخلاف ما فسره الصحابة والتابعون وأجمعت عليه الأمة فهو الزنديق (أى الكافر) كما إذا اعترف بأن القرآن حق ، وأن ما فيه من ذكر الجنة والنار حق ، ولكن المراد بالجنة الابتهاج والسرور والفرح الذى يحصل بسبب الملكات المحمودة أو الأفعال الحسنة . والمراد بالنار هى الندامة التى تحصل بسبب الملكات (الأخلاق) المذمومة ، وليس فى الخارج جنة ولا نار . . إلى أن قال :

والتأويل (أى التفسير) للكتاب والسنة تأويلان :

تأويل لا يخالف قاطعاً من الكتاب والسنة واتفاق الأمة ، وتأويل يصادم ما يثبت بدليل قاطع فذلك هو الزندقة . فكل من أنكر الشفاعة أو أنكر رؤية الله تعالى يوم القيامة ، أو أنكر عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ، أو أنكر الصراط والحساب فهو مبتدع فاسق وحده القتل .

---

(١) الروضة الندية ص ٢٩٣ .

(٢) نفس المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٩٦ .

وعن ابن كثير فى تفسير قوله تعالى :

[فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً][1] قال :

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا قال : « لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » . أى إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجاً (ضيقاً) مما حكمت وينقادون له فى الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة(٢) .

وبذلك ندرك إدراكاً لا شك فيه أن أى مسلم يدعى إلى تحكيم كتاب الله تعالى وسنة رسوله فلا يرضى بذلك ظاهراً أو باطناً فهو كافر بإجماع المسلمين ، ومثله من تدعوه إلى دين الله وكتابه وسنة نبيه وأحكام الشريعة فإذا به يمتنع ويفضل التشريعات غير الإسلامية على التشريعات الإسلامية ؛ لأن هذا يكذب آية الله التى أخبرت أن الإسلام كمل فلا نقص فيه ، وأنه نعمة تمت ودين ارتضاه الله لسعادة عباده قال تعالى :

[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً][3] .

فمن لم يرض بحكم شرعى واحد فهو كافر ، ومن ادعى أن دين الله ناقص فهو كافر ، ومن لم يؤمن بأن شرع الله ودينه الإسلامى نعمة تامة فقد كفر . وهذا إجماع لا ينكره إلا مكابر مصادم صراحة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) النساء : ٦٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٢٠ .
(٣) المائدة : ٣ .

وقال ابن كثير فى معنى قوله تعالى :

[أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ][1] .

ينكر تعالى على من خرج من حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكيزخان) الذى وضع لهم الياسق : وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى : من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير(٢).

وبذلك ندرك خطورة ما عليه الناس اليوم فإنهم جميعاً إلا من رحمه الله تعالى ، قد انصرفوا إلى الأخذ من كل منهل غير الإسلام ، وارتضوا كل تشريع إلا تشريع الله ورسوله ، وحكموا بغير ما أنزل الله راضين مستسلمين خانعين أذلاء متسولين . فبماذا يحكم ابن كثير عليهم وقد حكم على من هم أقل منهم انحرافاً بالكفر والقتل ؟؟

سبحانك اللهم حول أمتنا إلى ربها ودينها ورسولها لتستحق نصرك وتأييدك . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على المختار رحمة لسائر المخلوقات ، وعلى آله وصحبه أولى الفضل والمكرمات .

---

(١) المائدة : ٥٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٧ ط عيسى البابى الحلبى .

العبادات وصلتها بالعقيدة

العبادة مأخوذة من « عبد » بمعنى إنسان خاضع ذليل لسيده ومالك أمره قال تعالى :

[إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا] (1) .

أى خاضعاً ذليلا للرحمن

وعبد الطريق ذلله ، وعبد إنسان إنسانا أخضعه له ، قال موسى عليه السلام رداً على فرعون فى صلفه وكبريائه :

[وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟] (2)

والمعنى : هل تعتبر إخضاعك بنى إسرائيل لظلمك وجورك وإذلالك لهم نعمة تستحق أن تمن بها على ؟ إن هذا قلب للحقائق .

وعلم الله المسلمين أن يقولوا فى كل ركعة من الصلاة :

[إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] (3)

والمعنى : لا نعبد أحداً غيرك ، ولا نستعين بأحد سواك ، فأنت وحدك المستحق للعبادة ، وأنت وحدك المعين لمن يستعين بك .

وكل شىء أخضعت نفسك له خضوعاً يتنافى مع إسلامك فأنت عابد له وهو مستعبد لك ولو كان لا يعقل هذا الاستعباد ولا يقصده ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم كما روى البخارى :

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ »

---

(1) مريم : 93 .
(2) الشعراء : 22 .
(3) الفاتحة 5 .

وعبادة الله تعالى معناها الخضوع لله تعالى خضوعاً كاملا فى جميع ما جاء به كتابه الكريم ، وفى جميع ما بينه نبيه العظيم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم مع شدة الحب لله ، وشدة الخوف منه ، وهى بهذا المعنى تشمل الخضوع لله فى العقيدة وأنواع القرب كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها ، وفى أنواع المعاملات ، كالزواج والطلاق والبيوع والشركات ، والمداينات والتجارة والصناعة والزراعة ، وفى أنواع الأخلاق كالوفاء ، والصدق ، والعدل والأمانة ، وفى كل ما يتصل بنظام حياتنا الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بشرط واحد هو أن يريد المسلم بخضوعه وجه الله تعالى ، ويطلب به رضاه . فإذا التزم المسلم بالعمل بالكتاب والسنة ، وفعل ما أمره الله به ، وترك ما نهاه الله عنه قاصداً بذلك وجه الله فهو عابد لربه يستحق على عبادته المثوبة فى الدنيا والآخرة ، ولو كان عمله فى ظاهره عملا دنيوياً محضاً ، يشهد لذلك قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لسعد بن أبى وقاص :

« إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِها وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْها حَتَّى اللُّقْمَةَ تَضَعُهَا فِى فَمِ امْرَأَتِكَ » .

وجاءت أحاديث كثيرة صحيحة أخبر النبى — صلى الله عليه وسلم — فيها أن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن السلام على المسلم يرفع الدرجات عند الله ، وأن كف اللسان عن الشر صدقة ، وأن إعانة المحتاج صدقة ، وأن زيارة الأخ فى الله ، وعيادة المريض المسلم ، والتبسم فى وجه المسلم ، وإرشاده إلى ما ينفعه ، والسعى على النفس أو الزوجة والأولاد . كل ذلك وغيره وغيره يعتبر عملا تعبدياً يثاب عليه المسلم ويؤجر على فعله ، كما يؤجر على الصلاة والصيام والصدقة .

ومن هنا ندرك أن معنى العبودية لله والخضوع له معنى عام شامل يدخل فى دائرته كل أمر يفعل أو يترك على أساس الدين وشريعة الله تعالى مع

النية الصالحة . فمن شارك مسلماً والتزم فى شركته العمل بالكتاب والسنة فهو عابد لله فى هذه الشركة . ومن عاشر زوجته بالمعروف كما أمره الله يبتغى بذلك وجه الله فهو عابد لله . ومن تاجر فصدق فى تجارته وبين مافيها من عيوب يخشى الله فى ذلك فهو عابد لله ، ومن حكم بما أنزل الله فى أية قضية بنية الخضوع لحكم الله فهو بذلك عابد لله .

ومن اجتهد فى طلب العلم – ولو كان علما مادياً – يريد بذلك نفع أمته الإسلامية وكان صادقاً فى إرادته فهو عابد لله .

والخلاصة أن كل إنسان مسلم يلتزم بالكتاب والسنة مبتغياً بذلك رضاء لله تعالى فهو عابد لله تعالى بالمعنى العام المطلق لكلمة « عبادة » كما سبق .

وهذا هو معنى العبودية الحقة التى يخرج بها الإنسان من الشرك والوثنية إلى الإسلام والتوحيد كما جاء فى الكلمة التى أخبر الله ورسوله أنها كلمة التوحيد ، وكلمة العبور من الشرك إلى الإيمان ، والخلاص من جميع الآلهة من أجل الالتجاء إلى إله واحد هو الإله الحق . . وهو الله تعالى والكلمة هى كلمة : لا إله إلا الله .

ومعناها : لا معبود يستحق العبادة إلا الله .

فقائلها يرفض الخضوع لجميع الآلهة ما عدا إلهاً واحداً هو الله ؛ لأنه الإله الحق . فهو يكفر بآلهة القبور والقباب وكل من قدسه الناس من الموتى بغير إذن من الله .

ويكفر بآلهة الجن والملائكة والشياطين الذين توهمهم الناس فعظموهم وأحبوهم أشد من حبهم لله ، ونذروا لهم النذور ، وقدموا لهم القرابين ، وجعلوهم شركاء فى أموالهم بشكل يثير الاشمئزاز والنفور ، ويخجل العقل البشرى الواعى .

ويكفر بآلهة البشر الأحياء من العلماء والزعماء والكبراء الذين اتخذهم الناس آلهة يخضعون لهم فيما يغضب الله ، وأرباباً يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، ويتخذون للناس شرائع وقوانين مضادة لشريعة الله وقانونه .

وما لم يكفر المسلم بجميع هؤلاء وأشباههم فهو ليس مسلماً ولا مؤمناً على وجه الحقيقة ، لأنه لم يستسلم لله ، ولم يوحده حين آمن به ، لأنه خاضع لغيره فيما لا يرضيه .

وحسب هذا المفهوم الواضح الخطير يستطيع أن يعرف كل إنسان نفسه هل هو عبد لله أم عبد للشيطان من الإنس أو الجن ؟ .

وليحذر كل امرئ خطورة الموقف بين يدى الله تعالى يوم القيامة حين يفصل فى القضاء بين الناس ويقول لأتباع الشياطين :

[وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ؟] (١) .

العبادة حسب المفهوم الخاص :

عرفنا أن العبادة حسب المفهوم العام والأصلى لهذه الكلمة يراد بها الخضوع للمعبود مع شدة حبه والحرص على رضاه والخوف من غضبه .

ولكن العرف الإسلامى جرى على حصر العبادة فى أمور معينة : منها الصلاة والدعاء والزكاة والصيام والحج والذكر ، والجهاد . . . الخ ، وذلك عندما صنفوا العلوم الإسلامية فى عهد السلف الصالح تسهيلا للتعليم ، ووضعاً لكل نوع فى الإطار الذى يناسبه من الخطورة والأهمية ، والمميزات والشروط وغيرها .

فقسموا العلوم الإسلامية إلى : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق . . وغيرها .

والأسباب التى جعلتهم يحصرون العبادات فى الأمور المذكورة أهمها ما يأتى :

أولا : هذه الأعمال لا تنعقد ولا تصح إلا بنية التقرب بها إلى الله تعالى ، قال تعالى :

---

(١) يس : ٥٩-٦١

[فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا][1] .

فمن صلى ، أو صام ، أو زكى ، أو حج ، أو اعتمر ، أو جاهد بغير نية فإن عمله باطل ، وإن نوى به غير وجه الله تعالى فكذلك ، وهذا بخلاف المعاملات والأخلاق والسياسات وغيرها ، فإن العقود فيها تصح بنية وبغير نية ، وتصح سواء كانت النية لله أو لغيره . كل ما فى الأمر أنها إن قصد بها وجه الله أثيب صاحبها وإلا فـلا . فلو تزوج إنسان امرأة لمالها أو لجمالها أو لحسبها فإن الزواج صحيح ، غير أنه لا ثواب فيه ، لأن الثواب فى المعاملات والأخلاق وأمثالها يأتى نتيجة نية صالحة .

وكذلك عقود البيع والتجارة والشركات ، والمعاهدات بين الدول ، والاتفاقيات بينها ، أو بين الأشخاص بعضهم مع بعض فى جميع أمور الحياة لا يشترط فى صحتها أن يراد بها وجه الله ، بل تصح بدون هذه الإرادة ، أو بإرادة سيئة كإرادة الرياء ، والجاه والاستعلاء ، والمنافع الشخصية ، والإضرار بالآخرين . كمن اشترى داراً بنية الإضرار بالجيران أو بساكن معين فى الشارع .

ثانياً : هذه الأمور مطلوب من المسلم أداؤها كما أمر الله تعالى وبين رسوله – صلى الله عليه وسلم – سواء فهم المسلم الحكمة فى أدائها أم لم يفهم . إنها خضوع خالص لله تعالى على الوجه الذى جاءت به الشريعة ، فإن كان العبد مستسلما حقاً نفذ أمر الله وأمر رسوله بدون أن يسأل : لم شرع ؟ ولم كان على هذا النظام ؟ ولم لم يكن على نظام كذا وكذا . إن عليه أن يقول :

[سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ][2] .

صحيح أن جميع شرع الله يجب أن يتلقاه المسلم بالقبول والتسليم والخضوع له سواء فهم الحكمة أو العلة أم لم يفهم ، غير أن باب المعاملات أوضح

---

(١) آخر الكهف .
(٢) البقره : ٢٨٥

الشارع أنه قائم على مصلحة المسلم ، وأنه ما دامت هناك مصلحة فهناك شرع الله ، وما دام هناك ضرر فهناك منع الله وتحريمه .

ومجال الاجتهاد فى المعاملات مفتوح دائماً ، وتحدث للناس أحكام بعدد ما يحدث من أقضية ومشكلات كما قال عمر بن عبد العزيز ، ولذلك من سن سنة حسنة فى المعاملات من أجل مصالح المسلمين فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وليس الأمر كذلك فى العبادات فإن الواجب فيها الوقوف على ما جاء منصوصاً عليه فى الكتاب والسنة بدون زيادة أو نقصان . فمن ابتدع فقد ضل وهوى . ولذلك جرى الفقهاء على أن يقولوا هذا « أمر تعبدى » يعنى نأخذه كما جاء بدون تدخل مطلقاً من جهتنا وهذا « أمر غير تعبدى » يعنى لنا فيه مجال واجتهاد حسب أصول مشروعة .

ثالثاً : العبادات عبارة عن أعمال يعملها العبد بينه وبين الله مباشرة بدون أدنى حاجة إلى وسيط أو وسيلة من الخلق ، ولو دخل فيها وسيط لتحولت إلى وثنية ، وذلك كما كان الكفار يفعلون لأصنامهم من تقديم النذور ، والدعاء والاستغاثة وطلب الحاجات ، وتفريج الكربات قائلين :

[مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى] (١) .

فهى عقد بين العبد وبين الله مباشرة إذا وفى العبد بشروطه نال من فضل الله ثوابه وحسن جزائه . أما جميع المعاملات فهى أعمال بين عبد وعبد ، فهى مرتبطة أصلا بتعامل الناس بعضهم مع بعض على أساس الدين .

رابعاً : العبادات مطلوبة من كل مسلم سواء كان هناك حسب نظره داع إلى فعلها أم لم يكن ، لأن الله وحده هو العليم بأمرنا وبما يصلحنا فيما بيننا وبينه ، فمثلا لو لم يوجد إنسان محتاج للزكاة وجب إخراج الزكاة من المال وينتظر بها وقت الحاجة ، ولا يجوز لمسلم إبقاء نصاب الزكاة داخل ماله اعتماداً على عدم وجود محتاج .

---

(١) الزمر : ٣

وكذلك لو أحس إنسان أن كل آثار الصيام هو متصف بها فلا حاجة إلى صيامه رمضان ، فإنه لا يجوز له أن يفطر ولو فعل لوجب تعزيره واعتبر فاسقاً ومجرماً ، وهكذا قل فى الصلاة والحج والذكر والدعاء والجهاد وغيرها .

وهذا بخلاف المعاملات الاجتماعية والمالية والاقتصادية وغيرها فإنها موقوفة على الحاجة إليها فإن وجدت الحاجة كانت وإلا فلا . وهذا غير رقم (٢) فإن هذا جانب آخر مختلف عنه فى النظر .

والخلاصة أن العبادات سميت بهذا الاسم وخصصت به عرفاً لأنها لا تصلح أن تؤدى إلا على وجه التعبد لله تعالى ، ولذلك يوصف الملتزم بها ، والمغرق فيها بأنه عابد وبأنه تقى وولى وصالح . . . الخ . بشرط الالتزام بالكتاب والسنة فى جميع تصرفاته وأن يكون ذلك كله مبنيا على عقيدة سليمة .

مكانة العبادة وصلتها بالعقيدة :

١ — حين تذكر العقيدة فى الكتاب والسنة فإنما يراد بها العقيدة الحية المؤثرة التى تحدث تغييراً شاملا فى النفس ، وفى الفكر ، وفى الثقافة ، وفى المبادئ والقيم ، وفى السلوك والعمل ، وفى تحديد الأهداف والغايات . ولن تكون العقيدة كذلك إلا إذا نشأت عن إعمال الفكر ، واقتناع العقل ، واطمئنان النفس إلى جميع قضاياها .

أما عقيدة التقليد والوراثة ، والمناخ والبيئة ، والتبعية وضياع الشخصية ، عقيدة المحاكاة للآخرين فى غباء ، وترديد ما يقوله الكبار فى بلاهة وبلادة وصغار ، فإنها لا تصلح أن تسمى عقيدة ولا أن يكون لها اعتبار فى نظر الإسلام .

وهى لذلك لا تكون شخصية ، ولا تقوم معوجاً ، ولا تنير لصاحبها طريقاً ، ولا تعطيه عطاء جديداً يحدد له الهدف والغاية ، ويرسم له السبيل والوسيلة .

إن العقيدة الحية أصحابها أحياء ، فى مشاعرهم ووجدانهم ، فى صدقهم مع الله وثباتهم ، فى حبهم لله وخوفهم منه ، فى ذكرهم لله واندفاعهم فى

طاعته . فى خشيتهم لله ونفورهم من معصيته ، فهم لهم شخصية تميزهم عن جميع البشر . ولذلك كانوا غرباء .

إن الذين يدعون الإسلام والإيمان كثيرون ، ولكن دعواهم يفضح كذبها سلوكهم المشين ، وأخلاقهم السيئة ، وانحرافهم عن الصراط المستقيم . وانخراطهم فى سلك الغواية والضلالة والسقوط بدون خجل أو حياء .

إن أمتنا الإسلامية اليوم تعيش فى تناقض كبير بين الكلمة التى تقولها ، وبين الأعمال التى تميزها عن غيرها . . . فهى تنطق بكلمة الإسلام . وتردد شعائر الإيمان ، وتكثر من قراءة القرآن . . . بينما أعمالها تقليد لأعدائها ، وحياتها فى أكثريتها تعتبر ترديداً لحياة من غضب الله عليهم ولعنهم فى جميع كتبه ، وشعورها بشخصيتها شعور ناقص يزرى بكرامتها ويحط من قدرها . . . ومكانتها الرائدة قد اهتزت كثيراً حتى فى نفوس أبنائها . . . كل ذلك بسبب ضعف العقيدة ، أو موتها . ولا أمل فى إصلاح إلا على أساس إحيائها وتقويتها .

إن الذى يقول : « لا إله إلا الله والله أكبر » بعمق فكر ، وصدق صلة ، ولذة معرفة بالله ، يشعر بزلزلة كيانه ، وانفعال وجدانه وأركانه ، وامتلاء قلبه بنور الله ، وامتزاج روحه بفيض رحمة الله ، وعزة انتمائه إلى حزب الله . ويجد أبواب السماء مفتحة له ، وملائكة الرحمة محيطة به وحملة العرش يستغفرون الله له ويطلبون له ولذريته وأزواجه وآبائه الرحمة والجنة ، لذلك يندفع فى حب يطلب رضاء الله بطاعته ، ويسهر الليل عابداً ، أو يقضى النهار صائماً ، ويحمل سيفه ساهداً ويضحى بنفسه وماله فى سبيل ربه ، لا يبالى بمشقة أو تعب ، ولا يشكو من بلاء أو نصب ، له فى كل خير قدم ثابتة . وفى كل عبادة وفضيلة منزلة سامية .

لو منعته الصلاة لبكى وقال : « كيف تحرمنى الركوع والسجود لعظمة الله ؟ » .

ولو منعته الصيام أو الذكر لقال : « وكيف أحيا مؤمناً وأنا مقطوع الصلة بالله ؟ » .

ولو دفعته إلى منكر لقال لك : « قتلى أهون من إقدامى على معصية الله » .

وهكذا لا تجد مؤمناً صادقاً إلا وهو عابد صالح ، ولا تجد عابداً صالحاً إلا وهو مؤمن صادق .

فالعقيدة الحية هى : اندفاع فى العبادة الحقة ، والعبادة الحقة ناشئة عن عقيدة حية .

العقيدة شجرة ، والعبادة ثمرة :

[أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فى السَّماءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ][1] .

فمن لا عبادة له فلا عقيدة له ، ولذا جاء فى حديث صحيح :

« مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ فَقَدْ كَفَرَ » .

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف لا تجد العمل التعبدى إلا جزءاً من العقيدة ، وفرعاً قائماً على أصولها ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِم

(١) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥

يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] (١) .

وقوله تعـــالى :

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُون] (٢) .

وجاء فى حديث رواه البخارى وغيره :

« الإِيمانُ بِضعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً ، أَعْلاها لا إِلٰه إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » .

وجاء فى الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس :

« آمرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَه ، أَتَدْرُونَ مَا الإِيمانُ بِاللهِ ؟ شَهَادَةُ أَن لا إِلٰه إِلا اللهُ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَإِقامُ الصَّلاَةِ وإِيتَاءُ الزَّكاةِ ، وأَن تُؤَدُّوا الخُمُسَ من الْمَغْنَم » .

وانظر قوة الربط بين الإيمان بالله وتحكيم آياته وسنة رسوله فى حياة المؤمنين وما يعرض لهم من قضايا فى قوله تعالى :

---

(١) الأنفال : ٢ – ٤

(٢) الحجرات : ١٥

[فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا][1] .

وليس أصرح من نفى الإيمان عمن ادعاه حين لم يعمل بمقتضاه من قوله تعالى :

[وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ][2] .

ولهذا ذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهوية وسائر أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلى أن اسم الإيمان يراد منه تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، بمعنى أن من آمن بقلبه ونطق بالشهادتين ولكنه لم يعمل بمقتضى الإيمان فإنه يسمى كافراً ، بمعنى أنه كافر بنعمة الله تعالى ، ولم يقم بواجب شكره ، وليس المراد أنه كافر كفر التخليد فى النار ، فإن أحداً من المذكورين لم يقل بذلك ، هـ . ملخصا من شرح الطحاوية ص ٢٣٦ .

وبناء على ما تقدم ندرك أن فيض العقيدة الصادقة الحية ، ونور الإيمان الغامر المؤثر والشعور بالقرب من الله ومراقبته فى كل لحظة وخطوة ، كل ذلك يجعل العبادة أمراً مطلوباً للنفس ، وضرورياً لها بحيث لو لم يفرضه الشرع لطالبت النفس بالإذن به لأن فيه متعتها وسعادتها وقوام حياتها ، ولذا كان صلى الله عليه وسلم يقول كما جاء فى البخارى وغيره :

« وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ »[3] .

---

(١) النساء : ٦٥ .

(٢) النور : ٤٧ .

(٣) رواه البخارى وغيره .

٢ ـ كل صاحب عقيدة يضبط سلوكه وجميع أقواله وأفعاله على مبادئ عقيدته ، ويستمد قوة ارتفاعه أو هبوطه من الأصول التى اعتنقها وآمن بها . . تجد ذلك واضحاً فى حياة وتصرفات وسلوك الشيوعى والوجودى والا. بلالى ، كما تجده فى سلوك الشيعى والسنى والدرزى والقاديانى والبهائى ، كما تجده فى سلوك اليهودى والنصرانى والبوذى وغيرهم .

فما لم يظهر على المسلم أثر عقيدته فمعنى ذلك أنه إنسان غير عقائدى ، وبالتالى فهو لا شخصية له . . وأهم شيء يظهر ملامح عقيدته عباداته الممثلة فى أركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج وذكر ودعاء وقراءة قرآن ، وحب لله وخوف منه وتوكل عليه . . . الخ .

٣ ـ للعبادات فى الإسلام وظائف تقوم بها ، وآثار تتفرع عنها وتترتب عليها ، ولا يحيط علماً بهذه الوظائف والآثار أحد غير الله تعالى ، ونحن يظهر لنا منها قدر ما تطيق عقولنا ، فمن أقام هذه العبادات فقد أقام كل ما تفرع منها ، ومن أضاعها فقد أضاع كل آثارها . . . فكيف يسمى نفسه بعد ذلك مسلماً أو مؤمناً على وجه الحقيقة من أضاع أهم ما فى هذا الدين وحطم أعظم أركانه التى ما خلق إلا لأجلها ؟ قال تعالى :

[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ][١] .

فالصلاة صلة مستمرة بين العبد وربه ، تظهر فيها عبوديته لخالقه ، وخضوعه لجلال الله وجماله وكماله . . . فمن قطع هذه الصلة فقد قطع عن نفسه موارد الرحمة ، وحرم مناجاة ربه ، وعاش مبتوراً ضائعاً تلعب به الشياطين كيف تشاء .

والصيام فترة تربية وتهذيب للنفس ومراجعة بين العبد وخالقه تكشف للإنسان جوانب ضعفه ، وتنمى فيه أسباب قوته ، وتأخذه مما ألف واعتاد وهوى إلى ما يحب الله ورسوله ، وفيه تربيته ونجاته .

---

(١) الذاريات : ٥٦

والزكاة كنز الله يفاض على أصحاب العقيدة الواحدة . فيجمع الصف ، ويوحد الجمع ، ويطهر القلوب من الحسد والحقد . والنفوس من البخل والأنانية ، ويجعل الجميع يشعر بأن المؤمنين رحماء فيما بينهم ، أقوياء بتعاونهم ، سعداء بأخوتهم ، قادرون على أن يكونوا أغنى أهل الأرض حين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

أما الحج فإنه مجمع الوفود والأفئدة ، ورياضة للفرد والجماعة ، ووقوف في المشعر يشبه الوقوف في المحشر ، ومنـــاجاة وضراعات ، وبكاء واستغاثات ، ومراجعة للنفس في اليوم المشهود يوم عرفات . فيه تلين القلوب لربها ، وتخشع النفوس لمعزها ومذلها ، وتلتقي أفكار المسلمين وعقولهم في حل المشكلات وإقامة صروح المجد والكرامة والرخاء للمسلمين . فيه يشهد المسلمون منافع لهم ، ويرفعون اسم الله ويذكرونه على ما هداهم . فلو صدر نداء من جميع ملوك الأرض لجميع المسلمين في صعيد واحد على الوجه المعروف يوم الحج الأكبر ما استطاع جمعهم . فهل يليق بمسلم بعد ذلك أن يهمل نداء الله إلى عبادته ؟ وهل يسمى مسلماً من حرم قلبه وجوارحه عبادة الله فذبل عود عقيدته ؟ وهل هناك شقاء أشد من حرمان من يدعى الإيمان بالله وهو يتمرغ في وحل كسله وشهوته ؟

٤ ــ العبادات في كل دين هي شعائر الله المعلنة عن هذا الدين والمظهرة لقداسته وتعظيمه في النفوس ، فإذا أضاعت الأمة هذه الشعائر فهي لمـــا سواها أضيع ، وإذا حافظت عليها فهي أشد محافظة على غيرها ، فهي معيار الأمة ومخبارها ، وعلامة نجاحها في الدين أو سقوطها ، ولذا قال تعـــالى :

[وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ] (١) .

وشعائر الله هي معالم دينه وأماراته .

آثار العبادة النفسية والاجتماعية :

(١) الإشراق الروحي والنقاء النفسي . قال تعالى :

---

(١) الحج : ٣٢

[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى][1].

(٢) الاطمئنان القلبي والاستقرار العاطفي . قال تعالى :

[أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ][2].

(٣) الهداية والتوفيق لما فيه خير المتعبد وسعادته فى الدنيا والآخرة .
قال تعالى :

[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ][3].

(٤) الحصول على شرف ذكر الله لعبده وتكريمه له بإفاضة الرحمات عليه . قال تعالى :

[فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ][4].

وقال تعالى :

[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا][5].

---

(١) الأعلى : ١٤، ١٥

(٢) الرعد : ٢٨

(٣) الأنفال : ٢٩ والمراد بالفرقان : ما يفرق به المرء بين الحق والباطل، وبين الخير والشر .

(٤) البقرة : ١٥٢

(٥) الأحزاب : ٤١-٤٣

(٥) الحصول على نصر الله وتأييده وتمكينه للمؤمنين فى الأرض .
قال تعـــالى :

[وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ] [١]

(٦) وجود الترابط الاجتماعى والتآخى الروحى ، والتعاون بين المؤمنين العابدين . قال تعالى :

[وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [٢] .

(٧) وحدة الصف ، وجمع الكلمة ، وقوة الأمة ، وذلك بسبب اجتماع أفرادها كل يوم خمس مرات فى الصلاة ، وتعاطفهم وتراحمهم بأداء الزكاة ، وتآمرهم وتشاورهم فى الجمع والأعياد والحج ومواسم التجميع الربانى . ولو راجع المسلمون دينهم ، ورجعوا إلى ربهم ، وقاموا بواجبات التعبد لله كما أمروا لعادت لهم قوتهم ووحدتهم وعزتهم ، واستخلصوا حقوقهم من أيدى أعدائهم بشرف الجهاد والتضحية والدماء الطاهرة ، وما تخبطوا عشرات السنين فى متاهات وظلمات وخزى لا يرضاه لنفسه كريم أبى .

---

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١
(٢) التوبة : ٧١

بين العقيدة والأخلاق

حين تكون العقيدة حية فى أنفس المؤمنين ، فإنها تضىء جوانب النفس ، وتكتسح جميع الظلمات ، وتشرق بسببها شمس الحقيقية فى القلوب ، وينتفض الكيان الإنسانى بها انتفاضة الحق فيرمى بالباطل بعيداً بعيداً حتى كأنه لم يوجد .

وهذه العقيدة كما عرفنا فيها جلال الربانية ، وكمال الألوهية ، وروح الكلمات القرآنية ، ونور الإرشادات المحمدية ، فلا مثيل لها على الاطلاق يمكن أن يملأ الوعاء الإنسانى بالسعادة ، ويحول الفكر الإنسانى إلى التشبع بفيوضات الرحمة والعزة والقوة والاطمئنان والركون الكامل والخضوع الذليل السعيد لله الذى يقول للشىء كن فيكون .

فإذا أضيف إليها الأعمال التعبدية السابقة فإن هذه العقيدة تظل حية مؤثرة ، وتزداد فى النفس فاعليتها ، وتدوم أنوار إشراقها ، وتطهر القلوب عما يعلق بها من ران وصدأ من آن لآخر بسبب غلطة ، أو ذنب يرتكبه الإنسان ساعة حمق وجهالة . . . وكل ابن آدم خطاء . . كما جاء فى الحديث الصحيح .

وبالعقيدة التى يرتكز عليها الفكر والتكوين العقلى الإسلامى ، والتغيير إلى الخط الإلهى ، وبالعبادة التى تنمى العقيدة ، وتحافظ على إشراقها وحيويتها وفاعليتها يظهر الجانب الخلقى الجميل فى الإنسان المؤمن أوضح ما يكون ، وأحسن ما يكون .

فالأخلاق الإسلامية وليدة العقيدة الإسلامية النقية المشرقة المؤثرة كما أنها أثر من آثار العبادة الحقة ، والعبودية الصادقة لله وحده ، ولانقول :

إن هذا الأثر لازم للعقيدة والعبادة ، ولكن نقول : إنه شبيه باللازم فى تأكد وقوعه ، ما لم توجد موانع ، ولذلك يربط القرآن والسنة كثيراً بين الإيمان والعبادة ، وبين الأخلاق الإسلامية ، فيقول تعالى فى الصلاة :

[إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ](1) .

ومعنى ذلك أن الصلاة الحقة تطهر الإنسان من الأخلاق الذميمة ، وتنمى فيه الأخلاق الحسنة ، وذكر الله أكبر تأثيراً وتطهيرا ، وسيتضح أمر الأخلاق ومعناها فيما يأتى .

وقال تعالى فى الزكاة :

[خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا](2) .

فالزكاة مطهرة من الذنوب ومزكية لفاعلها بمعنى أنها تنمى فى نفسه جوانب الجمال والكمال بعد أن طهرته من العيوب والذنوب والنقائص ، والآيات فى ذلك كثيرة بالنسبة للعبادة .

وفى العقيدة يقول تعالى :

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ](3) .

ويقول تعالى :

[وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ](4) .

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ (العدل) شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ](5) .

---

(1) العنكبوت : ٤٥ .
(2) التوبة : ١٠٣ .
(3) الحجرات : ١٠ .
(4) التوبة : ٧١ .
(5) النساء : ١٣٥ .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَه ، وَمَنْ كَانَ يُؤمنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَه ، ومن كان يُؤْمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيراً أَوْ لِيَصْمُتْ »[1].

فالربط واضح بين الإيمان والأخلاق . وذلك كثير جداً لو تتبعته .

معنى الخـــلق :

قال فى القاموس المحيط : الخلق : السجية والمروءة والطبع والدين . وهذا من معانيه فى اللغة ، أما عند علماء الأخلاق فإن له تعاريف كثيرة سواء عند قدماء الفلاسفة أو محدثيهم ، أو عند علماء الإسلام ، وأقرب تعريف إلى الصحة هو تعريف الإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ فى كتابه « إحياء علوم الدين » وهو موافق لتعريف ابن مسكوية الفيلسوف الإسلامى المتوفى سنة ٤٢١هـ فى كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » .

قال الغزالى فى تعريف الخلق اصطلاحا : « الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعاً ، سميت الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئاً » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التميز بين الجميل والقبيح ، وإنما هو الهيئة النفسية والحالة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الجميل أو القبيح اهـ . من « الاخلاق عند الغزالى » للدكتور « زكى مبارك » ومن إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ١٤٣٤ الصادر عن دار الشعب بالقاهرة .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

فقوله : « هيئة » معناها : حال أو صفة ، أو ملكة .

وقوله : « راسخة » معناها : ثابتة ومستقرة حتى تصلح أن تسمى خلقاً ، فإن من تظهر منه الشجاعة أو المروءة على وجه الندور لا يسمى شجاعاً ، ولا ذا مروءة . ولا يقال : إنه متخلق بالشجاعة أو المروءة .

وأما قوله : « تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر أو روية » فذلك لأن الذى يتكلف العمل بعد أن يفكر ويزن المصلحة والمنفعة المترتبة على فعله، والمضرة المترتبة على تركه لا يسمى ما صدر عنه هـذا العمل خلقاً . كالشخص الذى يدعى إلى البذل فينظر ويفكر حتى يصل إلى أن عدم البذل المطلوب سيفوت عليه منفعة ، أو يجلب عليه مذمة ونقصاً ، ثم يمد يده بالبذل بعد ذلك فإنه لا يسمى جواداً .

ولا يخفى على القارئ الصلة بين المعنى اللغوى (السجية والطبيعة) والمعنى الاصطلاحى الذى سبق تفصيله .

الأخلاق طبيعية أم كسبية ؟ :

هذا سؤال اختلف حوله العلماء كثيراً ، قديمهم وحديثهم ، فلاسفة وغير فلاسفة . والرأى المختار ، وهو الذى نص عليه الكتاب الكريم والسنة النبوية هو : أن الأخلاق منها ما هو طبيعى ، ومنها ما هو كسبى .

والمراد من الطبيعى أن الإنسان بعد التميز نجده مفطوراً على أخلاق معينة ، فمثلا نجد بعض الأطفال يتصف بالحياء ، أو العفة ، أو الشجاعة بدون تدريب أو تعليم ، وكذلك نرى بعضهم فى صغره يتصف بالجبن ، أو البخل ، أو الشر ، بدون تدريب أو تعليم ، أو حتى تقليد للأقربين .

والمراد بالكسبى هو الخلق الذى يربى عليه الإنسان ويدرب بأساليب التربية المختلفة ، والتى منها التلقين ، والتقليد ، والوعظ ، والترغيب والترهيب . . . الخ .

قال تعـالى :

[فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا][1] فطرى .

وقال تعـالى :

[إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ][2] كسبى .

وجاء فى حديث مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للمنذر بن عائذ ويلقب بالأشج . (أشج عبد القيس) :

« إِنَّ فيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ : الحِلْمُ والأَنَاةُ » .

وزاد فى مسند أبى يعلى وغيره أنه قال حين قال النبى صلى الله عليه وسلم له ذلك : يا رسول الله : كانا فى أم حدثا ؟ قال : « بل قديم » قال :

الحمدُ لِلهِ الذِى جَبَلَنى (خلقنى) علىَ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهما [3]

وإذا ثبت أن من الأخلاق ما هو مكتسب ومنها ما هو فطرى فإن علينا أن ندرك أن الاكتساب يكون بالعلم ، والتدريب وأساليب التربية المختلفة كما يكون بالتقليد والمحاكاة للغير من أب وأم وإخوة وأصدقاء ، وغيرهم من أفراد المجتمع ، كما يكون للمعارف وأنواع العلوم تأثيرها الأخلاقى كذلك طبيعة الأمكنة والأحوال التى تعيشها الأمة ، وأنواع المسارح ، والملاهى ، ودور عرض الأفلام ، وجميع أجهزة الإعلام لها تأثير واضح على الأخلاق . فى تكوينها ، وتعديلها ، وتغييرها .

وهل يمكن التأثير على الأخلاق الفطرية الطبيعية (أى التى نشأت مع الطفل أو نشأ بها الطفل) أو لا يمكن ذلك ؟

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) الرعد : ١١ .

(٣) شرح مسلم جـ ١ ١٨٩ « طبيعى وكسبى » .

والجواب : أن الطبيعة إن أريد بها الغريزة فإن التأثير فيها بالتغيير غير ممكن عادة ، ولكن الممكن هو التحكم فى الغريزة حتى تكون على مستوى وسطى بدون إفراط أو تفريط . وذلك مثل غريزة الحاجة إلى الطعام والماء ، وغريزة القتال ، وغريزة حب الاستطلاع ، وغريزة الجنس وغيرها ، وذلك ما يسمى فى علم النفس « إعلاء الغرائز » أى التسامى بها لتؤدى ما خلقت له بدون انحراف .

وإن أريد بالطبيعة الميول والرغبات فإن هذه يمكن التأثير فيها بالتعديل وبالتغيير ويشهد لذلك ويثبته ما جاء فى الحديث الصحيح :

« كُلُّ مَوْلودٍ يُولَدُ على الفِطْرة ، فأَبَواهُ يُهَوِّدانِه أَو يُنَصِّرانِه ، أَو يُمَجِّسَانِه » .

وهذا هو المراد من كلمة « طبيعى أو فطرى » : أى الميول والرغبات التى ولد بها الإنسان .

خطـــر يجب تداركه :

إذا كانت الأخلاق كسبية فى أكثرها ، وما هو طبيعى منها يكون صالحاً للتغيير والتعديل ، فمعنى ذلك أن البحث فى المؤثرات التى يتأثر بها الإنسان حتى تتكون فيه ملكات أخلاقية معينة يعتبر أمراً لازماً وهاماً .

وإذا عرفنا أن المؤثرات المحبوبة إلى النفوس العادية وهى فى نفس الوقت تصل إلى الجميع بسهولة وبدون كلفة ، كما أنها تكون مناخاً عاماً يعيش فيه الأفراد ، سواء قصدوه أم لم يقصدوه ، إذا عرفنا ذلك ازداد الأمر أهمية وخطورة ، فإن الناس فى عصرنا هذا سواء منهم الكبار والصغار ، والبنون والبنات قد فتحت عليهم جميع أبواب الآداب والفنون ، ما هو صالح منها وما هو فاسد ، كما فتحت عليهم جميع أجهزة الإعلام ، الشرقية والغربية ، المتحفظة والإباحية ، الإيمانية والكفرية ، ما يدعو منها إلى الفضيلة وما يدغدغ الغرائز ، ويلهب المشاعر ويؤجج فيها الثورة على كل ما هو

دين وفضيلة وسمو ، وعلينا أن ندرك أن الأسرة مناخ خاص ، وأن المدرسة مناخ خاص ، وكذلك الجامعة ، والمسجد ، والمكتب والشركة .. وأن هذا كله متفاعل مع المناخ العام الذى هو البلد . والمجتمع . والأمة . والدولة . والمنطقة . والعـالم ، وأن كلامنهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، والأقوى تأثيراً له الغلبة والكلمة الأخيرة فى أخلاق الناس . وقد دخلت الإذاعة كل بيت ، واقتحم التلفاز كل منزل ، وأصبح الشبان والشواب ، والناشئون والناشئات بين شقى رحى ، فهذه أسرة تأمر بالدين وتحرص عليه ، وتلقن البنين والبنات كل ما هو خير وفضيلة ، ولـكن أجهزة الإعلام ليست كلها مع الدين ، أو الفضيلة ، أو الخلق ، ويستطيع أى إنسان أن يدير مفتاح المذياع ليسمع العهر والفجور والدعوة الصريحة إلى الفحش من بلاد كثيرة فى العالم ، ويستطيع أن يشترى من المجلات والكتب ما هو بؤرة فساد ودعارة ، وما هو حرب على الدين والفضيلة وكل خلق كريم . زد على ذلك الشوارع العامة والمسارح ، ودور العرض « السينمائى » وغيرها مما ملأ الجو العام فساداً ، وكل من عاش مع الناس أدرك الحيرة والاضطراب ، وأدرك الظلام والضباب والفتنة التى يعيش فيها الجميع . والواقع أن المناخ العام أفسد كل ما أصلحه المناخ الخاص ، وكل جهود المصلحين اليوم تعتبر ضائعة ، والنادر لا حكم له .

لذلك يجب على الباحثين والمصلحين ، والغيورين على الدين ، وعلى الأخلاق ، وعلى الشبان والشواب أن يطوروا كثيراً من المناهج الفكرية ، والعلمية ، والتربوية . وأن يبحثوا بحثاً جدياً من أجل إنقاذ أجيال أضاعوها أو كادوا بسبب الجمود ، والروتينية البغيضة ، والفهم الضيق للدين والحياة ، والمؤثرات الخطيرة على الاثنين معاً .

لقد قام مصلحون كثيرون . ونادوا ، وبحت أصواتهم . ولا يزالون يفعلون ، فمتى تستجيب أمتنا المسلمة ، ومتى تدرك الخطر ، ومتى تصدق مع نفسها ومع الله ، ومع شبابها . حتى تنقذ الغرقى ، والحرقى ، ومن أصيبوا بطاعون الانهيار الخلقى ، ومن انهالت عليهم جميع الأتربة والرمال التى حملتها رياح الكفر والفسوق والفجور والضياع والضلال ؟؟

الإسـلام ومكارم الأخلاق :

مما سبق عرفنا أن الأخلاق منها ما هو حسن ، ومنها ما هو قبيح . . والميزان فى ذلك هو الشرع ، فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع . أما العقل فهو تابع للشرع فى ذلك . وهذا هو رأى أهل السنة والجماعة وهو الحق الذى لا يقبل غيره .

وللأخلاق الحسنة فى الإسلام مكانة عالية ، ودرجة رفيعة ، وأهمية كبيرة حتى جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والحاكم والبيهقى قوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .

والحصر بـ « إنما » يفيد أن معنى الحديث : ما بعثت إلا لأتمم مكارم الأخلاق .

وقد أثنى الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق فقال له :

[وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ][1] .

واقرأ هذه الآية التى جمعت مكارم الأخلاق بشهادة الكفار أنفسهم :

[إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ][2] .

واقرأ الوصـايا العشر فى آخر سورة « الأنعام » ابتداء من قوله تعالى :

[قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . .] إلى [تَتَّقُونَ][3] .

---

(١) القلم : ٤ .

(٢) النحل : ٩٠ .

(٣) الآيات من (١٥١ إلى ١٥٣) .

واقرأ الوصايا الخمس عشرة من سورة «الإسراء» ابتداء من الآية (٢٢ إلى آخر ٣٩) وغيرها وغيرها ، فإنك لن تجد امرأً من أوامر الله ولا نهياً من نواهيه إلا وهو خلق يطلب منك أن تتصف به لحسنه ، أو يطلب منك الا بتعاد عنه والتطهر منه لقبحه ، حتى العبادات والعقائد التى هى الأصول فى التكوين والتشريع ، إنها فى نفس الوقت أصول فى الأخلاق الكريمة التى يجب أن يتحلى بها الإنسان فيما بينه وبين الله أولا ، ثم فيما بينه وبين الناس ثانياً .

والمتتبع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم سواء فى الحض على مكارم الأخلاق أو فى تفضيل وتبيين هذه الأخلاق وشمولها لجميع الجوانب والعلاقات الإنسانية يجد ما يبهر العقول ، ويعجز الفكر البشرى عن استيعابه واستيعاب أسراره وآثاره ، ولذلك حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حض أمته على حسن الخلق وإظهار ثوابه وجزائه فى الدنيا والآخرة . من ذلك ما روى :

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال :

« البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ ، والإِثْمُ ما حَاكَ فى صَدْرك (أى أثر فيه) وكرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَاسُ »[1] .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« مَا مِنْ شَىْءٍ أَثقَلَ فى مِيزان المؤمنِ يومَ القِيامةِ من خُلُقٍ حَسَنٍ ، وإن اللهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِىءَ »[2] .

---

(١) رواه مسلم والترمذى .

(٢) رواه الترمذى وابن حيان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَاسَ بخُلُق حَسَنٍ »[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَكْمَلُ المؤمنين إيمانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وخِيارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِأَهْلِهِ »[2] .

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِليَّ وأَقربَكُم مني في الآخرةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا ، وإِن أَبْغَضَكُم إِليَّ وأَبْعَدَكُم مِنِّي في الآخِرةِ أَسْوَأَكُمْ أَخْلاقًا الثَّرثَارُونَ المُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ »[3] .

الثرثارون : هم كثيرو الكلام تكلفاً .

المتفيهقون : هم الذين يتوسعون في الكلام إظهاراً للفصاحة واستعلاء على غيرهم .

المتشدقون : هم المتكلمون بملء أشداقهم تفاصحاً وتعظيما لكلامهم . .

الضمير والأخلاق :

كلمة الضمير تتردد كثيراً في كلام الأخلاقيين والاجتماعيين وعلماء النفس والفلسفة وغيرهم ، والناس إذا أرادوا مدح إنسان لأنه تصرف طبقاً

---

(١) رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه أبو داود والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد ، ورواته رواة الصحيح .

للمبادئ التي يؤمن بها وشعر بمسئوليته أمام نفسه فإنهم يقولون : إنه رجل ذو ضمير .

وعندما يمتنع إنسان عن عمل لا يتفق مع تقديره للمثل العليا والمبادئ الكريمة فإنه يقول : إن ضميري لا يرضى عن ذلك ، أو يقول : إنني أشعر بتأنيب ضميري .

ومن الواضح أن المقصود بالضمير في هذه الأحوال كلها هو الحاكم الذي نطيعه والرقيب المشرف على إرادتنا في داخل أنفسنا ، والحارس الساهر على المحافظة على المبادىء التي يجب أن نعمل بمقتضاها .

ومن الواضح أن هذا الضمير يباشر وظيفته داخل الإنسان على أساس إدراكه قيمة الأفعال والأقوال ، وإدراك أحكامها وآثارها من غير أن يبالى بالعواطف والأهواء والمصالح الشخصية .

إن هذا الذي نسميه « الضمير » شيء يتميز به الإنسان ، وهومن عجائب الطبيعة البشرية . وقد عرفه العلماء بأنه « صوت ينبعث من أعماق الصدور آمراً بالخير ، وناهياً عن الشر ، وإن لم ترج مثوبة أو تخشى عقوبة » .

والضمير حسب هذا التعريف الذي سار عليه الفلاسفة وعلماء الأخلاق وغيرهم ، له جانب مشرق وجانب مظلم .

فالجانب المشرق هو جانب خضوع الضمير للمبادىء الحقة ، والشرائع التي أنزلها الله تعالى وجعلها نظاماً للبشر ، وهداية لمن أخذ بها .

والجانب المظلم هو جانب خضوع هذا الضمير لمبادئ ظالمة وفاسدة أملتها وكونتها ظروف البيئة أو الأمة ، أو التقاليد والمواريث وغيرها ، لأن التعريف تكلم عن ضمير له مبادئ مطلقة وغير مقيدة بشرع .

فمثلا : جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة للاحتقار وتأنيب الضمير .

ونهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لا يقاسون عند نهبه تأنيب الضمير ، وليس هذا فقط ، بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، وفى عصرنا هذا يوجد ناس ينكرون وجود الله ، وآخرون يفعلون كل منكر ولا يشعرون أن ضميرهم ينكر ذلك .

إذاً فالضمير حسب التعريف السابق لا يصلح أن يكون ميزاناً نعتمد عليه نحن الإسلاميين إنما يجب إذا أطلقناه تبعا لغيرنا أن نخضع مفهومه لما جاء فى الشرع .

إن المسلم يشعر شعوراً كاملا بأنه يجد داخل نفسه حاكماً يحكم تصرفاته ، وحارساً يقظاً يبصره بأخطائه ، ويؤنبه عليها ، كما يشعر بوجود وازع ودافع إلى الخير ، وإلى ما ينفع نفسه وغيره ، وزاجر يزجر عن الشر ، ويقيم فى النفس معركة ضده .

ولكنه يشعر أن هذا الحاكم فوقه قوة أعلى تأمره وتراقبه وتحذره . وهى قوة الله تعالى . وذلك إذا كان المسلم حياً فى إيمانه ، قوياً فى يقينه ، متصل القلب بربه . هذا الشعور يسمى عند المسلمين البصيرة ، والمراقبة ، والإيمان ، والخوف من الله . . . الخ . فإن أردت أن تسميه ضميراً فلا مانع ، ولكن على أساس أنه حارس لحدود الله ، وحاكم بحكمه ، ومؤنب للإنسان بسبب مخالفته ومعصيته لربه ، جاء فى حديث الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى سأله عن الإحسان :

« الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

وجاء فى كتاب الله تعالى قوله :

[بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ] (١) .

---

(١) القيامة : ١٤ .

ويؤسفنى أن أجد الكتاب الإسلاميين قد وقع كثير منهم فى غلطة فهم الضمير والكلام عليه حسب آراء الفلاسفة ، ولم يفكر فيما وضعه كتاب الله وسنة من أسس للرقابة على أعمال الإنسان وأقواله .

إن الفتاة التى تربت فى مدرسة الإسلام خير من جميع العلماء والفلاسفة الذين فتن بهم المسلمون . . إنها حين قالت لها أمها : قومى اخلطى اللبن بالماء لتبيعه . قالت لأمها : إن أمير المؤمنين نهى عن ذلك ، فلما قالت الأم : إن أمير المؤمنين لا يرانا . قالت الفتاة : « ولكن الله يرانا » أرأيت أجمل من هذا وأوقع منه فى النفس ؟

وجاء فى الحديث الصحيح أن ابنة عم أحد الفتيان فى الزمن الغابر أصابتها حاجة وشدة فقر ، فطلبت من ابن عمها الغنى مساعدتها ، فأبى إلا إذا مكنته من نفسها ، فأبت أول الأمر ثم رضيت بعد أن عضها الجوع ، فلما تمكن منها قالت له : « اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه » فأثرت فيه الكلمة .. كلمة « الله » فانصرف عنها وترك لها المال . فهل نجد مثل هذا أو قريباً عند المتكلمين عن الضمير من خلال الفلسفة بعيداً عن الشرع ؟

لقد أردت بذكر الضمير هنا تصحيح خطأ شائع ، وتنبيه شبابنا إلى الدقة فى التعبير عن الأشياء .

والأصل فى الإنسان المسلم أن رقابته لله ، وخوفه منه ، واستسلامه النفسى لأحكامه هى التى تحكم تصرفاته ، وتهيمن على جميع شئونه ، وتضبط كل أنواع سلوكه وأخلاقه .

والأصل فى المنهج الإسلامى أنه يربى المسلم على العقيدة الحية ، ويصله بالله صلة وثيقة ، ثم يلقى إليه بجميع التعليمات والتوجيهات ، والأوامر والنواهى ليكون بالعقيدة أميناً على تنفيذ ما يلقى إليه .

وأى قارىء فى تاريخ الإسلام، والمسلمين.. يجد ثروة أخلاقية لا مثيل لها ، سواء فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، أو فى حياة أصحابه

وأتباعهم وأتباع أتباعهم ، وكل من جاء بعدهم واستمسك بدينه ، وراقب ربه ، ونفذ شرع الله تعالى كما جاء فى الكتاب والسنة .

ولن تجد صرح الأخلاق بين المسلمين متهدماً إلا إذا كان الإسلام فى نفوسهم وفى حياتهم شعاراً فقط واسما لا مداول له فى الجانب العملى ، فقد سبق أن عرفنا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بعث بشرع من عند الله من أجل إتمام مكارم الأخلاق . فأى إنسان يعمل بهذا الشرع ويلتزم به هو قمة أخلاقية ، وأى إنسان يهمل هذا الشرع أو ينبذه هو مثل سيئ فى مجال الأخلاق ، أو قل هو أسوأ مثل أخلاقى وإن ملأ الدنيا بالدعاوى ، واستدرج البسطاء إلى تصديقه .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تكملة ذات أهمية

أهم الفرق الإسلامية

لكى تتم الفائدة بالنسبة لإلمام القارئ بعلم العقيدة الإسلامية رأينا أن نقدم للقارىء فكرة عن بدء تدوين هذا العلم ، والأسباب التى دعت إلى ذلك وأهم الفرق التى تكونت بسببه ، وإليك البيان .

نشأة علم الكلام أو علم التوحيد

كثر البحث فى العصر العباسى فى العقائد واتخذ ألواناً لم تكن أيام النبى صلى الله عليه وسلم ولا الأولين من صحابته ، وأخذت هذه البحوث تتركز ليتكون منها علم جديد يسمى علم الكلام .

ولنشأته أسباب داخلية وأخرى خارجية . أما الأسباب الداخلية فهى :

(١) تعرض القرآن بجانب دعوته إلى التوحيد لأهم الفرق والديانات التى كانت منتشرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فرد عليهم ونقض أقوالهم . فكان طبيعياً أن يسلك علماء المسلمين مسلك القرآن فى الرد على المخالفين ، وكلما جدد المخالفون وجوه الطعن جدد المسلمون طرق الرد .

(٢) كاد ينتهى العصر الأول فى إيمان خالص من الجدل ، ولما فرغ المسلمون من الفتح واستقروا أخذوا ينظرون ويبحثون ، فاستتبع هذا اختلاف وجهة نظرهم فاختلفت الآراء والمذاهب .

(٣) خلافهم فى المسائل السياسية كان سبباً فى الخلاف الدينى . وأصبحت الأحزاب فرقاً دينية لها رأيها : فحزب « على » تكون منه الشيعة ، ومن لم يرض بعلى تكون منهم الخوارج . ومن كره خلاف المسلمين كون فرقة المرجئة وهكذا .

أما الأسباب الخارجية فهى :

(١) كثير ممن دخل الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة يهودية ونصرانية ومجوسية وصابئة وبراهمة وغيرها وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى لباس دينهم الجديد .

(٢) جعلت الفرق الإسلامية الأولى وخاصة المعتزلة همها الأول الدفاع عن الدين ، والرد على المخالفين ، وكانت البلاد الإسلامية معرضاً لكل الآراء والديانات ، يحاول كل فريق تصحيح رأيه وإبطال رأى غيره ، وقد تسلحت اليهودية والنصرانية بالفلسفة فدرسها المعتزلة ليستطيعوا الدفاع بسلاح يماثل سلاح المهاجم .

(٣) حاجة المتكلمين إلى الفلسفة اضطرتهم إلى قراءة الفلسفة اليونانية والمنطق والتكلم فى شأنها والرد عليها .

نشأة الفرق الإسلامية

كانت الخلافة هى المسألة التى اشتد نزاع المسلمين فيها وكان من أثره أن تكونت ثلاث فرق من أكبر الفرق الإسلامية وهى :

(١) الشيعة الذين يرون أن الأحق بالخلافة بعد رسول الله على بن أبى طالب .

(٢) والخوارج القائلون بأن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر بين المسلمين .

(٣) والمرجئة وهم الذين كرهوا هذا الخلاف وابتعدوا عن الفريقين وأرجأوا الحكم فيهما لله .

ولما انتهى المسلمون من الفتح ودخل فى الإسلام كثير من أصحاب الديانات الأخرى : اليهودية والنصرانية والمجوسية والدهرية وغيرها أخذت تظهر أفكار جديدة صيغت من أصحاب الديانات القديمة فى ثوب دينهم الجديد . وكانت العراق وخصوصاً البصرة مظهراً لجميع الملل والنحل ،

فقامت جماعة يقولون بحرية الإرادة وعلى رأسهم معبد الجهنى وتكونت منهم فرقة القدرية ، كما كانت هناك جماعة أخرى يسلبون الإنسان إرادته وعلى رأسهم جهم بن صفوان وتكونت منهم فرقة الجبرية

وسط هذا الاضطراب الفكرى والمبادىء التى كونتها كل فرقة لنفسها قام جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين على طريقة القرآن . ومن أشهرهم الحسن البصرى ، وكان من أثر اختلافه مع تلميذه واصل بن عطاء أن تكونت فرقة المعتزلة التى كان لها الفضل الأكبر فى الدفاع عن العقيدة وكان هذا فى أوائل القرن الثانى الهجرى . وفى أواخر القرن الثالث ظهر الإمام « أبو منصور الماتريدى » واشتغل بالرد على أصحاب العقائد الباطلة وتكونت منه ومن أتباعه فرقة الماتريدية .

كما ظهر الإمام « أبو الحسن الأشعرى » وأعلن انفصاله عن المعتزلة وأعلن مبادئه الجديدة التى وافق عليها خيرة علماء المسلمين وظهرت بهذا فرقة الأشاعرة ومن هاتين الفرقتين تكونت جماعة أهل السنة . وسنكتب كلمة موجزة عن كل فرقة من هذه الفرق مؤخرين الكلام عن الشيعة إلى الانتهاء من الكلام عن غيرها .

الخوارج

لما رأى معاوية أن الدائرة عليه فى حربه مع على أمر جنوده برفع المصاحف وطلبوا تحكيم كتاب الله ، ورضى على بالتحكيم ولم يرض بهذا التحكيم فريق من المحاربين مع على وقالوا : لانحكم أحداً فى دين الله (لاحكم إلا لله) وانشقوا على الإمام على . وقد سميت هذه الجماعة بالخوارج وحاربهم على وهزمهم كما كانت لهم حروب مع الأمويين . وقد قال الإمام على فى آخر أيامه : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » . وقال عمر بن عبد العزيز فى شأنهم : « إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا أو متاع ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها » .

مبادئهم :

(١) يجب أن تكون الخلافة باختيار حر من المسلمين وإذا اختير إمام لها فلا يصح أن يتنازل عنها أو يُحكِّم فيها ، وليس بضروري أن يكون الإمام من قريش . ويجب أن يخضع لما أمر الله وإلا وجب عزله .

(٢) ثم وضعوا مبدأ دينياً وهو : أن الإيمان ليس اعتقاداً وإنما هو اعتقاد وعمل ، ومرتكب الكبيرة كافر ، ومن رجالهم عبدالله الراسبي ونافع بن الأزرق ونجد بن عامر .

المرجئة

لما انقسم اتباع على بسبب رضائه التحكيم إلى خوارج وشيعة وكان الخوارج يكفرون علياً ومعاوية والقائلين بالتحكيم . والشيعة منهم من يقول بكفر أبي بكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم ويرون أنهم مبطلون ، كان هذا سبباً في ظهور جماعة كرهوا هذا النزاع وسلكوا طريقاً خاصاً حتى تنجلى الفكرة فقالوا بإيمان الجميع ، وإن كان بعضهم مصيباً وبعضهم مخطئاً وحيث أننا لا نستطيع تعيين المصيب والمخطىء فلنرجئ أمرهم إلى الله ؛ لأنهم جميعاً يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وسميت هذه الجماعة بالمرجئة ثم تدرج بحثهم فى أمور دينية فعرفوا الإيمان بأنه معرفة الله ورسوله ثم تغالت هذه الطائفة وقالت : الإيمان: الاعتقاد بالقلب والعمل لا أثر له مطلقاً حتى قالوا: العبارة المشهورة لهم : (لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة) وقد ذابت هذه الفرقة بعد العصر الأموى .

الجبرية

وزعيمهم جهم بن صفوان وهو من خراسان ومن الموالى الذين أقاموا بالكوفة ، وقد تكون منه ومن أتباعه فرقة الجبرية . القائلين بأن الإنسان مجبور كالريشة فى الهواء .

مبادئهم : القول بنفى صفات الله تعالى حتى لا يشبه الناس . وخلق القرآن وإنكار رؤية الله فى الآخرة وفناء الجنة والنار بعد نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار . وقد نهض كثير من العلماء للرد عليهم لأمرين :

(١) مسألة الجبر ، لأنها تدعو إلى التعطيل وترك العمل والركون إلى القدر ، لأن الإنسان لا عمل له ولا قدرة .

(٢) ومسألة المغالاة فى تأويل الآيات التى تثبت صفات الله ، وفى هذا التأويل خطر على القرآن وتفهم معانيه .

القدرية الأولى

كانت العراق مجمعاً لعناصر من الأمم ذوات الديانات المختلفة ، وكانت البصرة بحراً يموج بالآراء والنحل ، وقد سمع معبد بن عبد الله الجهنى – وكان ممن يجالس الحسن البصرى – من يتعللون بالقدر فقام بالرد عليهم نافياً كون القدر سالباً للاختيار ، وتطرف فى الدفاع حتى قال قولته المشهورة (لا قدر والأمر أنف) ولما بلغ هذا ابن عمر تبرأ منه ومن أصحابه . وقد قيل أن أول من تكلم بهذا رجل نصرانى أسلم وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى . وسمى أصحاب هذا الرأى بالقدرية .

وأساس مذهبهم إنكار قدر الله والمغالاة فى إثبات القدرة للإنسان وأنه حر الإرادة فى أعماله كما كان من مبادئهم القول بخلق القرآن .

وقد ذابت القدرية والجبرية فى غيرهما من المذاهب ولم يعد لهما وجود مستقل وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة .

المعتزلة

أساس نشأتهم اختلاف واصل بن عطاء مع أستاذه الحسن البصرى فى حكم مرتكب الكبيرة ، وتبعه عمرو بن عبيد فى رأيه وكان هذا فى البصرة وانتشر مذهبهم فى العراق واعتنقه بعض خلفاء بنى أمية كما اعتنقه بعض

الخلفاء العباسيين وكان لهم فى العصر العباسى مدرستان ، إحداهما بالبصرة والثانية ببغداد وقام بين المدرستين جدال وخلاف فى كثير من المسائل .

مبادئ المعتزلة

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين فمرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب مخلد فى النار وليس مؤمناً ولا كافراً .

(٢) القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرة أودعها الله فيه .

(٣) القول بالتوحيد ، ولهذا نفوا صفات الله تعالى القديمة حتى لا يشبه المخلوقين . ودعاهم إلى هذا قيام جماعة تجسد الإله وتشبهه بالحوادث .

(٤) قولهم بأن العقل يحكم بحسن الأفعال وقبحها .

(٥) القول بخلق القرآن وعدم رؤية الله فى الآخرة .

وقد سمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوهم فى إثبات قدر العباد واختيارهم. كما لقبوا بالجهمية (الجبرية) لأنهم وافقوهم فى نفى الصفات وخلق القرآن وعدم رؤية الله تعالى فى الآخرة ، والمعتزلة يتبرءون من الاسمين .

أهل السنة

هم أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى ومن سلك طريقهما وكانوا يسيرون على طريقة السلف الصالح فى فهم العقائد ، وقد جعلوا القرآن الكريم المنهل العذب الذى يلجأون إليه فى تعرف عقائدهم ، فكانوا يفهمون من الآيات القرآنية مسائل العقائد وما أشبه عليهم منها حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ولا تنكره العقول فإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا .

وقد سمى أتباع أبى الحسن الأشعرى (بالأشاعرة) وأبى منصور الماتريدى (بالماتريدية) ولم يكن بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا فى أمور يسيرة كمفهوم الإيمان والإسلام ومعنى القضاء والقدر وغير ذلك مما يقع عادة بين أهل الطريقة الواحدة ولا يقتضى تخالفاً فى المذهب .

الشـــيعة

الشيعة أقدم الفرق الإسلامية . وأصلهم أصحاب الرأى القائل بأولوية آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بالخلافه وأحق آل البيت هو على بن أبى طالب .

وقد ظهروا بمذهبهم فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ونما وترعرع فى عهد على كرم الله وجهه ، ولما لعلى من المكانة الممتازة فى الإسلام أخذوا ينشرون نحلتهم على الناس .

ولمـــا جاء العصر الأموى ووقعت المظالم على العلويين ورأى الناس فى على وأولاده شهداء هذا الظلم انتشر المذهب الشيعى وكثر أنصاره .

مبادئ الشيعة

(١) إن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبى إغفالها ؛ بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر .

(٢) عين رسول الله صلى الله عليه وسلم عليـــا للخلافة بنصوص ينقلونها ويؤولونها لا يعرفها نقلة الشريعة وأهل الحديث .

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب على بالوصى ، فهو إمام بالنص لا بالانتخاب ، وقد أوصى على لمن بعده وهكذا على كل إمام وصى من بعده

(٣) على أفضل الخلق فى الدنيا والآخرة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن عاداه أو حاربه فهو عدو الله إلا إن ثبتت توبته ومات على حبه .

(٤) ولم يكن الشيعة على درجة واحدة ، بل منهم المغالى والمقتصد وقد اقتصر المعتدلون على تفضيله على بقية الصحابة من غير تكفير أو تفسيق لأحد . واعترفوا بصحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، وقالوا ليس بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين على إلا مرتبة النبوة وأعطينا علياً

ما عداها من الفضل المشترك . أما المغالون المتطرفون فلم يكتفوا بتفضيله على الخلفاء وعصمته بل رفعوه إلى مرتبة النبوة ، ومنهم من أله . . أى زعم حلول الإله فيه ، ومنهم من قال كل روح إمام حلت فيه الألوهية تنتقل إلى الإمام الذى يليه .

وقد كان التشيع مباءة خصبة لظهور القول بالرجعة والحلول والتناسخ والتجسيم والتشبيه وعدم ختم النبوة . والحق الذى لا مراء فيه أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من يريد هدم الإسلام لعداوة أو حقد . ومن يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها فى الإسلام ، ومن يريد استقلال بلاده والخروج على الدولة الإسلامية .

كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم .

الزيدية

من أشهر فرق الشيعة وتنسب إلى إمامها زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب وكان تلميذاً لواصل بن عطاء . ومذهبهم أقرب مذاهب الشيعة إلى مذهب أهل السنة والجماعة . فهى لم تغل فى عقائدها ولم يكفر الأكثرون منها أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الألوهية ولا إلى مرتبة النبوة ، وقد خرج إمامهم على هشام بن عبدالملك فقتله وصلبه سنة ١٢١ وخرج بعده ابنه يحيى فقتل سنة ١٢٥ هـ . ولا يزال مذهب الزيدية فى اليمن .

أصول مذهبهم :

(١) إن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم وأوصاف الإمام أن يكون فاطمياً ورعاً تقياً سخياً شجاعاً يخرج داعياً الناس لنفسه . . ولا يقولون بالتقية .

(٢) يجوز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؛ لأن هذه الصفات للإمام الأمثل فهو بها أولى من غيره فإن اختار أهل الحل والعقد إماماً لم

يستوف الشروط وبايعوه صحت بيعته ، وبنى على هذا صحة بيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما . وقد خذل زيداً أكثر الشيعة لقوله بهذا الأصل .

(٣) يجوز خروج إمامين فى قطرين مختلفين ، ولا يجوز خروج إمامين فى قطر واحد .

(٤) تخليد مرتكب الكبيرة فى النار ما لم يتب توبة نصوحاً ، وهذا من أثر تلمذة إمامهم لواصل بن عطاء ، كما أنه من أسباب خروج الشيعة عليه .

الإماميــة

هم القائلون بأن إمامة على ثابتة بالنص عليه بالذات من النبى صلى الله عليه وسلم نصاً ظاهراً من غير تعريض بالوصف ؛ ولا بإشارة بالعين . وسموا إمامية لتركيز آرائهم حول الإمامة ، وهى منتشرة فى إيران والعراق والهند .

أصول مذهبهم :

(١) النص على الإمام بالذات ، ولهذا نص النبى صلى الله عليه وسلم على إمامة على ؛ لأنه ليس فى الدين أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقة النبى للدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة لأنه بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا ؛ بل يجب عليه أن يعين شخصاً يرجع إليه . ويستدلون على تعيين على بالذات بما يروونه عن النبى مثل (من كنت مولاه فعلى مولاه) ومثل (أقضاكم على) وغير ذلك من الأدلة التى يرون فيها إثبات دعواهم ولا يوافقهم على ذلك مناهضوهم .

(٢) ولم يقتصروا على القول باستحقاق على للخلافة دون سائر الصحابة بل حكموا بتكفير كل الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

(٣) إن الاعتراف بالإمام جزء من حقيقة الإيمان وبدونه يكون الشخص كافراً .

(٤) القول باختفاء الأئمة ورجعتهم .

(٥) جعل سلسلة الخلافة بعد على فى أولاد فاطمة . فاتفقوا على إمامة الحسن والحسين واختلفوا بعد ذلك فى تسلسل الأئمة إلى فرق متعددة أشهرها :

١ - الإثنا عشرية .

٢ - الإسماعيلية .

١ - الإثنا عشرية

وهى تعيش فى كثير من البلدان الإسلامية ، وخصوصاً فى إيران والعراق .

وسموا « الإثنا عشرية » لأنهم يؤمنون باثنى عشر إماماً متتابعين هم : على بن أبى طالب ، ثم ابناه الحسن فالحسين ، ثم على زين العابدين بن الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم على بن موسى ، ثم محمد بن على ، ثم على بن محمد ، ثم الحسن بن على ، ثم محمد بن الحسن ، وهذه الفرقة تسمى بالجعفرية حينا ، والإثنى عشرية حينا آخر ، والإمامية حينا ثالثاً . ولعلها أبعد الفرق الإمامية عموماً عن الاتصاف بالغلو وأقربها إلى التعقل فى أمور دينها ، ومن أقرب فرق الشيعة عامة إلى جمهور أهل السنة .

وإذا كانت قد سميت بالجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص ؛ فإنها سميت بذلك لأمر هام وهى أنها تستمد أمور دينها من الإمام جعفر الصادق الذى كان رضى الله عنه غزير العلم فى الدين وافر الحكمة كامل الأدب زاهداً ورعاً متسامحاً بعيداً عن الغلو ، ولم يكن يؤمن بالغيبة أو الرجعة أو التناسخ ، كما أنه كان بعيداً عن الاعتزال .

والإثنا عشرية فى حقيقة أمرها وروح عقيدتها تتميز بالآتى :

(١) دينهم التوحيد المحض بالنسبة لصفات الله ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوقين أو ملابسة لهم فى صفة النقص والإمكان والتغير والحدوث وما ينافى وجوب الوجود والقدم والأزلية إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس ، وبطلان التناسخ والاتحاد والحلول والتجسيم وغير ذلك مما تورطت فيه فرق كثيرة من فرق الشيعة .

(٢) باب الاجتهاد عند « الإثنا عشرية » لا يزال مفتوحاً ، وللمجتهد أن يبدى رأيه ، وأن يؤخذ به ما دام متفقا مع الكتاب والسنة متمشياً مع المعقول ، وإلا فلا قيمة له .

(٣) والاثنا عشرية يزيدون على أركان الإسلام ركنا سادساً هو الاعتقاد بالإمامة على ما مر ، ويتمسكون بهذا الركن تمسكاً شديداً لا سبيل إلى التهاون فيه .

(٤) يعتقدون فى اثنى عشر إماماً متسلسلين ، وهم الذين مر ذكرهم ، وكل إمام سابق لابد أن ينص على اللاحق ويوصيه فالنبى أوصى عليـــا ، وعلى أوصى الحسن ، والحسن أوصى الحسين وهكذا .

(٥) يرون أن الإمام معصوم كالنبى عن الخطأ ، وأن الإمام دون النبى وفوق البشر .

(٦) يرون أن من يشاركهم من المسلمين هذا الاعتقاد فى الإمامة فهو مؤمن ، وأما من يؤمن بالأركان الخمسة المعروفة فقط دون الركن السادس الخاص بالإمامة فإنه مؤمن بالمعنى العام ولا يخرج عن الإسلام ولـكن درجته بعد درجة الشيعة .

(٧) لا يقبلون الأحاديث إلا إذا رويت عن طريق أهل البيت ، وأما الأحاديث المروية عن غير طريق أهل البيت فإنها عندهم لا تساوى مقدار بعوضه – على حد تعبير السيد كاشف الغطاء – وهذا سبب كبير من أسباب الخلاف بين الشيعة وأهل السنة .

(٨) مع العلم بأن « الاثنا عشرية » يقولون برجعة الإمام محمد القائم بالحجة الثانى عشر ، هو المعروف عندهم باسم المهدى المنتظر .

هذه أهم الفروق فى الأصول ، وهناك فروق فى الفروع مثل تعطيلهم صلاة الجمعة بسبب غياب الإمام وفرضية صلاة العيدين وفرضية زكاة الخمس لآل محمد زيادة على الزكاة المعروفة وإباحة زواج المتعة . . . إلخ . مما يطول ذكره ا.هـ. باختصار من كتاب « الإسلام بلا مذاهب » .

(٢) الإسماعيلية

· سموا بذلك لأنهم يوقفون الأئمة عند إسماعيل بن جعفر ويقولون بتعيينه بالنص من أبيه . ويسمون أيضاً بالباطنية لقولهم : إن للقرآن ظاهراً وباطناً ولاعتقادهم بالإمام الباطن . ومن أئمتهم عبيدالله المهدى الذى انتسب إلى إسماعيل بن جعفر وملك المغرب واستولى بنوه على مصر ولم يثبت تاريخياً صحة هذا النسب .

وقد أثبت التاريخ أن من وضعوا أساس مذهب الإسماعيلية من أولاد المجوس وضعوا تعاليم لهدم الإسلام درجوها تسع درجات تبتدىء بالتشكيك فى أحكام الإسلام كقولهم : ما معنى رمى الجمار ؟ ولم كانت الصبح ركعتين والظهر أربعاً ؟ وهكذا . وتنتهى بهدم الإسلام والتحلل من قيوده ، وأولوا آيات القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم بما يوافق هواهم .

أهم مبادئهم :

(١) القول بقدم العالم وأن له مدبرين . الأول الله والثانى النفس .

(٢) الإمام يعين بالنص لا بالانتخاب وهو معصوم من الصغائر والكبائر.

(٣) تكفير من اغتصبوا الخلافة من الإمام .

(٤) للقرآن معنى ظاهر ومعنى باطن لا يعلم باطنه إلا الأئمة ، لأنهم ورثوا علم الباطن ، ولا معنى للتمسك بحرفية القرآن ويجب فهمه على طريقة التأويل والمجاز .

(٥) لا يؤمنون بعلم ولا بحديث إلا ما روى عن أئمتهم .

(٦) الأنبياء سواس العامة وأما الخاصة فأنبياؤهم الفلاسفة فالشعائر الدينية للعامة وأما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها .

(٧) الجنة نعيم الدنيا والعذاب اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام وغيرهما .

(٨) إنكار معجزات الأنبياء .

(٩) إباحة المحرمات والمحارم : فأباحوا شرب الخمر والبنات والأخوات وجميع الملذات .

وقد ظهرت هذه الطائفة فى عهد الدولة العباسية ، ولا يزال لها بقايا إلى اليوم فى الهند وفارس وزنجبار والشـام والخليج الفارسى ، وكان يتزعم فريقاً منهم أغاخان الزعيم المشهور ، وخلفه أحد أحفاده ، وتقدم إليه الأموال والهدايا كل عام .

وزعماء هذه الطائفة يغيرون ويبدلون فى المبادىء حسب أهوائهم .. وأتباعهم يعتقدون أن لهم التصرف فى أمور الدنيا والآخرة ولهذا تجمع الأموال للإمام لا للفقراء ، وكلما امتد الزمان زاد مذهبهم فساداً ولحق الناس من أعمالهم شر كبير .

النصـيرية

ومقرهم شمال سوريا بالجبال المعروفة بجبال النصيرية ومنهم قسم فى ولاية أطنة والاسكندرونة وقد سموا أنفسهم بالعلويين .

وينسبون لمحمد بن نصير من موالى بنى نمير وكان شيعياً إمامياً من أتباع إمامهم الحادى عشر الحسن العسكرى وقد أسس طائفة النصيرية على مبادىء معينة .

أهم مبادئهم :

(١) الديانة عندهم سر من الأسرار ولا تلقن للنساء لعدم استطاعتهن حفظ الأسرار ، أما الرجل فلا يباح له بسر دينه إلا بعد أن يبلغ التاسعة عشرة ويقسم على اليمين أن لا يبوح به ولو أريق دمه .

(٢) يدعون ألوهية على والأئمة من بعده ، ويزعمون أن عليـا مسكنه السحاب فإذا مر عليهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن .

(٣) يقولون بتناسخ الأرواح فالخيرة تحل فى النجوم ، والشريرة فى أجسام الحيوانات النجسة .

(٤) يستعملون الأسماء الإسلامية ما عدا اسم عمر وأبي بكر ولا يصومون رمضان ويحتفلون بالأعياد المسيحية .

(٥) الجنة والنار رمز دنيوى والصلوات الخمس أسماء على والحسن والحسين ومحسن وفاطمة . وذكر هذه الأسماء يغنى عن غسل الجنابة وعن الوضوء وسائر شروط الصلاة .

(٦) إباحة الخمر وأن أكبر الأبالسة عمر ويليه أبو بكر فعثمان .

وهؤلاء أخطر على الإسلام من اليهود وقد أفتى ابن تيمية فى زمانه بوجوب قتالهم وقتال الدروز .

البابيـــة

ظهرت هذه النحلة فى دولة إيران على يد المرزا محمد على الملقب بالباب المولود فى شيراز سنة ١٨١٩ م وقد ادعى أنه المهدى المنتظر ثم ادعى النبوة والرسالة وأن الله أوحى إليه بكتاب (البيان) الناسخ للتوراة والإنجيل والفرقان ثم ادعى أنه المسيح المنتظر ثم ارتقى إلى ادعاء الألوهية .

وقد عهد بالخلافة من بعده إلى أحد أتباعه وهو مرزا يحي الملقب بصبح أزل ومن بعده إلى أخيه حسين الملقب بالبهاء .

ولمـــا قتل الباب بفتوى من العلماء سنة ١٨٥٠ تنازع الأمر من بعده يحي وأخوه حسين وأخذ كل منهما يدعى بأن الله أوحى إليه بكتاب يصدق دعواه ويكذب دعوة أخيه وكانت الغلبة فى هذا النزاع للبهاء فظهرت البهائية خلفاً للبابية .

البهائيـــة

هم أتباع المرزا حسين على الذى لقب نفسه بالبهاء المولود فى بلدة نور من ضواحى مازندران سنة ١٢٢٣ هـ . قام فى أول أمره بخلافة الباب ثم تدرج إلى المهدوية ثم النبوة والرسالة ثم الربوبية والألوهية . وقد عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه عباس المسمى عبد البهاء وقد دان البهائيون لكل خليفة بعد البهاء وقدسوه وعبدوه مثل عبادتهم للبهاء .

وقد نزل خليفتهم بمصر سنة ١٨٩٢ ﻫ وأسس فيها الدعوة للبهائيين وهلك البهاء فى مدينة عكا سنة ١٣٠٩ﻫ (١٨٩٢م) .

دين البابية والبهائيـــة

(١) إن للوحى تأويلات سامية ومفاهيم خفية لا يجليها إلا ربها (الباب) أو (البهاء) وما يعلم تأويله إلا الله : أى الباب أو البهاء .

(٢) ادعى البهاء المهدوية ثم الرسالة وأنه نزل عليه كتاب الأقدس الذى نسخ جميع ما تقدمه من الكتب السماوية ثم ادعى الألوهية وأمر بعبادة البشر .

(٤) انكار معجزات الأنبياء والبعث والحشر والوعد والوعيد والجنة والنار ولهذا ارتكبوا تأويل النصوص الدالة عليها بما يتنافى مع اللغة والدين .

(٥) نسخ جميع الأديان ورسوم عبادتها والحدود الواردة فيها لعدم صلاحيتها للعالم فى عصر التقدم ولهذا جاء البهاء بدينه الجديد للأحمر والأسود وقد ورد فى أحكامه :ـ

إن الصلاة تسع ركعات فى البكور والزوال والآصال ، وقد بطلت صلاة الجماعة ، والقبلة عكا والحج إليها للرجال دون النساء ، وتحريم الحجاب وإباحة السفور والاختلاط وجعل الحدود عقوبات مادية وغير ذلك من مفترياتهم وكذبهم .

قال تعـــالى :

[ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ] [1] .

طريقهم فى الدعوة إلى مذهبهم

مخاطبة أهل كل ملة ودين بما يوافق هواهم فتجد الداعية منهم مسلماً مع المسلمين ، ويهودياً مع اليهود ، يوهم أهل كل دين بأنه منهم وأنه يريد الإصلاح وإزالة الضغائن والتوفيق بين أهل المذاهب فإذا آنس الضعف من أحد أخذ يشككه فى دينه وأورد عليه الشبه وأول الآيات بما ينطبق على مزاعمه فى دينه ثم يدعوه إلى عبادة البشر والعياذ بالله .

وهذا شأنهم فى ممالك الشرق . خداع ونفاق مع المسلمين ، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، أما فى أوروبا وأمريكا فدعوتهم جهاراً لا يخشون حساباً .

القاديانية (الأحمدية)

هم أتباع غلام أحمد المولود فى (قاديان) مركز بنجاب مديرية كورداسور بامند سنة ١٢٥٢ هـ . وقد ظلوا فرقة واحدة مدة حياته وأيام خليفته نور الدين . وفى آخر حياة نور الدين ابتدأ الخلاف وكان من أثره انقسامهم بعد وفاته إلى شعبتين :

(١) شعبة قاديان : ورئيسهم محمود بن غلام أحمد .

(٢) شعبة لاهور : وزعيمهم محمد على الذى ترجم القرآن إلى اللغة الانجليزية .

والشعبة الأولى تدين بنبوة أحمد ، والثانية تعتقد أنه مصلح وهذا خلاف ما ورد فى كتاب مبتدع النحلة من أنه مهدى ثم نبي مرسل ثم عيسى الموعود

---

(١) الأنعام : ٩٣ .

به ، وتوفى أحمد بعد حياة حافلة بنبوة تحرم الجهاد وتدعو إلى مساعدة الإنجليز لأنهم أرباب نعمته وأصحاب الفضل عليه فى حمايته ونشر دعوته .

مبادئ القاديانية

(١) القول بعدم ختم النبوة وتأويل ما يدل على ختمها .

(٢) غلام أحمد هو المهدى والنبى المؤيد لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو المسيح الموعود به .

(٣) باب الوحى مفتوح للناس وقد نزل عليه ويسمعه بعض أتباعه .

(٤) تحريم الجهاد والدعوة لطاعة ولاة الأمر الانجليز .

(٥) قاديان ومسجدها تماثل مكة ومسجدها ، والحج إليها مثل الحج إلى مكة فهى ثالث الأماكن المقدسة .

(٦) تكفير من لا يصدق به من المسلمين وتمثيلهم باليهود الذين كذبوا المسيح (يعنى نفسه) فى السلسلة المحمدية .

(٧) تفضيله وتفضيل أتباعه على جميع الأنبياء وأتباعهم .

(٨) ادعاؤهم أن المعنى المقصود من الآيات لا يدركها إلا المسيح القاديانى ، وإنكارهم أن سنة الرسول أصل فى التشريع وهم يدعون الناس عن طريق أنهم مسلمون مصلحون .

والقاديانية والبهائية أخطر أصحاب المذاهب على الأمم الإسلامية وأشد كفراً من اليهود والنصارى والمجوس . ويبطل دعوتهم ما قدمناه من ثبوت عموم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وختمها للرسالات ، وهم منتشرون فى البلاد الإسلامية يعاونهم الاستعمار بسلطانه الخفى وماله ؛ لأنهم أعوانه وأداته فى إشاعة الفساد بين المسلمين(١)

---

(١) راجع كتاب التوحيد والفرق للشيخ حسين متولى .

خـــاتـــمة

أيها القارئ الكريم :

قدمت إليك كتاب (تبسيط العقائد الإسلامية) رجاء أن يملأ أهم جانب من جوانب الفراغ الذى يشعر به الجيل المعاصر ، وأن يكون مبارك النفع هادياً إلى طريق النجاة والسعادة ، دافعاً إلى انطلاقة سليمة تجدد آمال أمتنا ، وتحيي موات قلوبها ، وتأخذ بأيديها إلى ربها ، لتشعر بلذة معرفته ، وسعادة الحياة معه ، ومتعة العمل والجهاد فى سبيله .

وقد حاولت قدر المستطاع الإلمام بأهم القضايا المتصلة بالعقيدة الإسلامية ، وتقديمها إلى القارئ مدعمة بالأدلة القوية ، ليجد زاده منها ميسراً ، وليصبر على علم بما يجب اعتقاده . ويستطيع أن يفيض من علمه هذا على أهله وذوى قرباه والمتصلين به .

والله نسأل أن يجعل منه منار هداية للسائرين ، وحجة دامغة للمعاندين والمكابرين .

إنه سميع مجيب . .



المراجع

١ – تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير .

٢ – تفسير القرآن للإمام النسفى .

٣ – تفسير القرآن للإمام الشوكانى .

٤ – شرح النووى على صحيح مسلم للإمام النووى .

٥ – فتح البارى شرح البخارى لابن حجر .

٦ – زاد المعاد لابن القيم

٧ – طريق الهجرتين لابن القيم .

٨ – الشفاء للقاضى عياض .

٩ – الفتاوى الكبرى لابن تيمية .

١٠ – عصمة الأنبياء للفخر الرازى .

١١ – الرسالة الحميدية لحسين أفندى الجسر .

١٢ – رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

١٣ – الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى .

١٤ – عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى السقا .

١٥ – التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب .

١٦ – لقط المرجان فى أحكام الجان لابن القيم .

١٧ – آكام المرجان فى غرائب وأحكام الجان للقاضى بدر الدين الشبلى .

١٨ – مذكرة التوحيد والفرق الإسلامية للشيخ حسين متولى .

١٩ – الدين والحياة للمكتب الفنى بوزارة الأوقاف المصرية .

٢٠ – إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

٢١ – الروح لابن القيم .

٢٢ – حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم .

٢٣ – فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .

٢٤ – دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى .
٢٥ – لغز الحيـاة للدكتور مصطفى محمود .
٢٦ – الله جل جلاله لسعيد حـوى
٢٧ – جواهر القرآن لطنطاوى جوهرى .
٢٨ – تفسير المنار لمحمد رشيد رضـا .
٢٩ – رياض الصالحين للإمام النووى
٣٠ – الترغيب والترهيب للمنذرى .
٣١ – الروضة الندية للقنوجى .
٣٢ – تفسير الفخر الرازى .
٣٣ – الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد يوسف موسى .
٣٤ – شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز .
٣٥ – شرح العقائد النسفية للتفتازانى .